

THE LIBRARIES  
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY



(vol. 5)



دكتور عبد اللطيف حمزة

# أدب المقاتل الصحفي في عصره

الجزء الخامس

مصطفى كامل

صاحب اللواء

الطبعة الاولى

ملتزم الطبع والنشر  
لجنة الجامعيين لنشر العلم



دكتور عبد اللطيف حمزة

# أدب المقاتل الصحفي في مصر

المجلد الخامس

مصطفى كامل

صاحب اللواء

لطبعة الاولى

ملتزم الطبع والنشر

لجنة الجامعيين لنشر العلم



PN

5462

· H28

v. 5



## الأهداء

إلى مصر المستقلة أهدي كتاباً في تاريخ الأدب الصحفي  
لمصر المحتلة ضارعا إلى الله القدير أن يصون لها عزها  
ومجدها وحريتها واستقلالها إلى أبد الأبدین.

عبد الطيف حمزة



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

حقيق بنا حين نقدم للقراء هذا الجزء الخاص بصاحب اللواء أن نصل بينه وبين الأجزاء الأربعة التي سبقتها ، وفي الجزء الأول من هذه السلسلة التي خرجت باسم «أدب المقالة الصحفية في مصر»

تحدثنا عن المدرسة الأولى من المدارس الصحفية التي ظهرت في هذا القطر ، وهي المدرسة التي كان على رأسها رفاعة الطهطاوي محرر «الوقائع المصرية» و«روضة المدارس» ومن راجعها عبد الله أبو السعود محرر جريدة «وادي النيل» ومحمد أنسي محرر صحيفة «روضة الأخبار» وميخائيل عبد السيد محرر جريدة «الوطن» وغيرهم .

وقصارى القول في هذه المدرسة أنها حاولت إنشاء المقال الصحفي ، ولسكنها تعثرت في الطريق . والسبب في ذلك أنها كانت مقيدة بمراث أدبي هزيل لم يعنها على القيام بهذا الفن الجديد الذي اضطلعت به ، وهو الصحافة . ثم في الجزء الثاني من هذه السلسلة تحدثنا عن ثلاثة من أعلام المدرسة الصحفية الثانية ، وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم فرأينا أعلام هذه المدرسة ينجحون نجاحاً عظيماً في كتابة المقال ، وعلى أيديهم كتب لمصر نجاح تام في هذا الميدان . ولسكن ثلاثتهم كانوا أدباء ، فغلب على صحافتهم الأسلوب الأدبي الممتاز . وتقدم أديب إسحاق على صاحبيه في هذا المضمار . ثم كان محمد عبده واسطة هذا العقد من السكتاب . أما ثالثهم وهو النديم فلا مرء في أنه كان صحفي مصر الممتاز في القرن الماضي غير مدافع ، وكان من وسائله الصحفية الناجحة إذ ذاك وسيلة الحوار في قصة رمزية حيناً ، وأخرى غير رمزية حيناً ، وكان يكتب باللغة العربية تارة ، ويكتب بالعامية تارة أخرى . وكان حوار الرجل في الميدانين لا يشق له غبار .



ثم كان من أعلام هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة رجل أغرانا كثيراً بأدبه ، واستمالنا اليه بروعة قلمه ، وبهر أعيننا بثروته اللفظية والفكرية ، وراعنا أخيراً بتلك الوسيلة الأدبية ونعنى بها القصة الخيالية ، يكتبها في نقد السياسة أو المجتمع . وقد حملنا كل ذلك على أن نخصه بالجزء الثالث من أجزاء هذه السلسلة . وهذا الأديب الممتاز الذى صنع بنا كل ذلك وصنعنا به كل ذلك هو إبراهيم المويلحى .

ثم فى الجزء الرابع من أجزاء هذه السلسلة بدأنا الحديث عن المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر ، وزعيمها السيد على يوسف صاحب المؤيد . وهو أول من فصل نهائياً بين السكتابة الصحفية الخالصة والسكتابة الأدبية الخالصة . وعرف الفرق الواضح بينهما . لذلك والظروف التى ظهرت فيها « المؤيد » قلنا عن هذه الجريدة الشهيرة « إنها ظهرت فى الوقت الصحيح ، واختار لها القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها المنهج الصحيح » .

وبظهور السيد على يوسف على مسرح الصحافة المصرية بدأت هذه الصحافة طوراً جديداً من حيث الاصاله ، ومن حيث الفن ، ومن حيث الاسلوب . أما الاصاله ، فلأن هذه الصحافة أصبحت بالفعل صحافة رأى وفكرة ، أو صحافة هذا الحزب أو ذاك من أحزاب الأمة . وكان لكل منها رأى فى المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها .

وأما الفن الصحفي فلأن صحيفة « المؤيد » وزميلاتها من الصحف اليومية الأخرى « كاللواء » و « الجريدة » وغيرها أصبحت لها نظام خاص فى تبويب الصحيفة ونظام خاص فى طريقة العرض . كما أصبحت أكثرها يجربى وراء هدف رئيسى واحد : هو مقاومة الاحتلال البريطانى فى مصر .

وأما الأسلوب فلأن صاحب « المؤيد » كان — كما قلنا — يفرق بين السكتابة الأدبية والسكتابة الصحفية ، ولأنه كذلك وضع للناس نموذجاً جديداً فى كتابة المقال السياسى .



وهانحن بعون الله تعالى وحسن توفيقه نسل بقرائنا إلى الجزء الخامس من أجزاء هذه السلسلة . وهو الجزء الخاص بالزعيم الشاب مصطفى كامل .

ومصطفى كامل في نظرنا تلميذ مجتهد من تلاميذ المدرسة الثالثة ، كتب بأسلوبها ، واتبع منهاجها ، وأصبح لا ينفرد عن رجالها إلا بميزتين واضحتين : أولاهما — الاسترسال في اصطناع الأسلوب الخطابي .

والثانية — إثارة الشعور بالمعاني الوطنية الجديدة التي جرت على لسانه وكان لها أعظم صدى في مواطنيه .

وسنحاول في هذا الجزء الخامس أن نشرح الظروف التي أحاطت بهذا الحوارى وجعلت منه زعيما في السياسة ، وزعيما في الصحافة ، وزعيما في الخطابة ، وزعيما في الدعوة لمصر في جميع أنحاء العالم الأوروبى .

ولقد درج زعمائنا المصريون في أوائل هذا القرن على خطة سديدة ، وفكرة سليمة ، عادت بالفائدة عليهم وعلى الشعب المصرى في ذلك الوقت . فحرص كل واحد من أولئك الزعماء على أن تكون له صحيفة باسمه تعبر عن رأيه ، وتصل بين أفراد الشعب وبينه ، وتشارك في تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى . فكان من النادر أن يمر يوم في حياة صحيفة من صحف الرأى في مصر دون أن تشتمل هذه الصحيفة على مقال قيم لصاحبها . وكانت اللواء من أسبق الصحف المصرية يومئذ إلى إبداء الرأى . والذي لا ريب فيه أن صاحب اللواء كان من أغنى الزعماء الصحفيين السياسيين في زمانه بالمعاني الوطنية الجليلة ، والعواطف القومية الشريفة ، والمعنى الجليل إذا خطر ببال صاحبه تطلب لفظا جليلا . والعاطفة الشريفة إذا ازدحمت في صدر صاحبها طلبت كفوآ لها من العبارات القوية . وكذلك كان أسلوب صاحب اللواء في السكتابة ، وأسلوبه في الخطابة .

وقد جعلت هذا الجزء من أجزاء السلسلة في ثلاثة كتب :

أولها — كتاب عنوانه « على هامش الحركة الوطنية في مصر » هو خلاصة

قراءات ، وثمرة مراجعات في التاريخ الحديث ، وفي السياسة العالمية في تلك النهضة المباركة التي نسميها « حركة الوعي القومي في مصر » .

وثانيها - أي ثاني الكتب التي اشتمل عليها هذا البحث كتاب عنوانه « حياة مصطفى كامل » أعترف منذ الآن بأنني انتفعت فيه كثيراً برجلين ، هم : المرحوم علي بك فهمي شقيق مصطفى كامل باشا والمؤرخ الكبير عبد الرحمن بك الرافعي صاحب تاريخ الحركة القومية في مصر .

وأما ثالثها - فسكتاب عنوانه « مصطفى كامل والصحافة » . وهذا الأخير هو الثمرة المرجوة من وراء هذا البحث ، وهو الذي قضيت في سبيله معظم الوقت ، ولأجله رجعت إلى صحف « الأهرام » « والمؤيد » و « اللواء » أتتبع في كل منها قلم هذا الشاب الذي هام بحب مصر ، وهامت به مصر . فاذا بي تجاه صورة رائعة لعقله وقلبه ونفسه . وهي صورة جذبتني وسحرتني وجعلتني أصبح في نفسي قائلاً :

« إن كل مصري لا يقرأ سيرة مصطفى كامل ويستوعبها في صدره جيداً يعتبر في نظري ناقصاً في تربيته الوطنية نقصاً ليس له ما يعوضه » .

( وبعد ) ففي الفترة الأخيرة من كفاحنا القومي ظهر شبابنا العربي وكأنا أعياه العثور على أمثلة حية للعظمة الحقيقية . فإلى هذا الشباب العربي أوثاب أقدم هذا الكتاب راجياً أن يجدوا فيه طلبتهم ويظفروا فيه ببيغيتهم ، ويرزوا في الوطن أنه خليف بمحبتهم ، وأنه أهل لتضحياتهم ، كما ضحى في سبيله ذلك الفتى الخالد الذكر مصطفى كامل ، طيب الله ثراه ، وجزاه عن أمته الجزاء الاوفى .

وقف هذا الشاب خطيباً في حفل افتتاح مدرسته وذلك في غرة شهر مارس عام ١٩٠٢ فكان مما قال :

« يحار بعض الناس في أمر هذه الديار إذا رأوا ما صارت اليه ، ويقولون إنها دخلت في عداد البلاد الميتة ، ويضربون صفحاً عن التاريخ وما حوى ، كأنه ليس



المرشد الأكبر للشعوب ، والمعلم الخبير الذي لا ريب في قوله ، ولا شك في صدق حكمه .

قام هذا النزاع في التاريخ بين قضيتين عظيمتين :

الأولى — يزعم أصحابها أن مصر ماتت ولن تحيا أبد الدهر لأن أمة حكمها الأجانب هذا الحكم الطويل ، وتقلبت عليها دول الأرض ، واستعبدها الزمان وأهلها ، وقهرتها الليالي والأيام ، لا تجد من مادة الحياة ما يكفي لنهضتها وارتقانها ، ودخولها في ميدان العمل والمنافسة .

وقال أصحاب القضية الثانية : إن أمة لاقت من الأهوال مالاقت أمة مصر ، وأسأت إليها الحوادث بهذا المقدار ، وكاختها الليالي هذا السكفاح الشديد ، ثم لا يزال في بنينا من يحس ويشعر ، ويعمل ويجهد ، ولا يزال هي حافظة لشكلها ، باقية على عهدا لأمة دونها كل الأمم . والجاهل من يزعم أنها فقدت مادة الحياة ، وتجردت عن عوامل القوة .

ثم قال رحمه الله : ليست حاجة مصر إلى شيء في هذا الزمن مثل حاجتها إلى تخرج رجال متحدى الكلمة ، متفقى الرأي ، عارفين بتاريخها ، معتبرين بعبر حوادثها ، ناهضين بها ، مجدين في سبيل إسماعها وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غير هذه . فأنما نحن لأنرى إلى تربية موظفين ، أو إعداد طلاب للشهادات ... ولسكننا نرى إلى تخرج رجال ، خلائقهم محبة الوطن ، والتمسك بالفضيلة ، والارتباط ببعضهم البعض ، والتفانى في خدمة هذه البلاد . نرى إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل ، وتهوى الشرف والمجد ، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء » إلى آخر ما قال رحمه الله .

ونحن نقول — الحق أن مصر كاخت من أجل استقلالها بكل الطرق ، ومارست في سبيل خلاصها وحررتها كل وسيلة ممكنة . فإذا أردنا أن نتخذ لأنفسنا عبرة من كل أولئك فلنؤمن إيماناً قوياً بملأ قلوبنا ، ويتمزج بدمائنا ، ويسيطر على نفوسنا أن مصر العزيزة لن يتم لها استقلالها المنشود ، ولن تنعم بحريتها الكاملة إلا بقوى ثلاث :

هي قوة الجيش ، وقوة العلم ، وقوة الخلق .  
وبقينى أن في واحدة من هذه الثلاث متى كملت وبلغنا بها المدى ما يضمن  
نجاحنا وبلوغ أملنا . فما ظنك بنا حتى نستكمل جميع هذه القوى ؟ إننا نرقى  
بسرعة عظيمة إلى مصاف الدول الكبيرة . وإننا نخليقون بهذه المنزلة في القريب  
العاجل بأذن الله .

مصر الجديدة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥٢

عبد اللطيف صمزه



# الكتاب الاول

## على هامشه الحركة الوطنية في مصر

« لكل لوحة فنية (صورة) . ولها كذلك ما يسمى  
( بخلف الصورة ) . والصورة هنا هي حياة مصطفى كامل وبلاؤه  
العظيم في ميدان الصحافة . وأما ( خلف الصورة ) فهذا الكتاب  
الأول الذي جعلته على مقدمات ثلاث :  
أولها — عن أوروبا والاستعمار .  
والثانية — عن أوروبا والاسلام .  
والثالثة — عن بناء الوعي القومى فى مصر » .

المؤلف

## المقدمة الاولى

# اوروبا والاستعمار

كانت أوربا في القرن التاسع عشر تضطرب اضطراب المحيط وتغلي غليان الرجل . فقد كان ذلك العصر عصر ثورة في السياسة ، وثورة في العلم ، وثورة في الصناعة ، وثورة في الاقتصاد ، وثورة في المجتمع الاوروبي نفسه آخر الامر .

فأما الثورة السياسية فاقترنت بالثورة الفرنسية التي جعلت شعارها : الحرية والاخاء والمساواة . وأما الثورة العلمية فقد بذر بذورها ببيكون وديكارت وغيرهما من العلماء . وكان من آثار هذه الثورة أن عرف الناس نظريات جديدة في أصل الانسان ، ومبدأ الخليقة عارضت ما جاء في السكتب المقدسة فأشاعت بين الناس موجة حادة من الألحاد سلبتهم إيمانهم ، وسلطت عليهم شياطين الشك تنوشهم من كل جانب . وأما الثورة الصناعية فقد أتت لتقويض المجتمع الاوربي من أساسه إذ كان من نتائجها المحتومة أن انطلق الانسان كما انطلقت الجن من قاتم سليمان ، وطفق يزاحم الطيور في السماء والأسماك في الماء ، ويربط بين أجزاء العالم كله بخيوط من حديد وأخرى من كهرباء .

ثم في أحضان الثورة الصناعية نشأت الثورة الاقتصادية ونمت وترعرعت في ظل الرأسمالية ، ووجدت برهانها ساطعا ، وغذاها وافرا في ذلك التعاون البعيد الذي كان بين هاتين الطبقتين المتمايزتين ، وهما طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال .

ويستطيع الكاتب أن يؤدب التاريخ . أعني ينظر اليه نظرة أدبية في أكثرها فيتألف له من تلك الحوادث مسرحية ذات مشاهد مختلفة ، من الخير أن نعرض لبعض مشاهدها .



## المشهد الأول

فيه تنشب الثورة الفرنسية ، وتعلن في الناس مبادئها وتصيب عقول المفكرين الأوروبيين بهزة عنيفة . ومن هؤلاء « جيته » المفكر الألماني الذي لم يكده يشهد الحرس البروسي بقوة وجبروته يرتد مهزوما أمام الفرنسيين الذين أسكروهم نشوة النصر في معركة « فاليمى » حتى صاح قائلاً « إن عصرًا جديدًا في تاريخ البشرية لا ريب قد بدأ »

ثم إن هذه الثورة الفرنسية تمخضت عن ذلك الفتى السكورسكى الذى ملا الدنيا وشغل الناس ، وظفر بأيات من التعظيم والتبجيل لم يظفر بها الأولياء والقديسون وذلك الفتى السكورسكى العجيب هو « نابليون »

كان نابليون كالسرطان فى جسم أوروبا . فلم يكده يظهر على مسرح السياسة الأوروبية حتى أشاع القلق فى أنحاء أوروبا : فقد حارب فى إيطاليا ، وهزم الأتراك فى مصر وسوريا ، وغزا أسبانيا ، واستولى على عرشه فى روسيا . ثم لم يكده يعبر بحر المانش حتى شهد الراية الإنجليزية وهى تخفق على تلك الجزيرة المنيعه فى عزة وشموخ أنف فارتد على عقبه وعاد إلى بلده . وكأما كان الشاعر الفرنسى « لافونتين » يشير إليه حين قص علينا فى إحدى خرافاته قصة الثعلب الجائع الذى مر على كرم غلب ناضج . فلما أعياه الوصول إلى هذا السكرم قفل راجعاً يقول : أى قيمة لهذا السكرم . إنه حصرم »

ولسكن الجزيرة لم تدع القائد الفرنسى يمضى فى طريقه كما مضى الثعلب فى خيال الشاعر الفرنسى . فقد نجح الانجليز فى تعبئة جيوش النمسا وبروسيا والروسيا ضد نابليون . وانتهى المطاف بهذا البطل العظيم إلى جزيرة « سنت هيلان » حيث قضى له الرجل ما بقى من حياته يكتب مذكراته ويعيش فى أوهامه ثم يأتى

## المشهد الثانى

من مشاهد هذه المسرحية . فيرتفع الستار عن إنجلترا وقد قطعت شوطاً

بعيداً في ميدان الانقلاب الصناعي الذي ظهرت طلائعه من قبل على يد كارل  
ماركس في ألمانيا . وكان من أثر ذلك أن تغيرت ملامح المجتمع الإنجليزي تغييراً  
بعيد المدى . فقد حلت الآلة محل العامل في صناعات الغزل والنسيج وغيرها .  
وانتشرت أساليب الزراعة بالآلات الحديثة في إنجلترا . وكان من نتائج ذلك أن  
هجر الفلاح الصغير مزرعته ، وأهرع إلى المدن فوجدها مزدحمة بالعمال  
وأصحاب رؤوس الأموال . ومن ثم انقسم الشعب الإنجليزي كما يقول «ذرزائيلي»  
قسمين بل أمتين : أمة الملاك وأصحاب رؤوس الأموال ، وهي التي أثرت إلى حد  
التخمة . وأمة العمال وصغار الملاك وهي التي افتقرت إلى حد يقرب من الاملاق  
وغمرت المنتجات الإنجليزية أسواق العالم في مستهل عهد الانقلاب الصناعي .  
ولكن القرن التاسع عشر لم يكد ينتهي حتى كانت الثورة الصناعية قد انتشرت  
في جميع الدول الغربية وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت منافسة تجارية حادة بين  
تلك الأمم الأوربية . وبعد أن كانت إنجلترا في مستهل القرن التاسع عشر تأخذ  
نفسها بمبدأ حرية التجارة الذي نادى به « آدم سميث » أصبحت في نهاية ذلك  
القرن مضطرة بازاء المنافسة التجارية الحادة إلى أن تلتبس لنفسها أسواقاً  
لتصرف بضائعها ، بل لا ترى بدا من استخدام القوة المادية بغية الحصول على  
هذه الأسواق !

ومن هنا بدأت إنجلترا حركتها الاستعمارية الواسعة . فتمت لها السيطرة على  
بوغاز جبل طارق وغيره من المواقع الهامة في البحار والمحيطات . وامتدت  
سيطرتها إلى استراليا وكندا ونيوزيلندة ، وجنوب أفريقيا ، ومصر والسودان  
ووصلت إلى الهند .

ولكن - ترى هل تقف الدول الأوربية مكتوفة الأيدي أمام تقدم  
الإنجليز في هذا الميدان ؟ كلا - فقد تطلعت هذه الدول هي الأخرى إلى أسواق  
توزع فيها بضائعها ، وأخذت تسمى في تكوين امبراطوريات تضارع امبراطوريتها .  
وقد أفضى كل ذلك إلى احتكاك دائم بين جميع تلك الدول .



وما كان حادث « فاشودة » كما سنرى الا مظهرآ من مظاهر هذا الاحتكاك بين انجلترا وفرنسا . أما الألمان فحين رأوا الانجليز سبب قوهم إلى احتلال مصر والسيطرة على الهند ووجوا المشروع « سكة حديد بغداد » يرومون به الوصول إلى أسواق الشرق عن طريق البر إذ حيل بينهم وبين الوصول إليها عن طريق البحر على أن نتائج الانقلاب الصناعى لم تكن مقصورة على ظهور التنافس الاستعمارى أو التجارى بين دول الغرب ، بل كان من آثاره كذلك ظهور الصراع الاجتماعى بين الطبقات وتبلور المذاهب الاشتراكية على يد « كارل ماركس » و « برنارد شو » ، و « وب » فى انجلترا وإن كان المذهب الاشتراكى الذى قدّمه كارل ماركس على قدر المجتمعات الصناعية فى المانيا لم يقدر له أن ينتصر انتصارا تاما إلا على يد لينين فى روسيا .

وكأنى بمخرج هذه المسرحية التاريخية التى تتحدث عنها قد أحب أن يرمح أعصاب النظارة بعد مشهدين تأثرين عاصفين من مشاهد هذه المسرحية ، فأنى بالمشهد الثالث منها هادئا لا يتحدث فيه إلى عواطف الجماهير بل يتحدث فيه إلى عقولهم ، ولا يحتكم فى قضاياه إلى السيف بل يحتكم فيه إلى العقل وإلى العلم . ومن ثم أنى .

### المشهد الثالث

وفيه نشر « شارلس ليل » Charles Lyell كتابه « مبادئ الجيولوجيا » وذلك بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٤٣ وقال فيه إن تاريخ العالم كله مكتوب على صخورهِ وإن قراءة هذه الصخور قد أثبتت أن عمر العالم يقدر بألوف الألوف من السنين ثم نشر شارلس داروين Charles Darwin كتابه « أصل الأنواع وطريقة الانتقاء الطبيعى » عام ١٨٥٩ ثم لم يلبث أن قفاه بمؤلفه العظيم « تسلسل الانسان » فكانت هذه المؤلفات كلها هى القارعة التى أيقظت الناس من سباتهم ، ونهت عقولهم كما يقول بيبكون فى « القسطاس الجديد » .

أجل — أحدثت هذه النظريات الجديدة آثارها العميقة فى الدين والسياسة ،

أما في الدين فقد أشاعت في الناس موجة من الشك والالحاد كما ذكرنا .  
وأما في السياسة فقد حاول القادة في أوروبا أن يفتفموا من بحوث علم  
البيولوجيا فنادوا بتشجيع السلالات القوية وتعيم السلالات الضعيفة . وغالى  
بعضهم بعد ذلك إلى حد أنه أخذ يروج للنظرية القائلة بتفوق جنس على جنس  
وطفق الانجليز أنفسهم يقسمون البشر إلى بيض وسود . ويزعمون أن معدن  
البيض مخالف لمعدن السود . وما برحت هذه النظرية تتطور مع الزمن حتى  
تبلورت في إنجيل الثورة الألمانية ، ونعني به كتاب « كفاحي » لهتلر . وهو  
الكتاب الذي دعا فيه الرجل إلى سيادة الجنس الآري على بقية أجناس البشر  
ثم شاء القدر أن يكون تعصب هتلر على هذا النمط عاملا من العوامل التي أسرعت  
بألمانيا نفسها إلى سوء المنقلب .

\* \* \*

وندع هذه المسرحية الاوربية جانبا لنلقى نظرة أخرى على هذا العالم  
الاوربي بعد إذ غدا مسرحا للتنافس التجاري والتنافس الاستعماري ، وأصبح  
كالمحموم الذي أخذته رعدة قوية وعجز عن أن يقف اهتزازات جسمه العنيفة  
من أثر هذه الرعدة .

ففي الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٧١ أزيح الستار في بهو « المرايا »  
بقصر فرساي عن حادث جلل هو إعلان الامبراطورية الألمانية ، وكانت هذه  
الامبراطورية بل الوحدة السياسية الألمانية ثمرة جهود قوية بذلها ذلك السياسي  
الذائع الصيت « بسمارك » وقد نتجج ذلك الداهية في إغراء فرنسا باحتلال تونس  
ليتناهى الفرنسيون بها عن الاكزاس واللورين . ووقف يرقب الزراع بين الانجليز  
والفرنسيين حول مصر والسودان . واستطاع ذلك السياسي الخطير كما يقول  
الاستاذ محمد رفعت باشا في كتابه « التيارات السياسية في حوض البحر الابيض  
المتوسط » أن ينتهج لنفسه خطة من شأنها أن تكفل لألمانيا أن تمسك بميزان  
القوى السياسية في القارة الاوربية .



قامت خطة بسمارك على إضعاف فرنسا ، وعلى الإبقاء بينها وبين إنجلترا ، وخاصة منذ أصبحت الأولى نائمة على الثانية بسبب انفرادها بتلك الغنيمة الباردة مصر ، حتى إذا نشبت الثورة المهدية في السودان وأصبح هذا القطر هو الآخر غنيمة لمن يسبق صاحبه إلى الظفر به في ميدان الاستعمار تطلعت فرنسا إلى هذه الصفقة الجديدة تريد أن تظفر لنفسها بحظ منها . فأرسلت حملة بقيادة المارشال ماريشان Marechand إلى السكنفو الفرنسي فسارت الحملة إلى هناك ثم اتجهت إلى الشمال قاصدة بحر الغزال إلى أن وصلت إلى « فاشودة » عند مصب السوبات . وهناك رفعت الحملة الفرنسية علمها على تلك البلدة . وكانت فرنسا ترى من وراء هذه الحركة إلى أغراض شتى :

منها أن ترغم إنجلترا على الاعتراف بنصيبها في السودان . ومنها مفاوضة إنجلترا عند ما تسمح الظروف بذلك في أمر الجلاء عن مصر .  
ولسكن ككتشنر خيب ظنون الفرنسيين منذ تصدى لحملتهم عند « فاشودة » وأقنعهم بالانسحاب عن هذه المنطقة بحجة أنها مصرية .

ولقد كان لهذا الحادث الخطير أسوأ الأثر في نفوس الوطنيين المصريين الذين علقوا آمالهم في جلاء الانجليز على مناهضة السياسة الفرنسية للسياسة البريطانية الاستعمارية . ثم جاءت رسائل مصطفى كامل التي أخذ يبعث بها إلى مدام جوليت آدم تفيض بالألم وتفصح عن خيبة الرجا . قال في إحداها : « إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل جوارحي المدنية الحديثة . ولسكن السياسة الفرنسية تعكس أمري وتجعلني ذاهلا أمام التناقض الغريب المستطور في تاريخها . عجبا - أنسيت فرنسا فاشودة ؟ إن الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحدا يجعلني آملا فيها الخ » .

وفي سنة ١٨٨٨ اعتلى عرش المانيا الأمبراطور « وليم الثاني » وكان شابا طموحا شديد الغرور بنفسه ، محبا للظهور ، أشربت نفسه حب الروح العسكرية البروسية فأعلن أنه ليس هناك غير سيد واحد في المملكة الألمانية هو « أنا » .



ومن أجل ذلك عزل إسمارك مؤسس الإمبراطورية الألمانية وبطلها الاوحد.  
ومنذ يومئذ وألمانيا تقتقر إلى سياسى كف، يقود سفينتها .

ثم لم يلبث الامبراطور أن فاه بتصريح خطير أعلن فيه « أن المانيا أصبحت  
بفضل صناعاتها وإتساع نفوذها الاقتصاى دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن  
هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيها أن يكون لها أسطول بحرى يضارع أكبر  
أسطول فى العالم ».

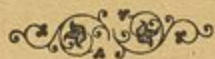
أجل - لقد كان هذا التصريح الذى نطق به الامبراطور الالماني فى أوائل  
القرن العشرين أخطر تصريح له فى حياته وحياة المانيا. وهو إن دل على شىء فأنما  
يدل على جهل هذا الشاب بنفسية الشعب الانجليزى وجهله بآماله وطبيعة كيانه  
فإن الانجليز وإن استطاعوا أن يغمضوا جفونهم على القذى ، ويطووا بطونهم على  
الطوى يستطيعون السيطرة على أعصابهم ولا يقدر وى على ضبط نفوسهم إذا  
رأوا سيادتهم على البحار أصبحت مهددة بخطر .

ومهما يكن من شىء فقد كان من نتائج هذه السياسة الألمانية الجديدة أن  
بئست انجلترا من صداقة المانيا . ثم زاد الطين بلة أن اعتلى عرش الامبراطورية  
البريطانية « ادوارد السابع » وكان شديد السكراهية لقريبه وليم الثانى امبراطور  
المانيا . فسمى الملك ادوارد فى التقريب بين السياسة الانجليزية والسياسة الفرنسية  
وكلت جهوده بنجاح تام بهذا الاتفاق الودى الذى عقده عام ١٩٠٤ وبمقتضى  
هذا الاتفاق أطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر والسودان ، وأطلقت انجلترا يد فرنسا  
فى شمال أفريقيا . وبذلك وضع الاتفاق الودى كما يقول السير « ادوارد جراى »  
حدا نهائيا لسياسة وخز الابر التى كانت قائمة بين فرنسا وانجلترا فى كثير من  
أنحاء العالم .

وإذا كان حادث فاشودة قد آلم المصريين ، وفى عضدهم إلى حد كبير فقد  
كان الاتفاق الودى قاصمة الظهر التى أطاحت بكل ما بقى لهم من أمل فى

مساعدة فرنسا لهم في محنتهم . يقول مصطفى كامل في رسالته إلى مدام جولييت آدم :-

« ليس في وسعي أن أتسلى عن همومي أمام هذا الوفاق الانجليزي الفرنسي المشؤوم الذي سيكون من ورائه أسوأ النتائج على وطننا التمس وخبديونا السيء الحظ . كما أنه ليس في وسع جميع مدارس المعمورة أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . إن مواطني يكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجليترا نفسها أقول ذلك وإن كنت أعلم أنه من القساوة المتناهية أن أقوله لك . ولكن أليست الصراحة أساس كل مودة وروحها ؟ . إنني أتألم ألماً مزدوجاً أتألم لك ولي وإلا فأذكرى أن فرنسا هي أول دولة صادقت على الاحتلال بعقد رسمي . أما أذل الوطنيين المصريين والفرنسيين ؟ إنك لا تدري مبلغ التشاخي الانجليزي في الوقت الحاضر . فأنهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنسا ولهم الحق أن يسخروا وأن موقفى الذاتى يصير مع ذلك من أضعف المواقف وأخطرهما . فان جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا إما أصدقاء للانجليز وإما يائسون » .





## المقدمة الثانية

# أوروبا والاسلام

منذ أصبحت أمم الشرق هدفاً من أهداف الاستعمار الاوروبي والساسة الاوريون يفكرون جدداً في هدم كيان هذه الأم وتوهين قواها وحل الرباط الذي يربط بينها ، سواء أ كان هذا الرباط سياسياً كما تصوره العلاقة بين الدولة العلية والأقطار الاسلامية التي تدين لها بالزعامة الحقيقية ، أم كان هذا الرباط معنويًا كما تصوره العقيدة الاسلامية التي تتعلق بها جميع الدول العثمانية . ومن ثم انصرفت جهود أولئك الجبابرة المستعمرين الى تلك الدولة العلية يريدون اضعافها وقد كانت هذه الدولة من حظهم تعاني اذذاك من آلام المرض والشيخوخة ما أطمع فيها تلك الدول الأوروبية . فاجتمعت كلمتها على تمزيق الدولة العلية وتقسيم هذه الدولة التي عرفت فيما بينهم باسم « الرجل المريض » ورمزوا الى فكرة تقسيمها باسم « المسألة الشرقية » .

والمسألة الشرقية في نظر المؤرخين عامة - ومصطفى كامل بوجه خاص - هي مسألة وجود الدولة العلية من قلب القارة الاوروبية وكان من أسباب عداوة الأوروبيين للعثمانيين اختلاف هؤلاء وهؤلاء في الدين ورغبة الأوروبيين في تقسيم الدولة العثمانية كقلتنا بحجة حماية رعايا المسيحية .

وكانت انجلترا من بين الدول الأوروبية اشدها بغضا للاسلام والمسلمين ، واكثرها رغبة في إغتنام الفرصة الثمينة التي تتيح لها امتلاك جزء من املاك العثمانيين . وقد أصبحت هذه المسألة الشغل الشاغل للعلماء والساسة على السواء . فأما العلماء فقد كتبوا في موضوع الاسلام كتباً شتى ومنها على سبيل المثال كتاب المستر بلانت « مستقبل الاسلام » وأما السياسيون فقد تمخضت أفكارهم عن مشروع ( الخلافة العربية ) ليحل محل الخلافة العثمانية .



ومهد ذلك لدخول الانجليز مصر واشتراهم مع المصريين في امتلاك السودان فيما بعد . وهكذا نبه المستر بلانت في كتابه السابق الذكر إلى أن العالم الاسلامي قوة كبيرة ، وأن المدبر لأموره سيكون قوياً واسع السلطان ، وأن نابليون كان من أغلى أحلامه تحقيق تلك الأمنية وأن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون في المدينة أو مكة ، وأن خليفة المسلمين يجب أن يكون رئيساً دينياً لأملاك دنوبيا . (١)

هكذا وصف مصطفى كامل المسألة الشرقية من بعض نواحيها بأنها مسألة النزاع القائم بين إنجلترا وبعض الدول الأوروبية بما فيها الدولة العلية وقال بعد ذلك : - « فواجب المسلمين أن يلتفتوا جميعاً حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح . ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذاتها . (٢)

وسترى في بعض فصول هذا الكتاب كيف عنيت جريدة اللواء عناية تامة بالمسألة الشرقية ، وشغلت نفسها طويلاً بأخبار الحرب المقدونية . وذلك فضلاً عن أن صاحب اللواء بدأ حياته السياسية بتأليف كتاب خاص بالمسألة الشرقية هو هذا الكتاب الذي اقتبسنا منه العبارتين السالفتين .

تلك إذن نظرة العالم الأوربي كله إلى العالم الاسلامي كله . وأنظر بعد ذلك إلى عبارة مصطفى كامل ، وهي العبارة التي يقول فيها

« وكان من المنتظر من اللورد كرومر - وهو الحاكم المطلق على أمة غير أمته لها آداب غير آدابه وعادات غير عاداته - أن يتقرب ما استطاع من نفس الأمة التي يحكمها ليقف على شيء من أفكارها ، وليجذب إليه ثقمتها وإخلاصها . أي أنه كان المنتظر منه أن يخفف من مرارة الحكم المطلق في النفوس باتباعه سبيل المستبدين الشرقيين في احترام آداب الأمم التي يحكمونها ، والوقوف بأنفسهم على

(١) راجع كتاب المسألة الشرقية لمصطفى كامل صفحة ٢٨

(٢) نفس المصدر صفحة ٣٠

عاداتها وتقاليدها . ولسكن قصر اللورد ولم يفعل ما فعله بونا برت من قبله . فالجنرال بونا برت بقى مدة إقامته فى القاهرة وهو يزور المساجد ويحضر الصلاة والأذكار ، وما ترك شعيرة من شعائر الله إلا واستفسر عنها ولا حفلة من الحفلات الدينية إلا شهدا ولا حلقة من حلقات الدروس الاسلامية إلا دخلها وكان يحترم عقائد المسلمين احتراماً جماً ، حتى لقد كان يتظاهر باعتقادها والايان بها . وكان له محادثات دينية وفلسفية مع علماء الاسلام وشيوخه ، أرسل تفاصيلها تبعاً إلى حكومته فنشرتها وقتئذ فى جريدتها الرسمية . بل إنه بلغ من شأن بونا برت فى اهتمامه من هذا القبيل أن كل أفكاره كانت فيها نزعة شرقية كما لاحظ ذلك رجال السياسة فى عهده وأن وجهه كان موجهاً شطر المشرق كأنه وطنه ، أما اللورد كرومر فنزعت به منازع الصلابة الانجليزية فلم يكلف نفسه عناء البحث ، ولا مشقة الدرس ، ولا حسن التودد للمسلمين :

يعيب اللورد دين الاسلام بأنه مجموع مبادئ ، صورت منذ أكثر من ألف عام لإدارة شؤون جمعية فى حالة البداوة . فهذه اللفظة « صورت » لا يمكن أن توجد فى الدنيا إساءة فى اختيار ألفاظ لمعان مثل إساءة اللورد فى اختيار لفظ « صورت » لمبادئ دين يعتنقه الملايين من الناس . وماذا يقول رجال الكنيسة الانجليزية إذا عبر عن التوراة والانجيل بمثل هذا التعبير ؟ ولسكن لندع هذه الإساءة فى الاختيار فما هى تستحق فى نظرنا التفاتاً .

إذا كان يعد من عيوب الديانات تقادم العهد عليها وعدم تغيير مبادئها ، فلعل اللورد لا يحجل أن المسيحية أقدم عهداً من الاسلام بخمسة أو ستة قرون ، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد من أعدائها أن يعيدها بقديم عهدها . ثم هؤلاء الكاثوليك يفخرون كل الفخر بثبات مبادئ الديانة الكاثوليكية وعدم تغييرها . بل هؤلاء المصلحون البروتستانت أنفسهم لم يدعوا إلا إلى الرجوع إلى المسيحية الأولى واتباع تعاليم الكنيسة فى صدرها الأول . فإذا كان اللورد كرومر يعيب الديانة



الاسلامية لقدم عهدا وعدم تغيير مبادئها فأولى به أن يعيب دين أمته لأنه دين المسيحية الأولى ، ولأنه أقدم من الاسلام عهداً » (١).

هكذا كان موقف الانجليز من الاسلام منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، ومنذ طفقوا فوق ذلك ينشرون الشك والريبة في نوايا المسلمين والخوف من انتعاشهم وتسكتهم ، ويرون في كل نهضة من نهضاتهم نذيراً لهم بسوء مصيرهم في الشرق الاسلامي .

والذي يثير العجب والدهشة في نفوس المؤرخين المحدثين هذا الذي بالغ فيه بعض الانكليز من تصوير نهضة المسلمين على نحو أثار الخوف في قلوب الكششين من ساسة الأوروبيين والأمريكيين فأخذت طائفة من هؤلاء وأولئك تتبمع الانجليز في أوهامهم وتصوراتهم ، وتذساق معهم في هذا السبيل .

ولقد كان من نتيجة ذلك أن طفقت الصحافة الأوروبية منذ ذلك الحين تكثر من الكتابة في موضوع الاسلام والمسلمين ، وقد ابتدعت لذلك عنوانا طريفا أخذا هو عنوان ( الجامعة الاسلامية ) .

كل ذلك والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لا يفكرون إلا في نفوسهم ومحضهم ، فإن تجاوزوا ذلك إلى غيرهم ، ففي البحث عن الوسائل التي يتذرعون بها للتخلص من زير الاستعمار الأوروبي والوسائل التي توصلهم إلى الحكم النيابي .

وحين أخذت المقالات تنرى على الصحف الأوروبية بعنوان ( الجامعة الاسلامية ) وجدت الصحافة الوطنية في مصر نفسها مضطرة إلى الرد على ما جاء في تلك الصحف . وكان من أولى الصحف الوطنية في تلك الفترة صحيفتان هامتان هما : صحيفة المؤيد وصحيفة اللواء .

أما الأولى فقد تحدثنا عنها في غير هذا المكان . وأما الثانية فما أكثر ما نشرت من المقالات بعنوان .

( إنجلتره والاسلام ) ، ( فرنسا والاسلام ) ، ( أوروبا والاسلام ) ، ( مصالح

الدول والاسلام) : (مستقبل الاسلام) . وسنعود إلى ذلك في فصل من فصول هذا الكتاب إن شاء الله .

والحق أن سياسة علي يوسف وأراءه الشخصية — كما يقول عنه الخديو عباس — كانت قائمة بصفة خاصة على الوحدة العربية . . . ولكن كان من رأيه أن فترة الحروب الصليبية قد انتهت إلى الأبد (١) .

والحق أيضا أن مصطفى كامل كان أشد من علي يوسف محافظة على الطابع الديني الذي ظهر بوضوح في نتاجه الصحفي بجريدة اللواء ، ولتندار أجيبسيان . وغيرها وأن فكرة التكتل الاسلامي على النحو الذي تخشاه أوروبا ، ويبالغ في تصوره اللورد كرومر كانت تداعب خياله ، وإن كان ضعف الأمل في تحقيقها على تلك الصورة .

وصحيح قبل هذا كله أن في المسلمين منذ ظهورهم نزوعا إلى الترابط والتآلف إستجابة منهم لقوله تعالى ( إنما المؤمنون إخوة ) ولقول نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ) ولقوله كذلك ( المسلمون تتكافأ دماهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ) . ولكن الاسلام كما دعى إلى هذه الأخوة الاسلامية دعا كذلك إلى الأخوة الانسانية يدل على هذا قوله تعالى ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) وكما يدل عليه الحديث الشريف ( لافضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ) . وأكثر من ذلك وأقوى منه دلالة على سعة صدر الاسلام أنه دعا المسلمين إلى العدل في معاملة المشركين ما لم يعتقدوا عليهم . قال تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم — الآية » .

جهل الأوربيون عن الاسلام كل هذه الأمور ، وراحوا يخلقون ( للجامعة الاسلامية ) معنى سياسياً يبعث الرعب في النفوس ، ويحل اليأس محل الأمل في



بقاء الأوربيين مستبدين بالأمم الاسلامية التي أصبحت في هذه الفترة من فترات حياتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام تيار الاستعمار الأوربي .

وقد أعجبني في هذا المعنى مقال كتبته لـمجلة القرن التاسع عشر الانجليزية الدكتور بهجت بك وهي تحت عنوان « الجامعة الاسلامية » جاء فيه :

« لا ريب في أن الدول الأوروبية جعلت لنفسها مركزاً قلقاً في سياستها الاستعمارية . لأنه ظهر أخيراً أن أقل مظهر من مظاهر الحياة يبدو على حدود أملاك تلك الدول الممتدة إلى آلاف الأميال يلفت أنظارها بسرعة غريبة ، ويزعجها جميعاً . وكل علامة من علامات التقدم فيما وراء تلك الحدود تنقلب إلى خطر يهدد تلك الدول .

فانه منذ عهد قريب شغلت أوروبا نفسها بالخطر الأصغر

وماذا كان نوع هذا الخطر ؟ هل أظهرت الأمم الصفراء رغبة في الاغارة على الممالك الأوروبية ؟ كلا . إن الخطر الذي حدث بشأنه تلك الضوضاء العظيمة لم يكن يهدد السلام العام في أوروبا . ولكنه زعزع آمال الدول الاستعمارية التي كانت تؤمل أن تضع تلك الأمم تحت نيرها الأبدى ، لأن أوروبا كانت تعتبر تلك الأمم الصفراء لا تستحق إلا المذلة والاستعباد .

ولكن لحسن حظ الانسانية نالت اليابان مقداراً وافراً من النصر على أمة الروس ، وهي الأمة التي كانت تمثل السلطة الأوروبية . وكذلك نهضت الصين نهضة شماء ، وأظهرت ميلها لمقاومة الأجانب ومساقتهم . فكان ذلك الضربة القاضية على آمال الأمم المستعمرة في الشرق الأقصى .

ولما أفلتت تلك القطعة الكبرى من أيدي أوروبا هنأت نفسها على بقاء الأمم الاسلامية ، حاسبة أنها تلتهم تلك الممالك لتسد بها جشعها .

ولكن منذ أظهر الغفاريت الصفراء أنهم لم يدعنوا ، ولن يرضخوا أحست أوروبا أن نفوذها أخذ يقل شيئاً فشيئاً في ممالك الاسلام التي اعتبرتها « أملاكها الخاصة » .

خشيت أوروبا من روح الاستقلال الحديثة التي ظهرت ، واخترعت إسماً جديداً لتلك النهضة التي اعتبرتها الخطر الاسلامي ، هو ( الجامعة الاسلامية ) . ويحق لأوروبا ألا تخشى من الجامعة الاسلامية خطراً إلا بمقدار ما خشيت من الخطر الأصفر . لأن النهضة الاسلامية خالية من كل روح عداوية . إنما هي نتيجة لاستيقاظ تلك الأمم من السبات العميق الذي أصابها ، ورغبتها في التخلص من النفوذ الأوروبي الذي يعمل على الدوام على تأخير المسلمين أكثر مما يعمل على تقدمهم .

وقد انتهزت تلك الدول فرصة وجود الممالك الاسلامية حول أملاكها ، وأخذت تذيع خبر الخطر الذي يهددها من الاسلام وتسكبره وتعظمه . وبلغ بها الميل للاغراق إلى درجة أنها أخذت توهم العالم بأن الجامعة الاسلامية اذا تركت وشأنها تؤول بلا شك إلى ضياع المدنية الحديثة التي هي ثمرة أعمال البشر في القرون كلها . وهي كذلك تدعى بأن الجامعة الاسلامية تحرض طبقات العامة وتهيجها . وفي كلمة واحدة إن ممالك أوروبا تريد أن توهم العالم المتمدن بأنه سيري من أخطار الجامعة الاسلامية ومصائبها أشد مما رآته أوروبا من الوحشين في القرون الوسطى . ولم تلجأ أوروبا إلى هذه الحيلة إلا لأنها علمت أنها ليست في حاجة إلى المطالبة بالأماكن المقدسة . ولذا اخترعت وسيلة جديدة ، وهي الرغبة والتفاني في حماية المدنية الانسانية من غوائل المسلمين وتوحشهم !

ثم طفق كاتب هذا المقال يصور آمال المسلمين ، ويعرف الأوروبيين نهضتهم وبالغرض الذي ترمى اليه الأمم الاسلامية من وراء هذه النهضة . وذكر أن أوروبا استمعت إلى أقوال المستشرقين فيما سموه ( بالجامعة الاسلامية ) وهي آراء يكسنتف خطأ معظمها ، وقال لهم إن النهضة الاسلامية ليست إلا يقظة المسلمين في سائر الأقطار الاسلامية لمقاومة الظلم الواقع عليهم .

وانتقل الكاتب من ذلك إلى الرد على الأوروبيين الذين ذهبوا في تصوير ( الجامعة الاسلامية ) بصورة التعصب الديني ، فسألهم :



هل يقترف المسلمون ذنباً لا يقتفر اذا سموا لنيل حريتهم واستقلالهم ؟ ألم تحدث مثل هذه الثورات في أوروبا في القرون الماضية لنيل هذه الحقوق ؟ ومن أين علمت أوروبا أن المطالب التي تؤدي بأصحابها إلى الحرية والسعادة الأبدية والتقدم الحقيقي ليست إلا تعصبا مذموماً ؟ ألا يحق لنا أن نسأل أينما جدير بصفة التعصب : الشرق أم الغرب ؟ وهلا تدل هذه المفتريات على سوء نيات أصحابها ؟ على أنه من الانصاف لبعض كتاب هذا الغرب أن يقول إن منهم من أنصف الاسلام في بعض الكتب أو الصحف . ولكن هؤلاء قليلون في جملتهم . وفي ذلك يقول مصطفى كامل في مقالة له بعنوان ( سفينة الاسلام ) نشرت بجريدة اللواء في أول أكتوبر سنة ١٩٠٣ .

« وخلق بالأتراك أن يذكروا كلمة حكيم من حكماء أوروبا الذين أنصفوا المسلمين والاسلام حيث قال : — المسلمون في فضائلهم أكبر الأمم وأفضلها ، ولكنهم دون الغربيين في قوة السواعد التي سلحها العلم . ولا فوز في أى معترك لظاهر القلب الشريف الاعتقاد ، بل الفوز للقوى البنية ، ومهما ارتقى النوع الانسانى فان القوة المادية تبقى فيه أشد فعلاً ونفوذاً من القوة المعنوية .

( الجامعة الاسلامية ) إذن ليست في الواقع إلا شعوراً عاماً لدى المسلمين جميعاً بالظلم ، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم ، ورغبة عامة في النهوض بأممهم للتخلص الأبدى من آثاره إلى الأبد .

وحول هذا المعنى دارت المقالات الكثيرة التي نشرتها جريدة اللواء في موضوع ( أوروبا والاسلام ) وسيعود هذا البحث إلى تسكلمة الحديث عن هذه القضية الهامة في فصل خاص من فصول هذا الكتاب عنوانه ( اللواء والاسلام والدولة العلية ) .

مهما يكن من شيء فقد كان لهذا الشعور العام من جانب أوروبا نحو الاسلام أعمق الأثر في مصر . فقد رأينا الاحتلال الإنجليزي فيها يسيء الظن بالمسلمين إساءة بالغة ، ورأينا المصريين من جانبهم يضيّقون كثيراً بهذه الإساءة البالغة

وأكثر من هذا كله أن الحياة العامة في مصر تأثرت بهذا الشعور الذي نتحدث عنه . من ذلك — مثلاً — أن الأنجليز كانوا في وقت ما يقصرون الوظائف الحكومية على القبط دون غيرهم من أهل مصر ، وأحس المسلمون وقع هذا الظلم ، ومن هؤلاء المرحوم حافظ إبراهيم ، وقد لبث زماناً طويلاً يحاول الحصول على ( وظيفة ) يأكل بها العيش ، فلما لم تتيسر له نظم قصيدة أولها :

سعيت إلى أن أكدت انتعل الدما	وعدت وما أعقبت إلا التندما
لحمي الله عهد القاسطين الذي به	تهدم من بنياننا ماتهم
إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم	فلاتك مصر يا ولاتك مسلماً

\* \* \*

أيا ما كان الأمر فقد كان دفاع اللواء عن الاسلام يمثل هذه الحرارة من جانب مصطفى كامل بنوع خاص نتيجة لأمر كثيرة ، منها ظهور حركة الاتحاد التي فشت في الشرقيين منذ اتصاهم بالعقل الأوروبي الحديث ، وكانت نتيجة للجهود المبشرين التي تمت وترعرعت في ظل الاحتلال الأجنبي البغيض .

وعندى أنه لا مجال للشك في أنه لو لم يهاجم الأوروبيون الاسلام على هذا النحو ، وبسخرؤا من عقول المسلمين إلى هذا الحد لما كانت ثم حاجة إلى تلك الفصول الطويلة التي كتبها كل من المويلحي الكبير والسيد علي يوسف ومصطفى كامل في صحف مصباح الشرق والمؤيد واللواء ، ولما احتلت هذه الفصول فراغاً كبيراً من تلك الصحف



## المقدمة الثالثة

### من هم بناء الوعي القومي في مصر؟

في غضون ذلك كانت شجرة القومية تمتد جذورها في الأرض وتسمو بفروعها في الجو . وكانت قلوب الشباب تهوى إليها كما تهوى الحمام الظمى إلى ماء النبع فأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها تشعر بما يجمع بين أفرادها من روابط الجنس واللغة والتقاليد ، وتعمل على لم شعنها في وطن واحد تحت سلطان واحد ، حتى إذا بلغت من ذلك ما تريد سمعت تفرض سلطتها على ما جاورها من الأمم والشعوب . فأنشأت الأمم الصغيرة المغلوبة على أمرها تتنمر وتتذمر ، كما أنشأت الأمم الغالبة الظافرة تتحفز وتنمر .

وإن المرء حين يتحدث عن القومية في ذاتها لا يجد بداً من أن يسأل نفسه هذا السؤال : أخير هي أم شر ؟ أنذير حرب هي أم بشير سلام ؟ أوسيلة هي من وسائل التقدم والعمران أم وسيلة من وسائل التأخر والخراب ؟

مهما يكن من شيء فقد كانت الروح القومية — كما يقول « رمزي ميور » أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر — من أقوى العوامل السياسية في العالم عندما اشتعلت نار الحرب الكبرى ، التي ساعدت على تفتيت الامبراطورية العثمانية وقوضت أركانها ، وذهبت بسلطانها ، وحملت الشعوب البلقانية على الكفاح ، فسعت للتخلص من أيدي الأتراك ، وأعانتها الدول الكبرى بالسلاح والرجال حتى كتب لها الظفر بحريتها بعد نضال شاق .

ثم لم تلبث شعلة القومية أن عبرت البحر ، وانتقلت بسرعة البرق من الغرب إلى الشرق ، وأخذ الحلفاء — خدمة لما ربههم الخاصة يدفعون العرب إلى الثورة على السيادة التركية .

أما في مصر خاصة فيقول المؤرخون إن القومية المصرية مرت بمرحلتين

متميزتين :

أولاهما — كانت مصر فيها تحاول الظفر بحظ من الاستقلال الذاتي ، وتعمل شيئاً فشيئاً على التخلص من الحكم التركي.

والثانية من مراحل القومية المصرية تبدو في الأطوار التي مرّت بها القضية المصرية منذ تطلعت مصر إلى نيل خريتها واستقلالها وتبلغ هذه المرحلة ذروة قوتها في حركة مصطفى كامل وفي الثورة الوطنية الكبرى التي قادها سعد زغلول سنة ١٩١٩ .

ولعل إقدام الحكومة المصرية في أكتوبر سنة ١٩٥١ على إلغاء المعاهدة الانجليزية المصرية التي أبرمت سنة ١٩٣٦ أحدث مظهر من مظاهر هذا الكفاح القومي المرير ، وهو الكفاح الذي نريد أن نقف عنده ، ونقفو أثره ، وترسم خطاه ، نرى من هم بناء هذا الوعي القومي في مصر ؟

صحيح أن مصطفى كامل كان الباعث الحقيقي للشعور بالقومية المصرية. ولكن الذي لا شك فيه أيضاً أن هذه الحركة التي قام بها كانت مسبقة بحركات أخرى لا يصح إغفالها ، ولا ينبغي للمؤرخ الحديث أن يهمل ذكرها في معرض الكلام عن هذه الحركة القومية .

تحدث الخديو عباس في مذكراته عن السيد علي يوسف حديثاً طويلاً ثم ختم حديثه بقوله :

« . . . . . وكانت الأرض قد حرثت . وكان العاملون على قدم الاستعداد للبدء وكان على العناية التي تسهر على الشعوب كما تسهر على الأفراد أن ترسل إلى مصر باذر حب الوطنية المنتظر مصطفى كامل (١) .

والحق أن تاريخ الوعي القومي في مصر يمكن أن يرجع على الأقل إلى بداية القرن الثامن عشر وهو القرن الذي شهد نشاط محمد علي . وقد وفق هذا الماهل العظيم إلى تجنيد جيش من الفلاحين المصريين وكم كان الثوب العسكري الذي يرتديه أولئك الفلاحون يثير في نفوسهم العزة والاباء والشعور بالعظمة والكبرياء . ثم جاءت فتوحات إبراهيم وما أبلاه الجيش المصري من البلاء الحسن



في حملة الشام يزيد هذا الشعور في نفوس المصريين قوة . وتبعث فيهم الوطنية التي لم تخف على المؤرخين الفرنسيين ، فأشاروا في كتبهم كثيراً إليها .  
ثم يأتي بعد ذلك رائد النهضة الحديثة في مصر — رفاعه رافع الطهطاوي فيكتب في التاريخ المصري القديم ، ويكتب في التربية الوطنية ، وتتردد في كتبه معان جديدة من هذا القبيل ، ويصف لنا المواطن الصالح من هو ؟ وماذا عليه من الواجبات التي يقوم بها لرفاهية مصر والمصريين ؟ ويبدو هذا كله جديداً كل الجدة على الناس إذ ذاك لأنها أمور لا يجدون لها نظيراً من كتابات الشيخ الجبرتي على قرب العهد بينه وبين رفاعه . ثم يظهر من بعده على مبارك ، ويؤلف كتابه العظيم « الخطط التوفيقية » وتظهر في تضاعيفه الروح المصرية ، والقوة الوطنية ، ويصطنع فيه ألفاظاً جديدة على المصريين ، ومنها اللفظ الذي استخدمه رفاعه وهو لفظ ( مواطن ) للتفريق بين المصريين وغيرهم من الأرمن والأتراك المقيمين بمصر . (١)

ثم يقد على مصر فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغاني فيهر الضمير المصري بكلماته ، ويحيي موات الأمل بألفاظه ، ويحرك في مصر شعوراً جديداً هو شعور الأهلين بالكرامة ، ويزرع في قلوبهم البغض الحقيقي لكل استعمار أجنبي ، ويهيب بمصر ( واسطة عقد الشرق ) أن تسبق الأمم الشرقية كلها إلى النهوض ، ويبلغ من هذا كله ما يريد وأكثر مما يريد .

ويفادر السيد جمال الدين الأفغاني مصر ، ولكن يترك فيها روحه متمثلة في نفر من أعظم تلاميذه منهم الشاب السوري أديب اسحق ، والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ الاسرائيلي يعقوب بن صنوع ، والرجل الشعبي السيد عبد الله النديم وكثيرين غيرهم من بناء مصر الحديثة ، وهم الذين أشعلوا فيها نار الحماسة الشرقية ، وناضلوا فيها عن اللغة القومية والعادات القومية ، فزادوا بذلك أنعاماً جديدة في طنبور الوعي القومي .

(١) راجع كتاب « في أصول المسألة المصرية » صبحي حيد ص ١٧١ وما بعدها

وفي أثناء ذلك كله يظهر عرابي وشريف ورياض وغيرهم من رجال الحكم والجيش ممن برزوا من بين صفوف الشعب ، ونجحوا في الوصول به إلى درجة أعلى في سلم الوعي القومي . وذلك بما كانوا يقومون به بين حين وآخر من حركات يراد بها مقاومة النفوذ الأجنبي تارة ، والحصول على أمانى الشعب المصرى نفسه في حكم دستورى صحيح وحرية سياسية حقيقية تارة ، وجنوح في بعض الأحيان إلى معارضة الجالس على العرش نفسه في سبيل المصلحة العامة إذا اقتضى الأمر . فهكذا فعل شريف باشا الذى كان يصدر في إصلاحاته عن فهم صحيح للأمر ، ويذهب بالتفكير في ذلك إلى حد المعارضة السافرة لولى الأمر ، حتى نوبار وهو من اشترى الانجليز منه السودان — يقول عنه كرومر فيما كتبه إنه أول من أدخل نظم الحكم الدستورية في مصر . وأول من ألف وزارة مسؤوله في عهد إسماعيل وذلك في ١٨ أغسطس ١٨٧٨ . وكان الخديو في هذه الحكومة لا نفوذ له .

وتأبى الأسرة الحاكمة نفسها إلا أن تأخذ فيما يأخذ فيه الشعب المصرى من أسباب الحرية الصحيحة وإصلاح نظم الحكم في مصر . فتراها تشارك مشاركة قوية في هذا الاتجاه الأخير ، وتنبئ المصريين كثيرا من حقوقهم السياسية بالتدرج ، وتمنن في محابة المصريين إلى حد أنها تبذر فيهم بذور حركة انفصالية ، تنفصل بها مصر عن الدولة العثمانية ، ولا تصبح مربوطة بمعجلة الدولة العلية . وما كان قصده محمد على من إنشاء جيش مصرى قوامه الفلاحون المصريون إلا أن يوضح لتركيا وللعالم أجمع أن مصر قادرة على أن تحمى نفسها بنفسها متى تركت وشأنها . وكما تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها في ميدان الجيش ، فكذلك تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها في ميدان العلم . ومن ثم اتجه تفكير محمد على أيضاً إلى إرسال البعث العلمية والمشاركة في إحياء النهضة المصرية على النحو الذى أشرنا إليه في الأجزاء السابقة من أجزاء هذه السلسلة .

وإن تنس مصر لا تنسى لسعيد أنه إنتصر للغة العربية ، وقرر أن تكون



هي وحدها اللغة الرسمية وأتى أبنائهم من بعده ، فأعانوا على إنشاء طبقة أرستقراطية في العلم والأدب والجيش والصحافة . كان لها أثر كبير في النهوض بوعينا القومي إلى هذا الحد .

وخلق بنا أن نذكر هنا أنه كان من دعاة الحركة الانفصالية في مصر الأستاذ أحمد لطفى السيد ( صاحب الجريدة ) وأن فكرته هذه كانت معارضة لفكرة مصطفى كامل . ولكن شخصية الأخير أضفت على فكرته نوعاً من الوهم المقدس ( بلغة الخديوى عباس حلمي الثاني ) فتشيع لها المصريون في زمانه .

غير أن هذا الوعي القومي كان إلى ما بعد كارثة الاحتلال البريطاني وعيا مغلفاً بغلاف الدين ، أو كان أشبه شيء بصورة جميلة ذات إطار روحى جميل . وكان لذلك أسباب كثيرة : منها تعلق المصريين بالأتراك العثمانيين ونظر كل مصرى إلى نفسه حتى ذلك الحين على أنه عثماني . ثم استمسك المصريون بالدين الاسلامي الحنيف ، واعتقادهم أنه لا حياة لهذا الدين إلا باتحاد الأمم التي تعتنقه بعضها مع بعض .

وأخيراً يصل بنا المطاف إلى هذه الطبقة من رجال مصر ممن عاشوا في عصر الاحتلال البريطاني ، وأخذوا على أنفسهم مقاومة هذا الخطر الأجنبي ، ومن هؤلاء : ابراهيم المويلحي ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل . وقد بقيت الفكرة الاسلامية مسيطرة على هذه الطائفة ، وكان ظهورها في ميدان الجهاد أقوى من ظهور الفكرة الوطنية الخالصة . بل إن هذه الفكرة الأخيرة لم تولد بالمعنى الصحيح إلا على يد مصطفى كامل .

وعلى ذلك فبناء الوعي القومي في مصر كشيرون ذكرنا منهم محمد علي و ابراهيم وسعيد و اسماعيل من أعضاء الأسرة الحاكمة ، ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك و جمال الدين الأفغانى و محمد عبده و أديب اسحق و عبد الله النديم ، من رجال الفكر والعلم والصحافة ، و عرابى و شريف و رياض من رجال الصفوة المهذبة .

كل واحد من هؤلاء وضع بيده لبنه في بناء الوعي القومي . وكلهم تعاونوا

علي إقامته حتى استوى له هذا العلو . غير أن الذي لا شك فيه أن الاحتلال البريطاني وما تبعه من ضيق شديد أحس به كل مصري كان صاحب الفضل الأكبر في بلوغ الحركة الوطنية إلى هذا الأوج .

نعم — كان الخديوي توفيق يسلم العدو الأجنبي حتى إذا قبضه الله إلى رحمته وأتى بعده ابنه عباس إستأنف الجهاد والمقاومة ضد هذا العدو . ونجم عن تشاحنه مع النفوذ البريطاني أن سرى الروح الوطنى الذى أذكت ناره ظروف مختلفة أفاد منها مصطفى كامل أعظم فائدة .

واليك بعض الخطوات التى خطتها صداقة الأمير الشاب عباس حلمي بالزعيم الشاب مصطفى كامل كما تصورها لنا مذكرات أحمد شفيق باشا :

تعرف عباس حلمي بمصطفى كامل ( منذ زار مدرسة الحقوق وألقى بين يديه الطالب مصطفى كامل قصيدة استقبال رحب فيها بسموه (١) )

ثم اختلف الخديوي عباس مع كرومر بشأن إقالة الوزارة الفهمية فثار الشباب وهاجم فريق منهم ، وعلى رأسهم مصطفى كامل الطالب بالحقوق إدارة جريدة المقطم لموقفها العدائى من الروح الوطنى الذى بثه الخديوي .. (٢)

وأمن المحتلون في إيذاء هذا الروح الذى سرى في صفوف المواطنين ورأوا تشكيل « محكمة مخصوصة » للحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر جيش الاحتلال أو ضباطه فأحدث ظهور هذه المحكمة الغريبة ضجة كبيرة في الأوساط الوطنية وكتبت عنه الصحف . ومما نشر في هذا الصدد مقال لمصطفى كامل بعنوان : صواعق الاحتلال : ندد فيه بهذه السياسة الجائرة (٣)

منذ ذلك الوقت توثقت عرى المودة بين الخديوي عباس والشاب الوطنى مصطفى كامل . ( وكان الخديوي يريد أن يحاط عرشه بسياج من الوطنية ... فقربه إليه ،

(١) مذكراتي في نصف قرن لأحمد شفيق باشا — الجزء الثانى القسم الاول ص ٥٠

(٢) نفس المصدر ص ٦٢

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩ .



وساعده بالنفوذ والمال . وتعاهدا سرا على أن يعملوا لخلاص البلاد من الاحتلال . فكانا يجتمعان بمسجد الشيخ التبرى بزمام سراى القبة . وقد عملا معاً أعواماً طويلة حتى فرقت بينهما الدسائس . (١)

وازداد الأمير إمعاناً في سياسته الوطنية بعد حادثتى الحدود وإقالة الوزارة القهمية . « وإذ ذاك اتفق مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية من بعض الشبان الممتازين بالوطنية ممن تلقوا التعليم العالى فى مصر والخارج . فكان ذلك وتكونت من مصريين وفرنسيين . وقررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين ، والكتابة فى الصحف الفرنسية فى مصر وباريس بأسماء مستعارة . وكذلك بالخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل فى مصر وأوروبا التى كانت تثير إعجاب الساسة وتشجيعهم وهكذا كان مصطفى كامل رسول الوطنية الحققة وكان يعمل بذكائه وحماسته وجرأة تثير إعجاب الجميع (٢)

ثم ما برح رجال الاحتلال الانجليزى فى طغيانهم وما فتىء الوطنيون من المصريين فى بأسهم واستسلامهم حتى حدثت الظامة الكبرى والكارثة العظمى التى صلبها القدر العادل على رؤوس المحتدين ، وانتفع بها الشاب الغيور مصطفى كامل ونعنى بها ( حادثة دنشواى ) وهى الحادثة التى صورت للعالم أجمع بطش الاحتلال البريطانى ووصوله فى ميدان العسف والجور إلى درجة تأبأها الانسانية ، وتنكرها أبسط قواعد المدنية . ثم هى الحادثة التى ادخرها الغيب لهذا الفتى الوطنى لتكون سبباً فى سطوع نجمه فى سماء المجد والعظمة الحقيقية . فما هى إلا جولات قصار جالها قلم هذا الشاب فى صحف أوروبا ومصر وما هى إلا طائفة من الخطب والمقالات نثرها الفتى هنا وهناك ، حتى استجالت قصة دنشواى إلى مأساة عالمية علم بها العالم المتمدّن كله ، وأحاطها الفتى المصرى إلى فضيحة كبرى لطخ بها جبين الدولة القائمة بالاحتلال ووسمها بميسم الوحشية والهمجية .

أجل ، سمع العالم كله بنبأ هذه المأساة التى فعلها الاحتلال فى دنشواى فانحنى بالآثمة على الانجليز الذين انحدروا من الناحية المعنوية بعدد رفة ، وذلوا أمام رأى العام العالمى بعد عز

(١) نفس المصدر ص ١٩٠

(٢) نفس المصدر ص ١٩٠ - ١٩١

وشعروا بحرج عظيم وتمرضت الوزارة البريطانية يومئذ لماعة من الاستجابات  
البرلمانية أوقفها في الحرج وكان من نتيجة ذلك أن سقط كرومر الجبار عن  
عرشه في مصر وبادرت حكومته في لندن إلى استدعائه إليها.

حقاً — لقد كانت حادثة دنشواي نقطة تحول في تاريخ الحركة الوطنية  
الناشئة ، ونقطة تحول في تاريخ الاحتلال الأجنبي لمصر وقد أفاض المؤرخ الكبير  
عبد الرحمن الرافعي في بيان النتائج التي نتجت عن هذه الحادثة ، وأضاف إليها  
كل فصل في ازدياد الشعور القومي كما نسب إليها أموراً كثيرة تمس الوطن من  
جميع جوانبه . وذكر المؤرخ الكبير من هذه النتائج الهامة لحادثة دنشواي  
نتائج هي على التعاقب . (١)

الأولى — اشتداد ساعد الحركة الوطنية

الثانية — إهتمام الصحف العالمية بالمسألة الوطنية

الثالثة — تغيير سياسة الاحتلال البريطاني في مصر

الرابعة — تأسيس الجامعة المصرية

الخامسة — تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف العمومية

السادسة — إستقالة اللورد كرومر في أبريل عام ١٩٠٧

السابعة — تأسيس الحزب الوطني .

وباختصار كان نجاح مصطفى كامل في الانتقام لكرامة مصر من الانجليز  
في مأساة دنشواي هو القمة التي بلغها ذلك المجاهد الكبير . بل إن نجاحه في  
القضية الوطنية الكبرى كان السبب الحقيقي في إستحقاقه زعامة المصريين تلك  
الزعامة التي سلمت له حتى فارق هذه الدنيا .

وسترى في غضون هذا البحث ، كما رأيت في غضون البحث الذي سبقه عن  
على يوسف ، أن الوطنية المصرية صمدت في بيداء الجهاد للاحتلال الانكليزي  
وكان هذا الثبات العجيب يظهر من جانب الصحافة الحرة حيناً ومن جانب  
الشعب المصري حيناً آخر .



## إستدراك

وقع خطأ في البيت الأول من قصيدة حافظ إبراهيم صفحة ٣٧ وصحته  
كالآتي : —

لقد كانت فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيه حتى بات ظالما منظما





فلقد كان اللورد كرومر يمضى فى سياسته التى سماها سياسة الإصلاح ورى الأراضى ، وكان الشعب المصرى يمضى فى سخريته وتنكره لهذا الإصلاح الذى يتناول بطون المصريين ولا يتناول نفوسهم وعقولهم . وقد عبر عن ذلك حافظ إبراهيم حيث يقول مخاطباً اللورد كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت

حواشيه حتى بات ظلماً مهذباً  
 فمن علينا اليوم أن أخضب الثرى  
 وأن أصبح المصرى حراً منعماً  
 أعد عهد إسماعيل جلدًا وسخرة  
 فأتى رأيت المن أنكى وآلما  
 عملتم على عز الجراد وذلنا  
 فأغليتمو طيناً وأرخصتمو دما  
 إذا أخضبت أرضى وأجذب أهلها  
 فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما  
 ومثل هذا كثير فى شعر حافظ وغيره من شعراء مصر فى ذلك الحين .

\*\*\*

تلك إذن بعض الظروف التى أحاطت بالحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل بل تلك إذن بعض الأمور التى ينبغى ملاحظتها عند الكلام عن هذه الحركة الرائعة . والذى لاشك فيه أن صاحب الترجمة كان يدرك كل هذه الظروف إدراكاً سليماً ، وأنه على هذا الإدراك السليم بنى سياسته الداخلية والخارجية كما ظهر أثر ذلك بوضوح تام فى كتبه وخطبه وصحفه . وباختصار كان مصطفى كامل يرى من وراء ذلك كله إلى غرضين كبيرين .

أولاً — الظفر باستقلال مصر وجلاء القوات البريطانية عنها ، والعمل على إنهاض البلاد من كبوتها ، والأخذ بيدها فى ميدان الإصلاح السياسى ، والإصلاح الثقافى ، والإصلاح الاجتماعى ، والإصلاح الاقتصادى فى نهاية الأمر .

ثانياً — السعى إلى تقوية الدولة العثمانية باعتبار أنها زعيمة العالم الإسلامى كله ، وأنها تستطيع أن تحدث التوازن بين القوى الأوروبية المختلفة ، وأنها متى قويت فقد قوى معها العالم الإسلامى .





## الكتاب الثانى

### فى حياة مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

### وفيه فصلان

« إن من لم يقرأ من المصريين سيرة مصطفى كامل ويستوعب هذه السيرة فى نفسه جيدا يعتبر فى نظرى ناقصا فى تربيته الوطنية نقصا ليس له ما يعوضه ولا ما يبرره » .

المؤلف

## الفصل الاول

### حياة مصطفى كامل

كنا في الكتاب الذي كتبناه عن « علي يوسف » أمام رجل وطني ، و كاتب صحفي رزق هدوءاً في الطبع ، وعمقا في أغوار النفس ، وصبرا على حمل القلم . رأيناه ملتصقا إلى مكتبته في إدارة المؤيد لا يكاد يبرحه ، وبين يديه أوراق يكتبها لا تكاد تفارق يده . ولقد بقي الرجل على هذه الحال زهاء خمسة وعشرين عاماً جاهد فيها الاحتلال ورجال الاحتلال ، وسائر في أثنائها الحركة الوطنية وغيرها من حركات الإصلاح ، حتى بلغ في ذلك كله ما أراد .

ونحن الآن — في هذا الكتاب — أمام شاب نادر المثال ، كله حركة ونشاط ، لا بل إنه في حركته التي لا تعرف الراحة في وقت من الأوقات لكالقلب من جسم الانسان ، إذ هو العضو الوحيد الذي تنام الأعضاء كلها ولا ينام ، وتذوق الحواس كلها طعم الراحة ولا يذوقها في ساعة من ليل أو نهار .

أجل — لقد كان مصطفى كامل من أمته ذلك القلب النابض على الدوام . أما نحن فلا نعرف أن رجلا في تاريخ مصر الحديث حمل نفسه في سبيل وطنه — ما حملها ذلك الشاب ، وشق عليها بعض مأساته ذلك الفتى الذي ظهر نجمه في سماء العظيمة مبكراً ، وأفل مبكراً .

وهكذا عاش هذا الشاب حياة إن لم تكن طويلاً كحياة غيره من الناس ، فهي حياة عريضة إلى الحد الذي لم يبلغه واحد من الناس . ولله سر في مجد هذا الفتى لا يعلمه أحد سواه .

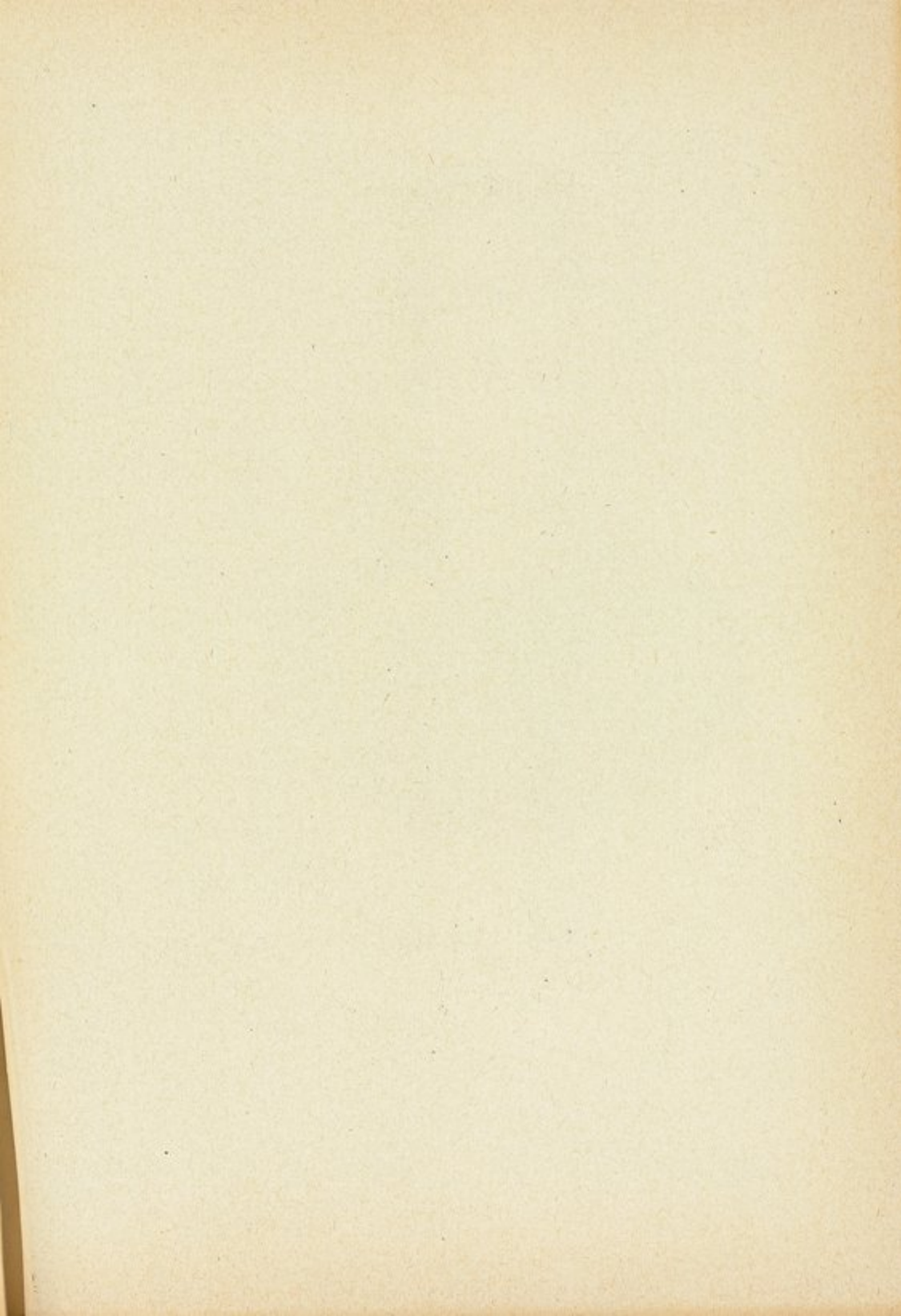




مصطفى كامل

صاحب اللواء

( ١٩٠٨ — ١٨٧٤ )





## نسبه :

ولد مصطفى كامل من أبوين كريمين بحى من أحياء القاهرة اسمه ( الصليبيه ) وكان ميلاده فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ ( أول رجب سنة ١٢٩١ ) وكان والده على أفندى محمد ضابطا ومهندسا — أدرك عهد محمد على الكبير وعمل فى بناء الكبارى والشككات التى احتاج إليها هذا الوالى العظيم . ثم أدرك عهد عباس الأول وسعيد ، وأحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل . غير أنه لم يركن يومئذ إلى الراحة والسكون ، بل سعى حتى عين مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال ، وبقى بها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٨٧٧ للميلاد .

وكان مصطفى كامل أحد أبناء سبعة وابنتين ، أنجبهم أبوه من زوجتين . كانت الأخيرة منهما هى السيدة حفيظه هانم كريمة اليوزباشى محمد أفندى فهمى . وهى والده مصطفى كامل وتوفيت عام ١٩٠٧ فزن عليها حزنا عظيما ، وكان يذكرها فى نفسه دائما ، ويعترف بما لها من أثر فى تربيته وتنشئته .

ويعينينا أن نشير هنا من إخوته السبعة إلى اثنين وهما حسن واصف ( باشا ) وعلى فهمى ( بك ) . أما أولهما فكان بمنزلة أليه وولى أمره ، وذلك عقب وفاة والده سنة ١٨٨٦ وكان مصطفى إذذاك فى الثانية عشرة من عمره ، وأما الثانى — وهو على فهمى — فكانت أواصر الود بينه وبين أخيه مصطفى على أشدها وبقى الشقيقان على ذلك حتى مات مصطفى ، ودعا داعى الوفاء شقيقه عليا فكتب عنه كتابا فى ستة أجزاء لم تزل مصدرا يعتمد عليه كل مؤرخ يتحدث عنه نفسه بالكتابة عن هذا الرجل إلى اليوم .

وتلقى مصطفى دراسته الأولى فى مدارس ثلاث هى على التتاقب : — مدرسة والده عباس الأول ، فمدرسة السيدة زينب التابعة للأوقاف ،

مدرسة القروية .

وفي الأخيرة نال الصبي شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٨٨٧ وهو يومئذ في الثالثة عشرة من عمره . ثم التحق الصبي بالمدرسة الخديوية . وفي هذه المرحلة الثانية من مراحل التعليم أظهر من الجِد والنشاط ما لفت إليه الأنظار . ومن ذلك أنه عمِد وهو بالمدرسة الخديوية — إلى تأسيس جماعة أدبية سماها ( جمعية الصليبيه ) قيل إنه لم يمض على تأسيسها ثلاثة أشهر حتى كانت تضم أكثر من سبعين عضوا . واتصل أمر هذا الصبي بناظر المعارف في عصره — وهو على باشا مبارك — ورآه وأعجب به وبفصاحته ومازحه بقوله « إنك امرؤ القيس » وبشره بأنه سيكون عظيما . ولقد كان هذا الوزير العظيم رجلا رضى النفس ، جَم التواضع ، يستقبل ضيوفه في منزله أحسن استقبال ، لا يفرق بين كبيرهم وصغيرهم ، بل يفسح صدره للجميع على السواء . حتى أن تلاميذ المدارس كانوا لا يتهيبون الذهاب إليه في مكتبه بالنظارة أو في حجر استقباله بالمنزل . ومن هؤلاء التلاميذ مصطفى كامل . وقد حدث يوماً أنه رسب في مادة من المواد هو وكثير من زملائه التلاميذ بالمدرسة فكبر عليه أن يذوق مرارة الرسوب ، وانطلق بنفسه إلى منزل الوزير ، وشكا إليه سوء نظام الامتحان ، وأنه بسبب ذلك تعرض هو وزملاؤه لهذه النتيجة . وأذن الوزير الكبير لهذا الفتى الصغير ، وأعجب به وبحديثه ، ورضخ لارادته ، فتناول النظام نفسه بالتغيير . وكان من نتيجة ذلك أن نجح مصطفى ونجح زملاؤه معه . وقد أشار الشيخ علي يوسف إلى ذلك في قوله :

« دخلت ذات ليلة على علي باشا مبارك في منزله — أوائل سنة ١٨٩٠ — وهو يومئذ ناظر للمعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل — وكان يومئذ — تلميذا بالمدرسة الثانوية — يجادل الباشا في أمره ، ويقول له : إننى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك



يوم كنت تلميذاً مثلى : وما يدريك ألا أكون عظيماً أخدم وطنى غداً  
بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ قال هذا ثم خرج غاضباً ، وكأنه ليس  
بتلميذ ، وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزيراً للمعارف العمومية . وبعدما  
خرج ابتسم الباشا وقال : إننى أعجب كثيراً بشجاعة هذا التلميذ ،  
ويلذلى أن يتكلم أمامى كثيراً بمثل هذه الشجاعة النفسية . ولذلك لم  
أخبره بما أمرت اليوم لأجله . وكان قد صدر أمره بما طلب منه من  
قبل ، وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة .

قال السيد على يوسف : من تلك اللحظة عرفت مصطفى كامل وكأنما  
عرفت رجلاً لا تلميذاً فى المدرسة . (١)

وحصل الفتى على شهادة الدراسة الثانوية عام سنة ١٨٩١ فالتحق بمدرسة  
الحقوق . واختارها يومئذ « لأنها مدرسة الكتاتبة والخطابة ومعرفة  
حقوق الأمم والأفراد » كما ذكر ذلك فى خطاب له إلى شقيقه على  
فهى فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ .

وبعد سنة واحدة من التحاقه بمدرسة الحقوق شغل الفتى نفسه  
كذلك بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وجمع بين المدرستين واستطاع الحصول  
على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وعمره إذ ذاك  
عشرون سنة فقط .

انظر :

تلك هى مراحل التعليم التى مر بها مصطفى كامل ، وتلك حدود  
ثقافته التى حصل عليها ، وهى ثقافة قانونية أضيف إليها مع الزمن ما أغرم  
به الفتى منذ نعومة أظفاره من ميل إلى الكتاتبة والخطابة والأطلاع فى  
كل ما يتصل بالتاريخ والأدب والسياسة .

ولعل هذا القدر من الثقافة كان مشتركا بين الفتى ونظرائه ممن تعلموا معه في المدارس الثانوية ومدرسة الحقوق . ولعل ذلك بعض ما يعنيه الخديو عباس من قوله في مصطفى كامل « وأياً ما كان الأمر فإن أساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصرياً مفرطاً في عصريته ، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس » (١)

ومن الحق أن يقال عن هذه الثقافة أيضاً أنها صادفت أرضاً خصبة في ذهن هذا الفتى . ولكن مهما بولغ في وصف هذه الثقافة أو في وصف ذكا، مصطفى كامل فالذى لا ريب فيه أن هناك أسباباً أخرى أعانت على نبوغ الفتى وتفوقه على أقرانه ، وخلقت منه شاباً مستعداً للزعامة . ومن هذه الأسباب - على سبيل المثال - ما جبل عليه الفتى من الشهامة والاستقامة ، ومن الصدق والصراحة ، ومن الاعتزاز بالنفس والكرامة إلى الحد الذى يعتبر شذوذاً في مجتمع محروم من الحرية الصحيحة كالاجتماع المصرى الذى خيم عليه الاحتلال البريطانى .

كانت نفس مصطفى كامل من طراز خاص من النفوس يسميه العلماء، Extrovert وصاحبها رجل رحب الجوانب يتطلع دائماً إلى الخارج . ولم تسكن نفس مصطفى كامل من ذلك الطراز الذى يسميه العلماء، Entrovert وصاحبها رجل ينطوى على نفسه ولا يسمح لها بأن تمتد خارجها ، ولا يحب لها أن تظهر في المجتمعات العامة .

ومن ثم شغف الفتى منذ نعومة أظفاره بالاتصال بالناس فهو في المدرسة الثانوية رئيس جماعة أدبية يخطب فيها ويكتب لها ، ولا يكتفى بنشاطه في داخل هذه الجماعة الأدبية حتى يرى من واجبه غشيان الجمعيات الأمريكية أو الأوروبية التى هي من طراز جمعيته . ثم هو في مدرسة الحقوق ذو نشاط واسع لا حد له . فهو حيناً صاحب مجلة مدرسية



سـيأتى الحديث عنها، وهو حيناً مؤلف رواية تاريخية تمثيلية كرواية (فتح الأندلس) ، وهو حيناً ثالثاً كاتب صحفى يصل الأهرام والمؤيد بمقالاته ، ويمدها بآرائه . ثم هو آخر الأمر لا يرضيه كل ذلك النشاط الواسع المدى ولا يقنع به ، حتى يرى وهو يختلف إلى النوادى العامة والخاصة . حيث يجتمع بالفضلاء والكبراء ، ويستمع إلى كلامهم وحوارهم ، ولا يتهيب من إقحام نفسه معهم فى هذا الحديث أو الحوار .

ولقد بقيت هذه العادة ملازمة له حتى انتهى من مدرسة الحقوق ، وخرج إلى الحياة العامة ، وسمع بنادى ( الأميرة نازلى فاضل ) ونادى « لطيف باشا سليم » فطار إليهما وكان له فيهما شأن سنعرفه فيما بعد . ثم ما أن سمع بظهور السيد عبد الله النديم بعد اختفائه طويلاً ، حتى خف بنفسه إلى لقاء هذا الرجل ، وقدم نفسه إليه ، وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، وإذذاك طفق النديم يقص على هذا الطالب الصغير من أبناء الثورة العرابية مافيه عبرة لأمثاله . وتعلم الشاب من أحاديث النديم مواقع الخطأ الذى تورط فيه زعماء الثورة العرابية ، ووضع يده على مواضع الخلل فى الخطة التى سارت عليها ، وعرف أن هذه الثورة العرابية ارتكبت خطأين كبيرين : —

أولهما : — تلك الهوة العميقة التى أحدثها زعماء الثورة بينهم وبين ولى الأمر ، وهو يومئذ الخديو توفيق .

وثانيهما : — اعتماد زعماء الثورة على قوة الجيش لا على قوة الشعب ، ونعنى بها قوة الرأى العام فى مصر .

عرف مصطفى كامل عيوب الثورة العرابية على هذا الوجه ، ووعى ذهنه هذه العيوب جيداً ، ثم آلى على نفسه بعد ذلك ألا يقع فيها مرة أخرى .

وهكذا تلقى الشاب مصطفى كامل أجل درس وأنفعه على النديم فى

التربية الوطنية . بل هكذا كان النديم استاذاً مباشراً لمصطفى كامل في ميدان السياسة المصرية . بل هكذا أتاح اللقاء الأول بينهما أئمن الفرص لهذا الشاب ، فدرس على النديم كثيراً من أساليب الانجليز وحيلهم وألاعيبهم . وفهم على يديه كثيراً من دسائسهم التي مارسوها في مصر منذ نشبت أظفارهم في رقبتها .

على أن الأقدار التي أعدت هذا الفتى ليكون صحفي أمته في فترة من أدق فترات حياتها ، بل زعيم هذه الأمة في مرحلة مبكرة من مراحل حياته سحخت عليه بفرصة من أئمن الفرص التي أعانتته على الوصول إلى هذه الزعامة حتى سلمت له في ميدان الصحافة وميدان السياسة - ونغنى بهذه الفرصة الأخيرة سياحات مصطفى كامل في ربوع أوروبا ووقوفه على النهضة السياسية والنهضة العلمية والنهضة الاجتماعية في كل بلد من بلاد أوروبا .

وكان يعمل في قلب هذا الفتى كلما زار بلداً من هذه البلاد الناهضة شعوران قويان : هما شعور الحزن والأسى على بلده مصر ، وقد احاطت بها ظروف سياسية مؤلمة ، واحاط بها الجهل والفقر من كل ناحية ، وشعور الغبطة والغيرة من هذه البلاد الأوروبية التي خطت خطوات واسعة في سبيل العلم والحكم والصناعة والتجارة والحضارة . لقد كان الفتى كلما وقعت عينه على مظهر من مظاهر الرقي في بلد أوروبي انتقل ذهنه بسرعة البرق إلى بلده مصر ودفعته الغيرة على بلاده إلى كتابة مقال يدفع به إلى صحيفة الاهرام أو المؤيد أو يدفع به إلى صحيفة اللواء فيما بعد . وفي هذا المقال يلمس القارئ كل هذه المعاني التي تشير إليها ، ويدرك إلى أي مدى كان هذا الفتى لايحب أن يضيع من حياته دقيقة واحدة لا يعود منها نفع ما على مصر .

ومعنى ذلك أنه إلى جانب التربية المدرسية والتربية المنزلية كانت ثم



أسباب أخرى أقوى منها في تنشئة هذا الفتى ، منها نفس مصطفى كامل ، ومنها انغماسه في المجتمع واحتكاكه بعظماء الرجال في عصره ، ومنها رحلاته العديدة إلى البلاد الأوروبية وغيرها . ولكن ليس معنى ذلك أننا نغض من شأن التربية المنزلية أو التربية المدرسية . كلا - فحسب الأولى أنها كانت تربية صحيحة من كل جوانبها . فمن أب مستنير كان يغذى أولاده كل حين بقصص الأبطال وتواريخ العظماء ، إلى أم صالحة ذكرها ولدها بالخير ، واعترف لها بالفضل في جميع مراحل حياته ، إلى أخوة أشقاء وغير أشقاء كان بعضهم يعطف على بعض ، وكانوا مثلاً أعلى للحب . وباختصار لم تكن هذه التربية المنزلية من ذلك النوع الذي يخلق في الأطفال عدداً من العقد النفسية تورثهم الخوف أو الجبن أو الحياء الضار أو النقمة على المجتمع .

وفي غرة شعبان سنة ١٣١٠ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ ومصطفى كامل في التاسعة عشرة من عمره أصدر « مجلة المدرسة » وقال إنها مجلة أدبية علمية تهذيبية تصدر في غرة كل شهر عربي .  
وإنه ليلفت نظر الباحث في هذه المجلة أمور منها : —

أنها تعتبر أول مجلة مدرسية ظهرت في مصر ، وأن صاحبها تولى تحريرها بنفسه كما تولى الاتفاق عليها بنفسه ، وصرح بأنه أنشأها لخدمة الناشئين لا للشهرة أو الربح المادي ، وقد جعل شعارها الذي يكتب في صدر كل عدد من أعدادها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .  
ولعل هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا منذ الآن عن نفس هذا الشاب . وهي نفس طيبة تعرف معنى الحب ، وتقدره حق قدره ، وتتخذة أساساً تبني عليه الحياة .

والحق أن من يعرف كيف يحب أهله وذويه ، ومن يعرف كيف يخلص لمعاشريه في المحيط الضيق الذي يعيش فيه يستطيع في المستقبل أن

يكون خالصاً لمواطنيه جميعاً في المحيط الأوسع الذي يضطرب فيه الناس جميعاً ، وهو الوطن .

\* \* \*

هكذا كانت نشأة الرجل الذي نكتب عنه ، وهكذا كانت الظروف التي أحاطت به . وهي ظروف سعيدة في جملتها ، ومن شأنها أن تخلق رجلاً مشرق الذهن ، عظيم الأمل ، قوى الإيمان ، كثير الاعتزاز بنفسه إلى الدرجة التي أشرنا إليها .

والحق — لقد رزق هذا الفتى نفساً تعاف الذل ، وتكره الضيم ، وتنفر من الدس ، وتفهم الكرامة الإنسانية على أتم وجه ، وتحس إحساساً عميقاً بمعنى المساواة بين الناس ، وتجل الدين اجلالاً لا حد له . ولنا حين نفيض في الحديث عن أخلاقه أن نستعين في ذلك بأقوال من عاشروه وعرفوه . ونستطيع أن نفهم من أقوال هؤلاء أن الفتى كان معروفاً بشدة إيمانه بما يعتقد ، وقوة استمساكه بالرأى الذي يراه ، والغيرة الشديدة على الدين إلى الحد الذي بز فيه كثيراً من شيوخ الأزهر في زمانه .

أما عزيمة هذا الفتى — فكانت من القوة بحيث تتحول الجبال عن مواضعها ولا يتحول ، ويتسرب اليأس إلى نفوس عظماء الرجال في زمانه ولا يزعزع .

ولقد سمى نفسه وهو في السادسة عشرة من عمره إلى أن يؤلف الكتب ، ويؤسس الجمعيات ، ويلقى الخطب ، ويكتب الرسائل وينشئ مجلة ، وهو مع ذلك يطلب الحقوق في مدرسة نهائية وأخرى ليلية ، ويناقش الخصوم ، ويفند الدعاوى ، ويجمع قلوب أهل طبقته على وحدة الهوى ، ويشغل السبيل لوضع أساس هذا البناء العظيم . (١)



وإذا كانت هذه عزمة الفتى فى تلك السن فما ظنك بها فيما بعد ذلك ؟  
أما إيمانه برسالته فقد كان شيئاً عجيباً لا يذكر إلا بإيمان الصفوة من  
الخلق ، وهم الأنبياء والرسل ، ومن خلفهم من صفوة البشر ونعى بهم  
العظماء والكبراء وقادة الفكر وسادة الأمم .

وانظر إلى ما كتبه هذا الحوارى العظيم مصطفى كامل إلى أمه  
الروحانية مدام جوليت آدم فى الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥  
وهى السنة الأولى من سنى جهاده - قال :

« إني لا أزال صغيراً - ولكن لى أملاً كبيراً . فإني أريد أن  
أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له .  
وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آتس له فى نفسى  
من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى  
سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى وأجعل له حياتى وفقاً عليه .

وحقاً لقد كانت مدام جوليت آدم خير من يقدر فى الفتى ذلك  
الروح الوثاب ، والقلب العامر بالإيمان ، والنفس التى لا نظير لها إلا فى نفوس  
أمثاله من عظماء الرجال ، وانظر إلى هذه الأم الروحانية كيف تصف  
هذا الشاب فتقول :

« . . . إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط ، وهدم  
عدم الاكتراث بشؤون البلاد ، وضد الوطنية الضعيفة - تلك الآفات  
الثلاث التى تهدد مصر كما تهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطراً على  
الأمم من المغيرين عليها . (١)

وإلى القارىء وصفاً للخبديو عباس تناول فيه طرفاً من أخلاق هذا  
الفتى حيث قال : — (٢)

« كان فتى خلق عليه الشباب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس ،

(١) - المصدر السابق « للرائى » ص ٥٥

(٢) - مذكرات الخديو عباس - جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية ، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترتفع فيه إلا على القبور ، وكان لا يعرف شيئاً من الوضاعة والمساومات السياسية . كان بسيطاً ومستقيماً وتحت مظهره اللطيف كانت تختبئ روح متفتحة لكل الأحاسيس ، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان .

وقد زانه الله بالحجى ، وكانت بلاغته واضحة وحارة ، وكان أسلوبه الرشيق العامر بالصور ينتقل من البساطة الانجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم . وقد أوتى موهبة الاقناع ، وسحر الاشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء ، وكان الحب الذى يكتنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله الخ .

على أنه كان بالفقى ضرب من الكبرياء كان يرى اظهارها أحياناً لحاجة فى نفسه .

حدثنى شقيق له قال : (١)

« زار الفقيد إنجلترا فى سنة ١٩٠٦ . وذلك عقب حادثة دنشواى المشهورة وانتصاره على الانجليز بما كتب من المقالات وألقى من الخطب ، وفى إنجلترا وفد عليه سيل من مراسلى الصحف ، ومن رجال السياسة ، وطلب رئيس الوزارة البريطانية سير « هنرى كبرمان » أن يقابله . فإذ كان من مصطفى كامل إلا أن حدد له موعداً لها بعد أسبوع من طلبه إياها . وطيرت وكالات الأنباء هذا النبأ ، وعجبت من اعزاز هذا الشاب المصرى بنفسه ووطنه إلى حد أنه يحدد لرئيس الوزارة البريطانية مثل هذا الموعد .

ومضى شقيق الفقيد يحدثنى كذلك عن صفة أخرى من صفاته وهى الصراحة فى الحق فقال « ذهب مصطفى كامل يوماً لزيارة سعد زغلول

(١) هو الأستاذ حسن حسنى كامل . وكان هذا الحديث بداره فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢



في منزله ، وكان عنده عدد من سراة القوم ، منهم عناني باشا ، ومظلوم باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا ، وحسين رشدي باشا ، واسماعيل صبري باشا ، وفتحي زغلول باشا وغيرهم وحين دخل مصطفى كامل سلم على كل واحد منهم يدأ بيد . فلما جاء دور فتحي زغلول باشا لم يشأ مصطفى كامل أن يمد له يده قائلاً بهذه اللهجة القاسية : -

« إن هذه اليد أكرم من أن توضع في يد جلاد دنشواي »  
إشارة إلى ما هو معروف من أن فتحي باشا زغلول كان أحد أعضاء « المحكمة المخصوصة » التي حكمت على ضحايا الحادثة .

على أن هذا الاستعلاء أو تلك السكبرياء إنما كانت تصدر من الفتى نتيجة لمرضه ، وللثورة التي في نفسه ، والمزاج العصبي الذي لم يفارقه إلا نادراً . ومن هنا كان مصطفى كامل كثيراً ما يبدو للناظر اليه شاباً عليلًا وفي نفسه ثورة وغضب ، وفي خلقه عصيان وتمرد ، وفي رأسه نار موقدة . ولقد عبر الخديو عباس عن ذلك حيث قال :

« . . . وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذي يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم »

ثم قال : كان هذا المتضرم هوى بيلاده الذي قدر له أن يموت في زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة قد حصل على معظم ما تمنى من رضا عن ذلك النجاح العجيب لرسالة الوطنية . وما من ريب في أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه . ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين . (١)

قيل إن مصطفى كامل وصل في بعض رحلاته يوماً إلى الآستانة ،

ودخل بنفسه على السلطان فأكرم السلطان وفادته ، وأهدى اليه هدية ثمينة وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٨٩٦ . ثم عرض عليه السلطان أن يمنحه بعض الأوسمة ولكن الشاب إعتذر بلطف وأدب عن قبول شئ من ذلك خشية أن يتهمه الناس بأنه إنما يجاهد ما يجاهد في سبيل مثل هذا الغرض . ولكنه لما عاد إلى مصر لأمه أصدقاؤه في ذلك وقالوا له إن الناس في الشرق يتوددون إلى أصحاب الألقاب ، ويرمقونهم دائماً بعين المهابة والاحلال . ومن ثم هياً الفتى نفسه لقبول ذلك متى عرض عليه وبالفعل سنحت له فرص منها ما كان في سنة ١٨٩٩ حين أنعم عليه السلطان برتبة الممايز ، فصار مصطفى بك كامل ، ومنها ما كان في سنة ١٩٠٤ حين أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، وكان الفتى يومئذ في الثلاثين من عمره فقط .

---



## الفصل الثانى

# العقيدة السياسية لمصطفى كامل

خيم على البلاد المصرية ظلام كثيف عقب الثورة العرابية . ومرت بها موجة يأس وخضوع منذ الاحتلال البريطانى . وركن الناس فى مصر إلى حياة فقدوا فيها الأمل فى الخلاص من هذه الدولة القوية التى أذلت نفوسهم ، ونفت زعماءهم ، وحالت بين هؤلاء وبين قيادة مواطنيهم إلى الحرية .

فى مثل هذه اللحظات نرى يد التاريخ وقد وقفت وقتاً ما عن التسجيل أو السكتابة . ذلك أن حياة السكون لا يكتب التاريخ فى وصفها غير سطر واحد . وحياة الظلام لا يسجلها التاريخ إلا بكلمة واحدة . ويظل الحال على ذلك حتى تنتقل الأمة نفسها من الظلام إلى النور ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن النوم إلى اليقظة ، ومن الذل إلى العز ، ومن الخضوع إلى التمرد ، ومن اليأس إلى الأمل ومن الضعف إلى القوة . وهنا يرفع التاريخ يده مرة أخرى ، ويتأهب لسكتابة المئات من السطور فى وصف هذه الحركة التى شملت الأمة ، والأمل الذى أصبح يغمرها ، أو الجهاد الذى باتت تبذله لتحقيق هذا الأمل .

ذلك ما أحسسته مصر منذ ظهر فيها الشاب مصطفى كامل بعد فترة من سكون هذه الأمة ، وانقضاء مدة طال فيها استسلام هذا الشعب الأعزل . وذلك هو الأساس الأول الذى ينبغى للمؤرخ المنصف أن يبنى عليه رأيه فى مصطفى كامل وفى حركته التى قام بها .

مصادر هذه العقيدة السياسية

ولكن كيف هبط الوحي على شاب بعينه من شباب هذه الأمة ؟

وكيف تألفت له هذه العقيدة السياسية الهامة ؟ وما هي الظروف التي أعانت على تأليف هذه العقيدة التي ملأت قلبه ؟

عرفنا كيف نشأ الفتى نشأة سليمة من جميع جوانبها في البيت ، وفي المدرسة وفي المجتمع ، وعرفنا كيف أن نفس هذا الفتى لم تسكد تحفظ من الصور التي مرّت بها غير صورة واحدة ، هي صورة هذا الذل الذي بات عليه قومه ، وصورة هذا اليأس الذي خيم على صدورهم ، وأفقدتهم الرجاء في الخلاص من عدوهم . ولا بد أن الفتى كان يوازن بين هذه الصورة السكتية المحزنة وصورة مصر الناهضة المشرقة على أيام محمد علي وعباس وسعيد واسماعيل - ولا ننسى أن والد الفتى كان كثيراً ما يقص عليه وعلى أخوته أحاديث ذلك المجد الذي شهد بنفسه طرفاً منه .

وهكذا كان ( البيت ) أول مصدر من المصادر التي استمد منها الفتى جزءاً من عقيدته السياسية التي اشتهر بها .

ثم كان السيد عبد الله النديم مصدراً ثانياً من تلك المصادر ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في فصل مضى . ثم مصدر ثالث لهذه العقيدة هو الدراسة الخاصة . تحدث على فهمي عن شقيقه مصطفى كامل قال : —

« إنه حين استقبله في الاسكندرية عند رجوعه من تولوز بعد نيله شهادة الحقوق وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم . وفيها مذكرات بعضها لكبار السياسيين ، وبعضها من مكتبة باريس ، وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية . وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه . وقد أكب على هذه الدراسات كأنه لا يزال في دور الدراسة ، ووضع برنامجاً للعمل سار عليه . فكان يعمل يومياً ثمان ساعات في مكتبه . »



ثم أخذت الأيام بيد مصطفى كامل ففتحت له باب أكبر معهد سياسى فى ذلك العهد . وهو المنتدى الذى كان يعقد فى « دار لطيف باشا سليم الحجازى » فسمع فى هذا المنتدى أن مصر لا سبيل إلى جلاء الانجليز عنها بعد أن قضى على القوة العسكرية فيها إلا بعمل سياسى ، وهو الدعوة لها فى الخارج ، والاتصال بالساسة الأوروبيين ، وقراءة ما يكتبون فى قضايا الأمم ، ومعرفة نواياهم نحو بلادنا . ففتح مصطفى كامل عينه بشدة على هذه الحقائق الغريبة التى تكشف لعقله ، وكأنما هو واحد من أبطال الافاصيص المعروفة باسم الف ليلة وليلة . فشاور مصطفى كامل حلمه الذى بقى معه إلى أن مات ، وهو أن يحى فى مصر الهرمة مصر الفتاة . (١)

### المصريون والاحتلال

ولكن - لا يفهم من ذلك أن الشعب المصرى كله كان يفكر على هذا النحو ، أو أن الصفوة من المصريين كلهم كانوا يؤثرون هذه السياسة - كلا - فالواقع أن الشعب المصرى كانت تغمره موجة اليأس الذى تحدثنا عنها ، وكان غارقا فى أحزانه على الزعماء الذين غابوا عن بصره وسمعته . ونحن حين ننظر فى حالة مصر منذ قام فيها الشاب مصطفى كامل معلنا جهاده لأول مرة فى حياته عام ١٨٩٥ نجد المصريين وكأنهم انقسموا بازاء الاحتلال الاجنبى إلى هذه الفرق :

فرقة ترى الخير فى الاستسلام المؤقت إلى هذا المحتل الاجنبى ربما تخمين الفرص التى تفرض عليه ترك البلاد ، فيجلبو عنها وكفى الله المؤمنين القتال . وفرقة ترى الخير فى مصانعة العدو . فقد يدرك المرء بالحيل السياسية مالا سبيل إلى إدراكه بالعنف والقوة المادية .

وفرة ترى أن تتحين الفرص ، وتراقب الأحداث السياسية الدولية .  
فلعل هذه الاحداث أن تتوالى ، ولعل ميزان هذه الدول أن يميل . وهنا  
ترفع مصر صوتها بطلب الجلاء . وقد تجد من الدول القوية دولة تعينها على  
مطلبها وتساعدتها على ادراكه .

وانعكست هذه الصورة كلها في ذهن الفتى ، ولا بد أنه أطال  
التفكير في كل واحدة منها على حدة . ولكن تفكيره هداه إلى أن اليأس  
في ذاته ليس خطة من الخطط التي تؤدي إلى نجاح أمة من الأمم . كما  
هداه إلى أن المصانعة في ذاتها لا تجدى شيئاً أمام إصرار العدو الذي  
فرض نفسه على البلاد .

وإذن فليس أمام الوطن إلا خطة واحدة فقط ، هي مجاهدة العدو في  
داخل البلاد ، ومجاهدة هذا العدو في خارجها . وذلك هو الرأي الذي  
انتهى إليه الصفوة من المصريين في نادى لطيف باشا سليم . ولئن  
كان أحد من هؤلاء لم يفكر بعد في أن يخرج به إلى حيز العمل ،  
فإن الفتى مصطفى كامل هو وحده الرجل الذي فكر جدياً في تحويل  
هذا الرأي إلى عقيدة سياسية وخطة وطنية .

ولكن ما هو كنه هذه العقيدة السياسية التي اعتنقها مصطفى كامل ،  
وهل طرأ تغيير ما على هذه العقيدة ؟ وما هي أسباب ذلك ؟

أما كنه هذه السياسة فواضح كل الوضوح من الحديث الآتى : —  
تقدم رجل أمريكي إلى مصطفى كامل يوم كان على أهبة السفر إلى أوروبا  
سنة ١٨٩٧ واستأذنه في اللقاء هذه الأسئلة .

هل لك أن تتكرم ياسيدى فتجمل لى السبب الذى يملك على  
أن تنادى بحرية مصر ؟ وإذا لم تستطع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن  
تجبر بريطانيا على الجلاء فإذا تسكون خطتك وخطة مواطنيك إذاذاك ؟  
وهل لك من حاجة في أمريكا لأقوم بها خدمة لمصر المظلومة ؟



فأجاب مصطفى كامل عن هذه الأسئلة الثلاثة فقال . ( أما عن السؤال الاول ) فلأني مصري صميم فقد رأيت من واجبي أن أقف قلبي ولساني على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا الا بوجودها عالية الشأن ، سامية المقام ، وسأبقى إنبها البار الوفي حتى آخر نفس أردده في هذا العالم ( وأما عن سؤالك الثاني ) فانتا بنى نجاحنا في عملنا على أمرين — الأول — خارجي وهو انتهاز الحوادث الدولية والثاني — داخلي — وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين ، والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزي لنرق بالعقول ، ونبغض الفاصبين إلى القلوب . وبذلك تقترب الأمة شيئاً فشيئاً من الوطن حتى تلتف حوله ، وتصير وإياه جسماً واحداً لا قدرة لأية طائفة من الناس ، أو أية حكومة مها كانت قوتها على أن تعبت بكيانه ، أو تفصل أجزائه .

( وأما عن سؤالك الأخير ) فاني أشكر لك الخدمة التي عرضتها على أمريكا . وأمل أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الأوروبية ( يقصد بذلك مبدأ منرو الذي يقضى بعدم تدخل أمريكا في المسائل الأوروبية ) حتى نسمعكم صوتنا في دياركم بنفس النغمة التي أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا . ترحون تحت النير الانجليزي . كذلك أومل ألا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا . وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الأيمان والعهود الكثيرة على أيدي بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلاً لعشر معشاره » . (١)

على أن شيئاً هاماً يلفت نظر المتأمل في سياسة مصطفى كامل وهو أنه تحدث كثيراً في صحفه عن الاسلام والمسلمين ، ولم يفتر عن هذا الحديث يوماً ما . فهل مزج بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية ، وأصبح الدين

عنصرأ هاما من عناصر هذه العقيدة ؟ أما الخديو عباس فيؤكد لنا في مذكراته أن مصطفى كامل وإن تحمس تحمساً شديداً للدين إلا أنه جرد عقيدته من كل رداء ديني .

والحق أنه لولا موقف الاحتلال من الاسلام لما وجدنا مصطفى كامل يذكر المسلمين في كلامه إلا حين تدعو الحاجة الماسة إلى ذلك ، ولولا ما كتبه الصحف الأوروبية كثيراً وبدون انقطاع عن المسلمين والاسلام لما شعر مصطفى كامل بالحاجة أيضاً إلى الرد عليها في كل ذلك .

كان زعماء مصر في عهد الاحتلال يدركون جيداً أن الأمة المصرية مؤلفة من عنصرين ، هما الأقباط والمسلمون ، وأنه لا حياة لهذه الأمة إلا باتفاقهما واتحادهما وحسن توجيههما إلى الغرض المنشود من الحركة الوطنية ، وهو غرض ذو شقين هما : —

إنقاذ البلاد من برائن الاحتلال ، وإنهاضها في جميع مرافق الحياة ، أغنى من حيث السياسة والاقتصاد والاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم . معنى ذلك إذن أن مصطفى كامل كغيره من زعماء هذه الأمة لم يخلط بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية . وذلك بالرغم من أنه كان مضطراً إلى الاتيان في صحفه دائماً بحديث يشتم منه أحياناً بأنه حديث طائفي أو أنه أثر من آثار التعصب الديني .

وعلى الرغم من ذلك وجدنا من القبط في مصر من يبعث بكتاب إلى مصطفى كامل لينشره على صفحات اللواء . (١)

وفي هذا الكتاب يلوم الكاتب القبطي صاحب اللواء على إغفاله أمر الأقباط وإنصرافه إلى الاهتمام بأمر المسلمين في مصر والبلاد البعيدة عنها كالهند وجاوه وغيرها . واهتم مصطفى كامل بارد عليه في صفحات اللواء منكرأ هذه الدعوى ثم قال : —

(١) راجع العدد السابع من جريدة اللواء بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٠٠



(... .) إنا — نادينا بأعلى صوت أن المسلمين والأقباط في مصر أمة واحدة، بل عائلة واحدة. وقلنا إن الدم الذي يجري في عروق أغلب مسلمي مصر هو الدم الذي يجري في عروق الأقباط، وإن أول واجب نحو الوطن هو الاتحاد التام بين أبنائه... الخ ثم قال: —  
وأما دفاعنا عن مسلمي البلاد الأخرى فردده إلى أن جريمتنا الكبرى عند سواس أوروبا كوننا مسلمين، لا أكثر ولا أقل»

إنا نكرر القول هنا بأن مصطفى كامل كان كغيره من قادة الشرق في ذلك الوقت تهفو نفسه إلى أن تعود للإسلام عزته وقوته، ويرجع للمسلمين مجدهم ومهابتهم. وكان يرى أنه لا سبيل إلى مقاومة هذا الغرب الطامع في الشرق الواعد إلا بتحقيق هذا الحلم. بل كان يرى أن الاستعمار الأوروبي للشرق ليس إلا نتيجة لتفرق المسلمين وتخاذلهم، وإغفالهم أمر العناية بقوتهم الحربية. وما دامت تركيا أقوى الدول الإسلامية من هذه الناحية فالخير كل الخير في الانضواء تحت لوائها والاذعان لها حتى تقود هذا الشرق إلى حيث المجد وتبلغ به الحد الذي يقوى معه على مقاومة الغرب.

ونشر مصطفى كامل في هذا المعنى بعنوان «رابطة الدين ورابطة الوطن» جاء فيه: «نجد في مصر أمة مشتركة جزء منها هو الأقباط، وجزء عظيم هو المسلمون وعلينا واجبان عظيمان: واجب ديني، وواجب وطني، فالواجب الديني يحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة، ويدافعوا عنها أقوى الدفاع. ولا ملامة عليهم إذا إنعطفوا نحو إخوانهم في الدين والعقيدة. والواجب الديني يحتم على المسلمين أن يرجعوا إلى مبادئ الإسلام الصحيحة، ويعملوا بأوامر الدين الخفيف الكريم، ويجتنبوا نواهيه، ويتحدوا فيما بينهم إتحاداً متيناً أكيداً، حتى يرتفع شأنهم، وتسمو بين الأمم مكانتهم. ولا ملامة عليهم إذا انعطفوا بكل جوارحهم نحو إخوانهم المسلمين في سائر أقطار المعمورة.

لأن الاسلام جعل المسلمين إخوة بالرغم عن اختلاف النحل والبلاد . وإذا أضفنا إلى الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية ، وإضطهاد أوروبا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعة واحدة ، ظهر لنا ضرورة إجتمع كلمة المسلمين ، وعرف الناس جميعا لماذا تنادى ( بالاتحاد الاسلامي ) ثم قال : « ألا ترى أن الذين يطعنون على الاسلام يتهمون به بأنه دين التأخر والانحطاط ، وأن جميع أبنائه متأخرون منحطون ؟ أليست هذه التهمة وحدها داعية لاستنهاض هم المسلمين في كل أنحاء الأرض ، ودعوتهم للاتحاد والاتفاق ، وترقية شؤونهم ، وإعلاء قدر الدين الكريم ؟

هذا واجبنا الديني نصرح به أمام الملأ ، ولا نخشى في ذلك أحدا . أما واجبنا الوطني فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطناً لهم لخدمة هذه الديار العزيزة ، والسعى وراء استقلالها وحربتها . ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا . بل إننا جاهرنا بأن المسلمين والأقباط في مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذي يجري في عروق أغلب مسلمي مصر هو نفسه الدم الذي يجري في عروق الأقباط ، وإلى هذا تنتهي الدعوة للاتحاد الجنسي ، والاتفاق الوطني وليس في خدمة الاسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شيء من التعصب الديني أو من المخالفة للمبادئ الوطنية الحقيقية . بل إن التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن . وحسبنا دليلاً ( حب الوطن — من الايمان ) . (١)

\* \* \*

### مصطفى كامل والسياسة الخارجية :

ذلك كله من حيث السياسة الداخلية . أما من حيث السياسة الخارجية فقد وضع الشاب لنفسه خطة يسير عليها في جهاده ، واعتمد في تنفيذ هذه الخطة على وسائل ثلاث هي الخطابة والكتابة والدعابة . كما اعتمد في



الوصول إلى هدفه الأسمى من هذه السياسة على نواح ثلاث : أولاها ناحية الخديو عباس والثانية ناحية السلطان والثالثة ناحية فرنسا .

وكيف لا يعتمد الفتى أولا على أمير البلاد وقد توثقت بينهما عرى الصداقة والوداد ، وتوسم كل من الرجلين في صاحبه غيرة تامة على مصر وتحمساً شديداً للدفاع عن مصالحها ؟

ثم كيف لا يعتمد هذا الفتى على السلطان وقد كان يقدر في نفسه جيداً أن مركز مصر الشرعى إلى نهاية الحرب العالمية الكبرى كانت تحدد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وهي المعاهدة التى تعترف باستقلال مصر بضمان من الدول الكبرى جميعها ، وبقاء العرش المصرى فى أسرة محمد على والاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ؟

ثم كيف لا يعتمد الفتى على فرنسا ، وهى البلد الذى تعلم فيه القانون ، وظفر فيه بكثير من الاصدقاء ، وتعرف فيه على كثير من رجالات الأدب والفكر والصحافة ، واتخذ فيه لنفسه أمأ روحية هى مدام جوليت آدم ، ورأى فيه كيف تكون الحرية والاخاء والمساواة ، وشهد فيه نظام الحكم الجمهورى الدستورى ، وقال عنه فى إحدى مقالاته :

« لا عجب إذا كانت آمالنا موجهة لفرنسا ، وهى التى تبرعت بدماء جنودها الأعزاء للأمريكيين فى « بوك تاون » ولليونانيين فى « نافارين » وللبلجيكين فى « انفرس » وللايطاليين فى « ماجنتا — سولفيريئو » ورحبت بالاييرلنديين سنة ١٨٦٨ وأحسنّت للبولونيين بعد عام سنة ١٨٣٠ . وبالجملة برهنت المرة بعد الأخرى على أنها ظهرة الحرية ونصيرة الاستقلال » . (١)

ذهب مصطفى كامل فى صيف سنة ١٨٩٥ إلى فرنسا . فدعاه صاحب جريدة فرنسية تدعى « لا بارى » إلى وليمة اجتمع فيها الشاب بكثيرين

(١) الاهرام فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ نقلا عن كتاب على فهمى ج ٣ ص ٣٩

من رجالات الأدب والصحافة والسياسة، واستمع فيها يومئذ إلى أحدهم وهو يخاطب الحاضرين ويقول:

«إن مصر بلد سيء الطالع . رزق في هذا العصر المنير، عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبي يديره رجال لا يعرفون غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام . وقوم من مصر سواء من أبناءها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم — فهم فصلوا السودان عن مصر ، ومكنوا العدو من كل شيء ، وقدموا المصالح الخاصة على المصالح العامة .. الخ » إلى أن قال : —

«.. فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم ، وخروج الانكليز من دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية ، ولم تهتدوا أوروبا إلى الحقائق . بل تركتم هذا الواجب الخطير للجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقة ، ويخالف الواقع .. فهي تقول لنا يوماً إنكم راضون بالاحتلال »

«... وتحدثنا يوماً آخر عن تعصبكم في دينكم ، وكرهكم لغير أبناء جنسكم ، وتذكر لنا قارة أنكم لستم أكفاء ولا يليق بأوروبا أن تضع ثقتها فيكم ، وطوراً آخر أن الانجليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلاً . »

«... فهل قام فيكم وفد جاء أوروبا منادياً بالحقائق ، طالبا العدل والانصاف ؟ أمامكم في بعض العناصر الشرقية كالصرب والبلغار والأرمن عبرة كبرى ؟ »

هذا خطؤكم في سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه . أما أنت أيها الشاب المصري ( يريد مصطفى كامل ) فقد أحسنت عملاً إذ جئتنا اليوم تنادى باستقلال بلادك . فأمل خيراً كثيراً وأدع أبناء جلدتك إلى الانضمام إليك ليكون صوتكم عالياً يسمع في كل الأرجاء . » (١)



وإذن فانتهاز الحوادث الأوروبية ، والدعاية العريضة للقضية المصرية ، والتودد إلى الأمة الفرنسية ، والاعتراف بسيادة الدولة العلية هي الأسس الأربعة التي بنى عليها مصطفى كامل سياسته الخارجية ، وهي التي آمل من ورائها أن تجنى مصر أحسن النتائج وأطيبها ، فيجلب الانجليز عن وادي النيل ، ويترك للمصريين أن يعيشوا أحرارا في بلادهم ، وأن يعملوا على تقدمها في ميادين الثقافة والسياسة والتجارة والزراعة والصناعة . وما أيسر أن يتخلص المصريون بعد ذلك من السيادة التركية نفسها آخر الأمر . بقى الشاب مصطفى كامل على حبه لفرنسا وأمله فيها حتى أثبتت الحوادث فيما بعد أنه كان مخدوعا في هذا الحب ، مكذوبا عليه في هذا الأمل . وكان من هذه الحوادث التي نشير إليها حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ثم إتفاقيتنا الحكم الثنائي في السودان عام ١٨٩٩ . ثم الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤ .

ومنذ يومئذ لم يجد الشاب بدا من أن يترك فرنسا إلى الأبد إلى غير رجعة ، معتمداً في جهاده المير على وسائله الخاصة . ومن أهمها وأخطرها إيقاظ الوعى القومى في مصر وبعث الحركة الوطنية فيها وتسكين ما يسمى في معجم السياسة الحديث بقوة الرأى العام في الأمة . ثم في عام ١٩٠٤ حدث كذلك ما لم يكن في الحسبان — حدث أن اليابان وهى دولة من الدول الشرقية هزمت روسيا القيصرية هزيمة منكرة في الباسفيك . ونظر الناس في الشرقيين الأقصى والأدنى إلى هذه الحادثة على أنها انتصار للشرق المتواضع على الغرب المتكبر .

أما في مصر بنوع خاص فقد انتهز القادة وذوو الرأى فرصة هذا الانتصار الكبير الذى أحرزه اليابانيون على الروس فسكتبوا فصولا طويلة في هذا المعنى ، وهى فصول تفيض كلها حماسة للدولة المنتصرة وشماتة بالدولة المهزومة . وعاد ذلك المجهود الذى بذله الكتاب في مصر على أهلها

بتقوية الروح المعنوية ، وإحياء الكرامة الشرقية .

وفي يونيه من نفس هذا العام ظهر كتاب ( الشمس المشرقة ) لمصطفى كامل وصف فيه الكاتب عظمة اليابان ووحدتها وصدق وطنيتها وانتصارها نتيجة لجميع هذه العوامل . وكان قصده من ذلك إذكاء الروح المعنوية التي أشرنا إليها وإعادة الشعور بالحياة إلى شعوب الشرق كافة وإلى مصر منها بنوع خاص .

\* \* \*

### مصطفى كامل والحزب عباسي

وقد تعرضت سياسته الداخلية هي الأخرى لشيء من التطور الذي أصاب ناحية هامة من نواحي هذه السياسة ونعني بها ناحية العلاقة بين الزعيم الشاب والخديو عباس الثاني. ونحن نعرف أن الصلة بينهما كانت على أتمها وأوكدها ، وأن الزعيم الشاب انتفع بالدروس التي تلقاها عن النديم فوضع نصب عينه أمر تقوية الروابط بين الشعب وولي الأمر . وبقي الحال على ذلك حتى جاءت سنة ١٩٠٤ وهي السنة التي عقد فيها الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا . إذذاك إنهار الروح المعنوي في مصر واستيأس الناس جميعاً من الخلاص من رائن الغرب . وإذذاك أيضاً رأينا (عباساً) وقد أنهكه الصراع السياسي ، وبدا للناس كما لو كان وحشاً قلمت أظفاره ، أو نسرأ هيمض جناحه ، أو سبماً خلعت أليابه .

وعلى حين غرة غير الخديو عباس من خطته ، وانحرف عن مسلكه وبدأت منه تصرفات دلت على هذا التغير والانحراف . من ذلك أنه اشترك في الاحتفال بعيد الملكة فيسكتوريا ، وشوهد في عرض الجيش الإنجليزي في ميدان عابدين إحتفالاً بهذه الذكرى . وقد إستاء الوطنيون - وفيهم مصطفى كامل - وإحتاجوا لهذا التصرف ، ونظروا إليه على أنه أساءة لشعورهم الوطني ، وجرح لكرامتهم القومية . من هذا العمل وأمثاله



من الأعمال التي صدرت عن الخديو عباس الثاني رأى مصطفى كامل رأياً جديداً في الحركة الوطنية ، وهو استقلال هذه الحركة عن الخديو نفسه وعدم إعتادها عليه بأية صورة ، بل وجد في هذه الخطوة الأخيرة قوة للحركة ، وتعتيها لشأنها ، وإجلالاً لها في نظر الدول الأوروبية التي فهمت أن الحركة الوطنية ليست من وحي الشعب بل من وحي ولى الأمر .  
وإذ ذاك بادر الزعيم الشاب مصطفى كامل بكتابة خطاب إلى الخديو عباس جاء فيه :

مولاي

تشرفت في ديفون بالمشول بين يدي سموكم يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ ، ورفعت إلى مقامكم السامي أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيداً عن نفخاتكم ، وأن أتحمّل وحدي مسؤولية الخطوة التي أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، ومنعاً لتكدير خاطركم ، ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

وقد رأيت يا مولاي بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمي تأديته عقب عودتي إلى الوطن لأن الانجليز أظهروا في خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية ، وحجة لتدخل جديد غير محمود .

وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التي تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفتحاتكم بسبب الاستقبال الودى نالته ( مدام جوليت آدم ) من لدنكم ، وتصريحهم بأن انجلترا لا تسمح لجنابكم العالي باكرام من يعاديها وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعد نفسي مقصراً تقصيراً حقيقياً في تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى

بسموكم على حالها ، وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة . (١)

مصطفى كامل والحزب الوطنى :

ومضى الشاب يجاهد فى تحقيق هذه السياسة بشطريها فى الداخل والخارج ، مستهيناً فى سبيل ذلك بكل ما لقيه من المتاعب والمصاعب . وانتهى به المطاف بعد حادثة دنشواى المشهورة إلى تأليف الحزب الوطنى . وهو الحزب الذى تبلورت فيه هذه السياسة واتخذت شكلها النهائى ، ثم هو الحزب الذى توج به الفتى جهاده السياسى .

ولا بأس هنا من تتبع فكرة الحزب الوطنى منذ نشأتها إلى أن أخرجها مصطفى كامل إلى حيز الوجود فنقول :

« إن فكرة الحزب قديمة فى مصر . بل ربما كانت سابقة حياة مصطفى كامل نفسه بعشرات السنين .

فلقد سمع الناس كلمة ( الحزب الوطنى ) لأول مرة فى مصر ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الماضى . وربما كان ذلك بالضبط قبل الثورة العرابية بقليل . أغنى سنة ١٨٧٨ أى فى وزارة رياض باشا . ففى تلك السنة تم تأليف هيئة شعبية باسم الجمعية الوطنية أو ( الحزب الوطنى ) وكان من أعضاء هذه الهيئة يومئذ شريف باشا ، وشاهين باشا ، وعمر لطفى باشا ، وراغب باشا ، وسلطان باشا . وكانت هذه الهيئة فى حقيقة الأمر صدى لظهور المعارضة فى مجلس النواب المصرى . (٢)

كتب أديب اسحق فى جريدة مصر القاهرة التى أنشأها فى باريس سنة ١٨٧٩ مقالا بعنوان ( الحزب الوطنى فى مصر ) قال :

« نعم إن الأمة المصرية فريقان ، يعرف أحدهما بالوطنى ، والآخر بما لا نجد

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨٤

(٢) راجع أدب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف جزء ١ ص ١٦-١٧



لتعريفه جداً . فإنه ليس بالغريب فيوصف بالأجنبي ، ولا بالفاتح الدخيل فيعرف بذلك . وإنما هو مصري وليس بمصري ، ووطني وليس بوطني . بل القول فيه ما جاء ( بمصر الفتاة ) على حين صدورهما مفوضاً تحرير جانبها العربي إلى هذا العاجز ( يريد نفسه ) وهو تعريف الحزب الوطني بالاستقلاليين ، والآخر بالتدخليين . فالتدخليون هم الأفراد المتهالكون على تدخل الأجنبي في أمور بلادهم ، يتوسلون بذلك للرياسة والولاية ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام وزائل الحكم . وهم الآن أصحاب الأمر ، لهم الملك وللأجنبي الحكم ، ولهم القشور وللدخيل اللبالب . . . . والاستقلاليون هم الفئة المجتمعة ، والجمع الكثير . يرومون حفظ الحقوق الوطنية ، وكف يد الأجنبي عن استقلالهم . . . . وبعبارة إجمالية يريدون أن تكون مصر للمصريين . وهم الآن حلفاء الصبر ، يبعد نبهاؤهم ، ويعنت وجهاؤهم ، ويقيمهم اللؤماء هدفاً لسهام الانتقام . وقد غنى التدخليون بشيويه محاسن الفرقة الوطنية ( يريد الحزب الوطني ) بما ينشرون في صحفهم ، وما يستكتبون في صحف الأجنبي من الكلام المفترى ، منقلبين في ذلك قلب الأفعى ، متلونين تلون الحرباء . فتارة يسمونهم بحزب الترك القديما ، وطوراً بحزب التعصب الديني ، وآونة يرمونهم بالنفرة عن كل نجاح وصلاح . ومرة يتهمونهم بعداوة الأجنبي عن دينهم على أي مشرب كان . وقد آن أن نضع لهذه الأراجيف حداً ، وأن زد كيد اللؤماء في نحورهم . فالحزب الوطني غير متعصب إلا في وطنيته ، والحزب الوطني غير معاد إلا للخائنين . »

قد يفهم من هذا الحديث أن كلمة « الحزب الوطني » إنما كانت تطلق على الأحرار الذين كانوا يهدفون إلى إستقلال مصر ، ويحاولون الظفر بحريتها . وقد كان هؤلاء الأحرار يجتمعون حيناً بدار سلطان باشا ، وحيناً آخر بدار لطيف باشا سليم ، وحيناً ثالثاً بدار الأميرة نازلي فاضل ، وحيناً

رابعا بدار السيد توفيق البكرى نقيب الاشراف ، وحينما خامسا بدار راغب باشا وهكذا .

والذى لا ريب فيه أن مصطفى كامل كان يختلف في حياته كما قلنا إلى بعض هذه الدور ، وأنه التقط فيما التقط منها فكرة الحزب الوطنى . وبقيت هذه الفكرة تسكن عقله حتى جاءت سنة ١٩٠٠ ففكر في إخراج فكرته إلى حيز الوجود . وكتب في ذلك مقالا بجريدة اللواء في ٢ يولييه سنة ١٩٠٠ عنوانه ( حزب وطنى حر فى مصر ) وكان يومئذ فى بودابست عاصمة المجر — جاء فيه :

« إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه إلى أن قال : —

« هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادئ ، المتحد الأعضاء ، الناهض بالامة إلى مرأى النجاح والعلاج . إنى أعرف أن اليائسين سيقولون إن تأسيس حزب محال ولستكنى اذا كنت لا أبأس من خلاص بلادى فمحال على أن أبأس من تحقيق هذا الأمر الجليل »

غير أن فكرة الحزب الوطنى بقيت حيا من الأحلام لم يتحقق لمصطفى كامل إلا فى عام سنة ١٩٠٧ . أعنى بعد حادثة دنشواى واستعداد الأمة إستعداداً كاملاً لتقبل هذه الفكرة التى توج بها الزعيم الشاب جهاده فى سبيل وطنه .

وفى الثانى والعشرين من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٧ ألقى الزعيم الشاب أطول خطبة سياسية له ، وكان ذلك فى مسرح زرينيا بالأسكندرية . واجتمع لسماعه عدد من الأهالى لا يقل عن سبعة آلاف وكانت هذه الخطبة بمنزلة إعلان لانشاء الحزب الوطنى الذى عرف يومئذ ( بحزب الجلاء ) . وقد اجتمع أعضاؤه لأول مرة فى السابع والعشرين من شهر



ديسمبر عام ١٩٠٧ . وخطب مصطفى كامل في هذا الاجتماع خطبة أخرى أعلن فيها مبادئ الحزب الوطني وتتلخص فيما يلي : —

أولاً — الاستقلال التام لمصر مع سودانها وملحقاتها غير مشوب بأي احتلال أو حماية أو شبه سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال .

ثانياً — إيجاد حكومة دستورية في البلاد بحيث تكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابي تام السلطة كمجالس النواب في أوروبا .

ثالثاً — احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي إرتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون .

رابعاً — إنتقاد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لها .

خامساً — العمل لنشر التعليم في أنحاء الديار على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منه ، ومحاربة الخزعبلات والترهات ، ونشر المبادئ الدينية السامية الداعية للرقى ، وحث الأغنياء والقادرين على بذل كل المساعدات لنشر التعليم بتأسيس الكليات في البلاد وإرسال الارشاليات لاوروبا وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال .

سادساً — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل فروع الحياة ، والعمل واجد وراء نيل الامة استقلالها العلمى والاقتصادى .

سابعاً — إرشاد الاهالى بكافة الوسائل الممكنة إلى حقائق الاحوال وبث الشعور الوطنى فيهم ودعوتهم للاتحاد والائتلاف وتمكين المحبة بين عنصرى الأمة المسلمين والاقباط وتنبيههم إلى واجباتهم نحو بلادهم .

ثامناً — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد في تحسين الأحوال الصحية حتى يزداد عدد السكان فترداد الامة قوة على قوتها .

تاسعا — تقوية روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب وإزالة سوء التفاهم بينهم إذا وجد .

عاشراً — إتمام علائق المحبة والثقة بين مصر ودول أوروبا، ونفي كل تهمة عن مصر، والعمل لايجاد أنصار لها في كل أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعد على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية والتغلب على المساعي التي تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة . (١)

### مذهب الإصلاح ومذهب الأمة :

وإلى جانب الحزب الوطني نشأ حزبان آخران هما : -

حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية : وهو حزب الأعيان وكبار الشخصيات التي كانت تأتمر بأمر الشيخ على يوسف وكان ينظر إلى هذا الحزب على أنه حزب الخديو .

وحزب الأمة : وكانت نشأته تتصل بوجود الانجليز . وإن كان أنصار هذا الحزب قد ورثوا عن الحركة الوطنية التي سبقت الاحتلال البريطاني جفاءها للجالس على العرش ونزعتهما الأصلحية التي افتتن بها عدد لا بأس به من الملاك الزراعيين من ناحية ، وبعض المفكرين المجددين من ناحية ثانية . كما كان أعضاء هذا الحزب يهدفون إلى إصلاح المشاكل الاجتماعية في البلاد . وهو إصلاح كان يؤمن به المحتلون ، ويرون أنه ينبغي أن يكون جزءاً من سياستهم في مصر . وتوالت الأيام ، وتغيرت معها الظروف والأحوال ، فأصبح أعضاء حزب الأمة يميلون إلى انتقاد السلطة المحتلة . واستحال حزب الأمة مع الزمن أيضاً إلى حزب الوفد . وكان ذلك عقب الحرب العظمى وزعيم هذا الحزب الجديد هو سعد زغول . وينفرد هذا الزعيم دون عامة كبار الساسة في مصر في القرن العشرين بنشأته المصرية ،

(١) خطاب بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا ي ٧٥٦٧ دار الكتب .



ومروره بجميع أطوار الحياة المصرية بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين . . . . . ووفد من بيئة الدستور العرابى إلى بيئة المتصلين بالانجليز ، فاختلف معنى الوطنية عنده عما كان عند مصطفى كامل . فهو لم يكن لديه الحس المرهف ، والجرح الدامى ، والتقرز المتصل الذى كونه لدى مصطفى كامل بنيتة العلية ، وقرب عهده بالعدوان الانجليزى ، واتصاله المباشر بالغرب . . . الخ

كانت الوطنية عند سعد مجموعة صفات اخلاقية - إن صح هذا التعبير - صقلتها الجبلية الريفية ، والتربية الاسلامية ، والثقة بالنفس ، وهى ثقة عززتها بعد ذلك الانتصارات الشعبية الساحقة ، فهو بلا شك أقوى من استطاع هز ضمير المصريين والشرقيين على وجه العموم فى الصدر الأول من القرن العشرين . (١)

### مصطفى كامل الرابعة

مهما يكن من شئ ، فإن أهمية مصطفى كامل ترجع فى تاريخ مصر الحديث إلى أمرين :

أولهما - أنه أول داعية حقيقى لما يسمى « بالقضية المصرية » . فقد روج لها ترويحاً واسع المدى حتى آمن السكثيرون من المصريين وغير المصريين بها ، ولولا جهود هذا الفتى لما أوشك أن يعلم بقضيتنا أحد ، أو يؤمن بعدالتها أحد .

ومن الانصاف هنا أن نذكر جهود السيد على يوسف فى مؤيده . ولكن هذا الصحفي الخطير كان له طريق فى الترويج لهذه القضية المصرية غير الطريق الذى سلكه مصطفى كامل . كان أولها أدنى إلى الرزانة والهدوء . وكان الثانى أقرب إلى الثورة والتهيج . ولعل القضية الوطنية فى حقيقة الأمر كانت بحاجة إلى جهود من هذا النوع .

ثانيهما - أن مصطفى كامل يعتبر بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر .

فقد رأيت أن هذه الحركة كانت أول أمرها أقوالا تذاع هنا وهناك ، وأفكاراً تنبت في هذا المجتمع أو ذاك . وبقيت الحركة الوطنية في مصر على هذا الوجه ، لا نظام لها ، ولا قائد يقودها ، وليس لها من يخرجها من حيز القول إلى حيز العمل ، حتى جاء مصطفى كامل ، فأنس من نفسه قدرة على قيادتها ، والعناية بها . وما زال بالظروف التي أحاطت بها حتى وقعت الحادثة التي أظهرته ورفعته وأهلهته لقيادة الشعب المصرى كله في ذلك الوقت ، ونعني بها حادثة دنشواى .

بدأ مصطفى كامل كفاحه السياسى داعية للقضية المصرية على النحو الذى سنشير اليه بعد قليل . وكان حريصاً فى أثناء ذلك على مناقشة الساسة الاوروبيين ممن لهم صلة بهذه القضية .

« وهذا كله منح مصطفى كامل حاسة سياسية يفهم بها أن أهم سلاح يشهره فى وجه أعداء بلاده هو الدعاية . وقد فهم مع ذلك أيضاً أن عالمية القضية المصرية ، ودولية أساسها تقتضيه أن يضع لها قالباً دولياً . ولذلك سبق مصطفى كامل العقلية الدولية التى انتهت إلى تقرير أن المعاهدات الثنائية تؤدى إلى انقسام الأمم إلى معسكرات . لأن كل دولتين ترتبطان بمعاهدة إنما تثيران بهذه المعاهدة مخاوف دولة ثالثة ، فتضطر إلى ارتباطها بدولة رابعة ، وهكذا دواليك . كما سبق مصطفى كامل الأمم المتحدة إلى القول بأن كل معاهدة بين قوتين غير متكافئتين هى عقد باطل ، لأنه مشوب باكرهه ضمنى أو صريح . لذلك كانت الرسالة السياسية الأولى التى بدأ بها مصطفى كامل آثاره القلمية بحثاً فى مخاطر الاحتلال البريطانى ، لا على مصر وحدها ، بل على فرنسا وبقية العالم الأوروبى . وقد فتحت هذه الرسالة قلب مدام جوليت آدم . ففهمت فى التو أن مصطفى كامل عنصر جديد من عناصر الحياة الدولية ، وأن فى التفريط فيه تفريطاً فى أمرهم بلادها وينفعها . وعلى هدى هذا الدستور الذى رسمه مصطفى



كامل لنفسه أصبح يوزع وقته بين عواصم أوروبا الخ. (١)  
وهكذا اشتغل مصطفى كامل بمناقشة كبار الساسة الأوروبيين ، حتى  
وصلت القضية المصرية إلى كل سمع ، وفهمها كل عقل ، وآمن بها أكثر  
الناس في الشرق وفي الغرب .

أنظر إلى ما جاء في كتاب لمصطفى كامل نشره بجريدة المؤيد في صيف  
عام سنة ١٨٩٥ حيث قال : —

« إن عقلاء الانجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم . ولا ينقصهم  
غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها حتى يقيموا  
القيامه على حكومتهم ، ويسألوها الجلاء عن وادي النيل . فأجل عمل يأتيه  
المصريون اليوم هو نشر الحقائق في أوروبا باكثر اللغات انتشاراً —  
— خصوصاً اللغتين الانجليزية والفرنسية — حتى يتيسر لنا خدمة الوطن  
العزیز الذي في خدمته خدمة الحق ، وفي نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة  
والسعادة القومية .

ولقد آلى الشاب على نفسه القيام بهذا العمل من أجل مصر ، فبدأ  
كفاحه السياسي برحلة إلى فرنسا في مايو سنة ١٨٩٥ ، وهو يومئذ في  
الحادية والعشرين من عمره فقط ! ولكن صغر سنه لم يقف حجب عثرة  
دون قيامه بالمهمة الكبيرة التي ندب نفسه لها .

لفت الشاب إليه أنظار العالمين الشرقي والغربي فنشرت له جريدة  
( الجورنال ) الفرنسية حديثاً سياسياً عن قضية مصر ، وعلقت صحيفه  
( الاكابر ) الفرنسية على هذا الحديث بقولها : — « لا بد أن سيكون  
لمصطفى كامل المصري دور مهم في المسألة المصرية . لأن أسلوبه السياسي  
قائم على الصراحة والحق . فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على  
المصريين من جراء الاحتلال الانجليزي الذي كلما صرت عليه السنوات

(١) تجي رضوان الحامي . مقال بالاهرام بعنوان : مصطفى كامل كفاح شعبي رفيع  
وسر بتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٥٠

تجسّمت فيه ضروب الاعتداء على حقوق الناس»  
ثم لم يكتف الشاب بذلك ، بل وضع في باريس أولى رسائله السياسية  
التي كان لها صدى بعيد في أذهان كبار الساسة في الدول الأوروبية ،  
وهي الرسالة التي عنوانها ( في أخطار الاحتلال البريطاني ) وفيها أوضح  
الكاتب للعالم الأوروبي كيف أن الاحتلال البريطاني خطر لا على مصر  
وحدها ، بل على الدول الأوروبية نفسها . وبهذه الطريقة استمال إليه  
عقول القراء في أوروبا . وشرح لهم بعد ذلك ما سماه بالمسألة المصرية ،  
وسرد لهم تاريخها ، وأوضح لهم وقائعها ، وكشف لهم القناع عن خبث  
السياسة الانجليزية ونواياها في الشرق العربي ، وقدم الرسالة إلى مدام  
جوليت آدم فقرأها ، وأظهرت إعجابها بما جاء فيها ، وعلقت عليها بكلمة  
ثناء في جريدة ( البتي مرسيليه ) الفرنسية وذلك في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٩٥  
وتحدثت هذه السيدة عن مصطفى كامل بعد رؤيتها إياه فقالت :

«... ومن عهد تلك المقابلة أخذت أؤدي له وظيفة الأم ، فعرفته  
بجميع الرجال الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الأم  
جميع منازل أبنائي المتقدمين عليه مثل : بيير لوني ، والسكولونيل مارشان ،  
وأرنست جوديه . وصنعت له كذلك علاقات نفيسة بالصحافة الفرنسية ،  
تلك العلاقات التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في دعواه  
الشريفة . وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في  
جميع البلدان الأخرى . حتى في إنجلترا نفسه !!

وفكر الفتي وهو في باريس في جهد يبذله للقضية المصرية من نوع  
جديد . فكتب خطاباً إلى ( غلادستون ) شيخ الأحرار الإنجليز يذكره  
فيه بالوعود التي قطعها إنجلترا على نفسها بالجلاء العاجل عن مصر .

ورد عليه غلادسون بقوله :

سيدى العزيز :

إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم



مصرياً ، ولكنى مجرد بالمرّة من كل سلطة .

أما أرائى فإنها لم تتغير قط . وهى أنه يجب علينا دائماً أن نترك مصر بعد أن تتم فيها بكل شرف ، ولفائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها .

وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنتين . ولما كنت فى منصبى أخيراً ، رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توسلاً إلى تسوية هذه المسألة المهمة . . . . . وقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق عندى شىء أضيفه إليها . وقد كنت مستعداً لعمل كل ما هو حسن فى سبيل إعطاء آرائى تأثيرها . إلا أننى تركت المنصب كلية . ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق ( غلادستون - إمضاء )

رويدك أيها الفتى المصرى الغيور . إن الانجليز قوم لا تتغير سياستهم على مدى الأزمان والدهور ! سأل عضو فى مجلس العموم المستر تشرشل عن وعود الحرية التى بذلها للأمم الصغيرة فى أثناء الحرب ماذا ينوى أن يفعل بها ، وقد تم للحلفاء النصر على أعدائهم ، فأجابه السياسى المعجوز فى غير حياء ولا خجل : إن المثل العليا شىء . ولكن تحقيقها شىء آخر ، ونحن نستطيع أن نبذل الوعود كما نشاء ولكننا لا نستطيع فيما بعد أن نقي بها . »

وأخيراً وبعد أن رحل مصطفى كامل فى هذه المدة إلى النمسا وأقام بفينا ، والتقى بكبار الصحفيين والسياسيين عاد الفتى إلى مصر فى يناير سنة ١٨٩٦ ولقيه جمع غفير من مواطنيه بالاسكندرية ، فخطب فيهم أول خطبة له فى السياسة وذلك فى الثالث من شهر مارس سنة ١٨٩٦ .

فقدم له أهل الثغر هدية ثمينة ، هى وسام من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السيف المصرى ومسلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

» برهان الاخلاص من أهالى الاسكندرية للوطنى الفيور  
مصطفى كامل « .

\* \* \*

على هذا النحو سار مصطفى كامل فى جهاده فلا يكاد يستقر به  
المقام فى مصر حتى يعود سريعاً إلى أوروبا حيث يقوم بالترويج لقضية  
الوطن بكل الوسائل .

على أن الفتى لا يعود إلى وطنه ليستريح من عناء العمل المتواصل الذى  
قام به فى ربوع أوروبا ، ولكن ليستأنف هذا العمل نفسه من جديد .  
فلا راحة ، ولا هدوء ، ولا استجمام ، ولا استقرار ، ولا فترة من الزمن  
تمر به بين عمل وعمل .

ففى مصر كان هذا الشاب الذى لا يعترف بأز فى معجم اللغة كلمة  
( يأتى ) أو كلمة ( تعب ) حريصاً على دعوة كبار الساسة فى أوروبا  
ليزوروا مصر ، ويشهدوا بأعينهم ما وقع عليها من ظلم ، ويلمسوا بأنفسهم  
ما يحسه جميع المصريين نحو الانجليز من البغض ، ومن هؤلاء الذين قبلوا  
دعوته بومئذ نائب فرنسى كبير اشتهر بدفاعه عن القضية المصرية وتخيذه لها .  
واسم هذا النائب ( مسيو دولنكل ) . وقد حضر بالفعل إلى مصر فى  
٢١ مارس سنة ١٨٩٥ ، واحتفى به مصطفى كامل وكثير من المصريين  
احتفاءً كبيراً ، وأقاموا له الولائم والحفلات طيلة عشرين يوماً ، هى المدة  
التي أقامها النائب الفرنسى فى مصر .

وفى وقت قصير ذاع اسم هذا الفتى المصرى فى العالم الشرقى ، وفى  
العالمين الأوروبى والأمريكى حتى أخذ يخطب وده الأحرار فى جميع هذه  
البلاد ، وطفقوا يدعونه لزيارة بلادهم وكان من هؤلاء على سبيل المثال  
النائب الايطالى المشهور ( كاتى فورشلا ) وقد كتب إلى مصطفى كامل فى  
٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦ معجباً ببطولته وداعياً إياه لزيارة إيطاليا .



## مصطفى كامل واعترافه بمصريته:

العجيب في أمر هذا الفنى المصرى أنه كان من أدوات كفاحه كلمة (مصرى). وقد أخذ يعتز بمصريته هذه اعتزازاً شحناً به الفيز في قلوب الانجليز، وأصبح شوكة في جنوبهم، وشجى في حلقهم، وظلاماً في أعينهم، ووقراً في مسامعهم، حتى لقد راح رجال الاستعمار يدعون بأن مصطفى كامل ليس من صميم المصريين، وكتب بعضهم إلى (شيونفرت) الرحالة الألمانى المشهور يقول «إن الذين يطالبون بحقوق مصر، وفي مقدمتهم مصطفى كامل — ليسوا من صميم المصريين» وما كاد يتصل هذا النبأ بمسامع مصطفى حتى بادى من فوره بالرد على هذا الصحنى بقوله: (١)

فينا في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

ياجناب المدير

«إسمح لى أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشتموه في عدد ٧ سبتمبر الجارى في شأن الوطنية المصرية.

يدعى مسيو (شيونفرت) أن المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبى — وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة. وقد تكرم حضرته بأن عدنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيذة الأصل عنها. أى ممن لا يجرى في عروقهم الدم المصرى الحقيقى. وهى دعوى باطلة كل البطالات لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية، العاملين ضد الاحتلال الانجليزى، الساعين في تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين، وأغلبهم من أبناء الفلاحين. أما أنا فأخبر وأتشرف بأننى ابن ضابط منهم آباؤه فلاحون مصريون. فيظهر إذن جلياً أننا

لسنا من تلك الفئة البعيدة الأصل عن الفلاحين لأنهم إما إخواننا وإما أبائنا .

أما اكتتابنا للجيش العثماني فما هو إلا ثمرة وطنية يالعة صادقة . نعم هو ثمرة الوطنية الحققة . لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترى بدسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر . وإننا بسرورنا وباحتفالاتنا بالانتصارات التركية . نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية — أى بأجل وأبهى شيء يتمناه كل مصري وطني على الدوام . الخ

وقد علقنا الجريدة على كتاب مصطفى كامل هذا بقولها « إن على الكتاب طابع الحق والاخلاص ونحن لا نشك في أن المسيو ( شيونفرت ) قد اقتنع بما فيه . ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا كل معلق بأذهانهم من كتابه . فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار ، وهو أدرى بما فيها ، وعلى الأخص ما يخصه منها »

وبعد ، فنحن لانستطيع السير مع مصطفى كامل في كل رحلة من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا ، كما لانستطيع أن نكون معه في كل مقابلة من مقابلاته العديدة لساستها ، وأحاديثه الخطيرة وخطبه الهامة في محافلها ومجامعها . فقد ظل يقوم بكل هذه الأعمال الجسام منذ أعلن الجهاد الوطني العام سنة ١٨٩٥ إلى أن توفاه الله برحمته سنة ١٩٠٨ .

وهناك من الباحثين من تتبعوا نشاط هذا الزعيم سنة بعد سنة ، بل شهراً بشهر ومن هؤلاء شقيقه على فهمي ، ومنهم الأستاذ عبد الرحمن الرافعي . فليرجع اليها من أراد .

أما نحن فليس من وكدنا في هذا البحث أن نصنع صنيعهما ونهجم نهجها ، لأن لنا غرضاً غير الغرض الذي هدفاً إليه . وهذا الغرض هو الكلام عن جانب واحد من جوانب ذلك الفتى الفرد ، وهو الجانب الصحفي البحث .



## الكتاب الثالث

### مصطفى كامل والصحافة

#### وفيه سبعة فصول

« إذا كانت الصحافة في كل بلاد العالم شديدة التأثير، عظيمة الفائدة، فلها يجب أن تكون في مصر أشد تأثيراً وأكبر نفعا. لأن الأمم الحية غنية عن إرشاد الصحف في كثير من الشؤون. . . . أما في مصر وبقية بلاد الشرق فوظيفتها أن تكون المهدبة المؤدبة، المنشطة المشجعة، القائمة مقام المجالس النيابية حتى تترقى الأمة وتنال كل حقوقها »

مصطفى كامل

## الفصل الاول

### قبل اللـواء

كان مصطفى كامل صحفيا بطبعه . يدلنا على ذلك أنه كان أول طالب في مدرسة الحقوق ، فكر في إصدار مجلة شهرية وجعل شعارها قول الحكيم الذي يقول « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .

وقد أصدر الطالب الشاب أول عدد من أعداد مجلته يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ ) وقال إنها مجلة أدبية تهذيبية وطنية علمية . وكان يتولى تحريرها كلها بنفسه أول الأمر . ثم تطوع كثير من الكتاب للتحرير معه فيها بعد ذلك ، وكان يطبعها في مطبعة المحروسة . « وهناك تعرف بالكاتب الشهير السيد عبد الله النديم الذي كان يطبع مجلته الشهيرة ( الاستاذ ) كذلك » . (١)

وبلغ عدد المشتركين في هذه المجلة مائتين وأربعين مشتركا في أقل من ثمانية أشهر . واشتركت فيها نظارة المعارف بخمسين نسخة . وكانت تصدر عشرة أشهر في السنة ، وتحتجب شهرين فقط . وكانت الموضوعات التي تنشر في هذه المجلة بين وطنية وعلمية واجتماعية . وذلك فضلا عن الأناشيد الحماسية والملاح والمحاورات الأدبية والفكاهية ونحو ذلك . ولم يتجاوز ما صدر من أعداد هذه المجلة تسعة أعداد . جاء في أول عدد منها قوله :

« ... وبعد فلما كانت عموم الجرائد على اختلاف مشاربها وتنوع

(١) مصطفى كامل في ٣٤ ريماء - علي فهمي - الجزء الأول ص ١٨٤



مذاهبها لا تفيد إلا الآباء دون الأبناء في تثقيف عقولهم وتنمية أفكارهم أمر من أهم الأمور الشريفة ، وغاية نواها من أكبر المزايا المنيفة لأنهم عماد دولة مستقبل الزمان ، ومتى صلح المبدأ صلحت الغاية في كل آن . ( من يزرع الشوك لا يحجى به عنباً ) رأيت أن أهدي أبناء جلدتي وصغار بلدتي جريدة على الأخص تهذيبية ، لما في ذلك من النفع والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد الخ

ولسنا نعترض هنا على عبارة الطالب الشاب إلا من وجهين :

أولهما — كثرة الجمل الاعترافية التي وقعت بين قوله ( فلما كانت عموم الجرائد ) إلى قوله ( رأيت أن أهدي أبناء جلدتي الخ )

وثانيهما — قلق هذه الجملة في موضعها من العبارة كلها ونفى بها قوله — ( أمر من أهم الأمور الشريفة ومن أكبر المزايا المنيفة ) . وأخشى أن يسكون ذلك بسبب خطأ مطبعي .

أما القصد من الصحيفة فما أنبله ، وأما الغاية منها فما أشرفها ، وأما ما تدل عليه من نجابة الفتي وحسن تقديره لما يهم وطنه وقومه فشىء يستحق الإعجاب والتقدير .

ولنستعرض مع القارئ طائفة من العنوانات التي اتخذها الفتي لمقالاته في مجلة المدرسة . ومنها نستطيع أن نعرف صورة عن الجو الذي كان يسبح فيه هذا القلم الغض ، والعقل الذي لم ينضج بعد . ومع ذلك راضه الفتي على كل ذلك الجهد . ومن هذه العنوانات على سبيل المثال : لماذا أنشئت المدرسة ؟ — شرف الأستاذ ومجد التلميذ — فيما يجب أن تتبع في مطالعة الدروس — محاور بين الأستاذ والتلميذ . (١) — مكارم الأخلاق الخ واشتملت مجلة المدرسة كذلك على إعلانات عن بعض كتب للشباب

---

(١) كان من موضوعات هذه المحاور ( هل للمرأة أن تعمل في مصالح الحكومة ؟ ) وقد مال الشاب مصطفى كامل بالطبع إلى عدم جواز ذلك .

مصطفى كامل كان يعززم تأليفها . ومنها كتاب ( الجواهر السنية في نظام الهيئة الاجتماعية ) . وقد بدأ المحرر الشاب بمد قراءه بخلاصة لبعض فصوله . وكان مصطفى كامل يشجع التلاميذ للاشتراك في تحرير المجلة ، ويغريهم بالجوائز . ومن ذلك أنه قال مرة تحت عنوان ( محاوره بين الأستاذ والتلميذ »

من يضع لنا من تلاميذ المدارس الابتدائية المشتركين في جريدتنا هذه المحاوره في قالب مقالة تقع لدينا موقع الاستحسان - نرسل اليه مكافأة نفيسة جداً . وإذا تعددت الرسائل على شرط ألا تتأخر عن الثامن عشر من هذا الشهر يخصص ثلاث مكافآت لثلاثة من أوائل المجيدين . ثم أتى المحرر على هذه المحاوره التي طلب إلى تلاميذ المدارس تحويلها إلى مقال يصلح لنشره بالمجلة .

وتشتمل المجلة أيضاً على طائفة من الطرائف العلمية والنوادر الأدبية والملح الفكاهية . مثل قوله تحت عنوان :

( أغرب الجرائد ) : يوجد بأمريكا بعض جرائد تطبع على قماش بحيث أنها تصلح بعد القراءة لأن تكون منديلاً ، ونوع آخر تعهدت إدارته أن ترسل الطبيب والدواء لمن يمرض من مشتركها ، كما أنها تدفع مصاريف دفنه إن مات الخ . ومثل قوله تحت عنوان ( أبسط وسيلة لقطع الثلج ) هي أن يوضع سن إبره على النقطة المراد قطع الثلج فيها . ثم يضرب بيد مديّة على رأس الأبرة . ومثل قوله ( زهر مثلث الألوان ) لونه في الصباح أبيض ، في الظهر أحمر ، وفي المساء أزرق . ولا تشم له رائحة إلا وقت الظهر عندما يكون أحمر . ومثل هذه الطرائف والملح كثير .

وكانت المجلة تحتوى كذلك على قدر لا بأس به من الأسئلة التي يطلب إلى القراء الاجابة عنها في عدد ، ثم يمدهم المحرر بهذه الاجابة في العدد الذي يليه .



ويظفر القارىء لهذه المجلة أحيانا ببعض مقالات تنبئ عما يدخره المستقبل من ألوان الجهاد الذى فرضه هذا الشاب على نفسه منذ نشأته . ولعل من أهم هذه المقالات واحدة له بعنوان ( الصناعة والصناع ) . وأخرى بعنوان : ( نور الاسلام فى الآفاق ) : ( ١ ) وقد جاء فى هذه الأخيرة قوله :

« قد يخطئ أعداء هذا الدين الخطأ الجرم عند ما يقولون إنه إذا كانت مبادئه حقيقة فلم لم ترتفع للمسلمين فى هذه الأيام كلمة ؟ ولم سبقهم الأفرنج إلى التقدم ؟ ويضيفون على ذلك أن العرب لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بقوتهم وشجاعتهم لا بنور دينهم وعظم علومهم الخ » أما الأناشيد الوطنية فقد دعا إلى نظمها من شاء من الأدباء ، وقال إنه يستطيع بعد بضعة أشهر أن يجمعها فى كتاب يكون قاعدة أساسية لتهديب الأبناء . ونظم الشاب مصطفى كامل نفسه نشيداً منها ، وهو قوله :

هلموا يا بنى الأوطان طرا . . . لنرجع مجدنا ونعز مصر  
هلموا كونوا فى القطر حقا . . . نسيناه فضاء بذاك قدرا  
فعار أن نعيش بغير مجد . . . ونبصر فى السما شمسا وبدرا  
فسيروا نحو هذا القصد حتى . . . تنادوا أجمعين بعز مصر  
ومن هذه الأناشيد :

أهل المودة والسنن . . . هيا لى نعلی الوطن  
ونعيد مجداً قد دفن . . . ونفوز بالنصر المبين  
أنتم بنوه فالكم . . . لا ترفعوا ( ٢ ) ما قد هدم  
وعزير مصر إمامكم . . . عباسنا الحصن الحصين

( ١ ) العدد السادس من مجلة المدرسة - أنظر كتاب على فهمي المتقدم الذكر ج ١ ص ٢٧٢

( ٢ ) كذا فى النشيد وصحتها ترفعون وبالأخير يخلل الوزن

وهي أناشيد حاول فيها الفتى أن يعبر عن آماله الوطنية ، وقدر من المعاني الحماسية . فعجز قلمه الغض عن تحقيق ذلك القدر .

مصطفى كامل في جريدة الأهرام

سنحت للفتى الصحفي فرصة أخرى يروض فيها قلمه على المهمة الخطيرة التي تنتظره .

وفي هذه الفرصة الثانية استطاع الفتى أن يتصل بجريدة الأهرام ، فأفسحت له صدرها وخصصت له غرفة من غرف دارها ، فكتب الفتى بين عامي ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ أكثر من عشرين مقالة .

ولا بد لنا من التعرض لهذه المقالات أولاً من حيث الموضوع ، وثانياً من حيث الأسلوب .

كانت أولى مقالاته بجريدة الأهرام في العدد رقم ( ٤٥٤٥ ) وذلك يوم السبت ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ وعنوانها ( نصيحة وطني ) . وكانت الثانية بجريدة الأهرام بالعدد رقم ( ٤٥٥٠ ) تحت عنوان ( الحق يعلو ولا يعلى عليه ) .

والثالثة بعدد الأهرام الصادر يوم الجمعة ٢٤ فبراير تحت عنوان :

### المربية وتعميم التعليم

أشار الكاتب في هذا المقال الأخير إلى الدور الذي لعبه الشرق منذ القدم في ميدان العلم حتى جاء الاسلام فأعان على نشره بين جميع الطبقات . ثم طرأ على هذا الشرق ما طرأ عليه من عوارض المرض ومن أهمها قصر العلم على طائفة قليلة من طوائف الشعب . ونام الشرق برهة نهض في أثناءها الغرب ، فبنى مدنيته على أسس ، منها انتشار العلم ، ومنها حرية الصحف . فأصبحت الجرائد لدى الشعوب المتقدمة من أهم ما تدعو إليه الحاجة وقدور عليه رحي السياسة .



ثم اتجه المحرر في مقاله هذا إلى السلطان عبد الحميد فقال « وإنا ليسرنا معاشر العثمانيين ما نراه من جلالة مولانا أمير المؤمنين الذي أحيا في قلوب الأمة الضعيفة الأمل، وأعاد للشرقيين أيام الخلفاء الأول، من الاهتمام بهذين الأمرين العظيمين، وأخصهما تعميم التعليم وتوجيه العناية الفائقة بإنشاء المدارس »

وفي الثامن من شهر مارس سنة ١٨٩٣ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال عنوانه : -

### الاعمال بمقاصدها

بدأه بقوله : لست والله ممن يقول كلمة يريد بها جزاء من زيد أو تقربا من عمرو . بل هو الحق يضيق به الصدر فيعلنه اللسان . وهو ولئن سر قوما فانه يسيء آخرين . لكن لا سكوت مع الحجة ، ولا عى مع البرهان . فانتا معاشر المصريين قد مضى علينا سنون عشر لم نسمع فيها سوى كلمة « الصبر » ولم نستفد من المحتلين إلا المن علينا « بالاصلاح » . وهو وإن حصل في بعض الشؤون فلما ضرره لا يوازي ما يستفيد منه المصلحون الخ »

ثم ضرب الكاتب المثل هنا بالاصلاح الذى زعم المحتلون أنهم قاموا به فى ناحيتين وهما : ( ناحية البوليس ) . . . فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدلهم بضباط من الانكليز يجهلون أحوال البلاد وعوائد الأهليين . . . (١)

وتدرجوا من ذلك إلى جعله ( أى البوليس ) إدارة مستقلة خارجة عن سلطة المديرين وضمها لادارة الربط والضبط التى أصبحت فى أيديهم

(١) فى هذه العبارة خطأ من ناحية الأسلوب تصحيحه كما يلى : فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدلوا بهم ضباطا من الانكليز الخ . ذلك أن الباء للترك كما يقول النحويون ( المؤلف )

آلة صماء تديرها يد الأغراض كيف تشاء . ( والثانية الجندية ) فقد  
اشتروطوا إدخال بعض الضباط الانكليز فيها . . . إلا أنهم تعدوا قاعدة  
الانصاف في هذا الأمر ، حيث رأوا أنه مع وجود احتلالهم العسكري  
لا لزوم لوجود عسكري مصرى يقوده ضباط وطنيون صادقون . . فجعلوا  
يولون على قيادة الفرق من أبناء جلدتهم الضباط الكبار لتكون  
الجندية طوع أمهرم . . .

ثم لم يكفهم ذلك حتى اشرأبوا إلى ( الحرية ) فأتاحت لهم الظروف  
أن تولوا أمرها وجعلوها انكليزية محضة . ثم ناطوا القيادة العامة  
( السردارية ) ومعاونيها برجال منهم . .

ثم أنحى الكاتب باللائمة على الاحتلال في مصر في تلك المهزلة التي  
مثلها على مسرح السودان ، فساخه عن مصر بطريقة خفية . وقال : إن  
فعلته هذه كبيرة لا تغتفر في جانب الانسانية ، وجريرة لا أظهر عيباً من  
صدورها من أمة الحرية . فإن السودان لم يلتحم بهذا القطر إلا بدماء  
رجال ، ولم يخضع للراية العثمانية إلا بهمة أبطاله وبذل أمواله !

ثم حاول الكاتب الشاب في هذا المقال أن يحارب اليأس الذي زرعه  
المحتلون في قلوب المصريين وأن يتخذ من الثقة المتبادلة بينهم ومن أميرهم  
العباس سلاحاً من أسلحة هذه الحرب .

وهكذا فضح الكاتب رجال الاحتلال وكشف عن مبلغ كذبهم في  
دعواهم أن مهمتهم الأولى في مصر هي إعداد المصريين للحكم الذاتي .  
وفي الرابع من ابريل سنة ١٨٩٣ نشرت الأهرام لهذا الشاب مقالا  
بعنوان :

#### الجماعة :

دعا فيه إلى الاتحاد والألفة بين عناصر الامة . وقال بعد مقدمة طويلة :



من نظر في تاريخ البشر لا يجد أمة عظيمة قامت على الأرض ثم تلتحق إليها الضعف والاضمحلال إلا بعلّة تفريق أجزائها الملتئمة، وانفصال أعضائها الملتحمة... وأن الأمة التي لا تتماسك أجزاؤها ولا تتلاحم أعضاؤها لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا. وما بقاء عقد تناثرت حباته ؟ إلى آخر ما قال .

ثم في العشرين من شهر ابريل سنة ١٨٩٣ نشرت له الأهرام مقالا بعنوان :

### المعلمون والتعليم في مصر

كان الدافع له على كتابته فيما يذكر لنا شقيقه على فهمي (١) أنه كان كثيراً ما يقول :

إن أكبر أمانى أن تكون لى مدرسة أعلم فيها الناشئين لأن المجلة لا تكفى وحدها لتهديهم .

ودعا في هذا المقال إلى زيادة العناية بأمر إعداد المعلم ، ولو دعا ذلك إلى زيادة مدرسة أو مدرستين على مدرستى المعلمين الحاليين ، وهما دار العلوم ، ومدرسة المعلمين التوفيقية . كما دعا الحكومة إلى زيادة رواتب المعلمين الوطنيين بالنسبة لرواتب المعلمين الانكليز . وإلا تسرب اليأس إلى نفوسهم وضنوا على التعليم بجهودهم . وتوجه السكاتب بنداؤه إلى (العباس) أن يحقق للامة هذا الرجا ، ويسدى إليها هذه المنه .

ثم احتاج السكاتب الشاب إلى السفر إلى أوروبا للدعوة بين ربوعها للقضية المصرية . وإنه لعلى ظهر الباخرة التي تغادر به أرض الوطن وإذ بقلب هذا الفتى يزدهم بشقى المشاعر الوطنية . وإذا بطائف من الحنين إلى مصر يمس هذا القلب الكبير ، ولكن كما تمس النار جسما من الحديد ،

فترفع من درجة حرارته بحيث لا تستطيع أن تلمسه حتى بأطراف اليد .  
وهنا بث الكاتب الشاب أشواقه ولوعته جريدة الأهرام التي نشرت  
له بعددها الصادر في ١٤ يولييه سنة ١٨٩٤ مقالة تحت عنوان

## -- البحر --

وهي مقالة أدبية أكثر منها سياسية . بدأها الكاتب بتسعة أبيات  
شعرية وهي :

أودع أوطاناً يسوء وداعها \* وأترك أمصاراً يسر لقاءها  
وأركب بحراً بره موطن الندى \* وأمته عم البلاد سخاؤها  
يذكرني منه الصفاء مرثعاً \* بها نفس ذى الآمال تم صفاؤها  
ألا أيها البحر العظيم بنا اتعد \* فصر تجلى للعيون بهاؤها  
تمهل فصر موطن العز والندى \* ومصر أبا النعماء جم هناؤها  
بلادى حماك الله من كل غادر \* وأبقاك للدينا فأت سنائها  
أغادر منك الثغر والقلب شيق \* وعيني يجارى هائل الغيث ماؤها  
فرقاً بمن في البر والبحر خلص \* يرى مصرى شمساً لا يحاكي ضياؤها  
عليك سلامي ياديار تحية \* تدوم وأشواقى إليك انتهاؤها  
ثم قال :

لا بدع إذا كانت الاسكندرية بجميل منظرها وجليل مظهرها تستوقف  
الأبصار عند مغادرتها ، وتخطف الأبصار ساعة الخروج من بوغازها . لاسيما  
أنظارنا أبناء النيل حيث تسلب عقولنا ، وتخلب مداركنا عند مشاهدة  
ديارنا الزاهية ، وربوعنا الباهية تغيب عن أعيننا شيئاً فشيئاً حتى تختفي  
تحت حجاب من الماء سميك ، وينعدم وجودها من بين الصور العينية  
بعد أن كانت واقعة تحت المرأى لا يحجبها عن العيون حجاب . لعمري إن  
اختفاءها مما يدعو لسكب الدمع وضياح الرشد . وباختفائها تختفي عنا



أوطان يعز علينا فراقها . فيها نشأنا وفيها ظهرنا وبخيرها تمتعنا واليها  
ترجع آمالنا . . .

ثم طفق يصف البحر وجلاله ، والباخرة وركابها ( ويسمى الجزيرة  
المتحركة ) والموج وهياجه ، والريح واضطرابها ، والجو وتقلبه . كما وصف  
الدوار الذى أصاب الركاب ، والجزر التى مرها بها كجزيرة كريد ،  
والمضايق التى مر بها كذلك كمضيق مسينا . ثم يتحدث عن عظمة البحر  
لأبيض المتوسط وعن أهميته فيقول : وإذا كان شاعر فرنسا الشهير  
لامارتين ، يسمى البحار مقلة الطبيعة لأنها من وجهها كالعين من وجهه  
الانسان ، فلا شك أن البحر الأبيض المتوسط أحق من سواه بأن  
يسكون سواد هذه المقلة العظمى ، لأنه أعظم البحار أهمية وأكبرها  
فائدة ونفعاً لما له من الأيادى البيضاء على بنى الانسان : فهو رائد  
التجارة ، وقائد الأمم لطريق الحضارة ، وأصل شجرة التمذن التى يتكرم  
باهداء ثمرتها النضرة للبلدان التى يختارها حسبما يرى عند أفراد الأمم من  
نشاط وغيره . اذكر ذلك وآسف شديد الأسف من أن هذا البحر  
الغزير الخيرات صاحب القوة والملك الكبير غضب على وطننا العزيز غضباً  
طويلاً ، فلم يعترف لأبنائه بفضل ، ولم يشهد لهم بكلال حتى يهبنا الحرية  
الحقيقية ، والمدنية الصادقة ، ويعيد لنا ما مات فى سالف الأوقات من  
المجد الكبير والمقام الخطير . ولعلنا ننظر لهذا الداء بعين الاعتبار فنداويه  
باتحادنا . ولاشك أن الاتحاد مصدر القوة وعنوان الاستقلال الخ .  
ثم فى العدين الصادرين فى ٢٠ ، ٢١ يولية سنة ١٨٩٤ نشرت له  
الأهرام مقالا بعنوان :

#### معرض ليون

وصف فيه هذا المعرض الفرنسى الذى عرضت فيه فرنسا أحسن  
نتاجها ونتاج مستعمراتها . ثم عقب الكاتب على ذلك بقوله :

« ويحق لأبناء فرنسا عند زيارة هذا المعرض الاستعماري أن يظهروا  
فخارهم بأوطانهم . ولا غرو إن ازدادت محبتهم لبلادهم برؤية أملاكهم  
ومستعمراتهم . فهم يرون فيه حقيقة قوتهم ، وكبير فتوحاتهم وعظيم  
انتصاراتهم . كما أنه يحق للشرق عند رؤية هذا المعرض أن يبكي بلاده  
وأوطانه ، ويندب قومه وعشيرته ، ويأسف على بلاد ضاعت من يد  
أبنائها بالحق والحسد ، وذهبت غنيمة الغريب بسبب الفشل وحب الذات  
المستحكم بين أهلها ، القائم بقيام الليل والنهار بين أفرادها . أقول ذلك  
ولا أنسركر على القارئ الكريم أسنى وحزنى عند رؤية هذا المعرض  
الاستعماري وإن كنت رأيت منه معرضاً جميلاً جليلاً حقيقة بالرؤية والزيارة .  
وكما أن أبناء فرنسا يفرحون برؤيته ، وأبناء الشرق يحزنون لرؤيته  
فلا عجب إذا اشتركت الفلاسفة مع أبناء الشرق في حزنهم وأسفهم . فهم  
يرون دائماً في الفتوح جريمة لا تغتفر وفي الاستعمار إنما يبقى ما بقيت  
الساعات والأيام .

وفي يوم ٣١ يولية ، ٣ أغسطس سنة ١٨٩٤ نشرت له الأهرام  
رسالة عنوانها

### بالجيب وعاصمتها

وصف فيها هذه البلاد وأشار إلى قصة كفاحها الذي ظفرت في  
نهايته بالاستقلال عن هولانده منذ سنة ١٨٣٠

« ومن يوم أن تم لها هذا الظفر العظيم ابتدأ البلجيكيون في تنظيم  
بلادهم كما تهوى نفوسهم . وقد تم لهم ذلك حتى أصبحت كل مدينة من  
مدائنهم قرة النواظر ومسرة الخواطر . وأخصها بالذكر مدينة بروكسل الخ .  
أجل — استهوى جمال هذه المدينة قلب الشاب مصطفى كامل . ولكن  
ذلك لم ينسه قط جمال وطنه مصر . ثم قال :

وقد علمت بعد الخبرة أن رقى القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين



لكل أمة تريد أن تهض بنفسها إلى سلم الرقى . وهما : حب الاطلاع ، والاعتماد على النفس . (١)

وتابع الكاتب الشاب كتاباته في وصف معارض أوروبا . ومنها معرض (أنفرس) والكاتب يتخذ من كل ذلك العبر ، ولا يفتأ يذكر مصر فيرجو لها الخير ، ويبصرها بما عليه القوم في أوروبا من تقدم علمي وصناعي ويهيب بأمتة أن تبلغ بأبنائها هذا القدر من الرقى .  
الحق لقد تعلم مصطفى كامل من رحلاته إلى أوروبا أموراً كثيرة ، وأفاد فوائد جمة . وكان قلبه يزدحم في كل مرة بأفكار شتى وآمال عراض وغيره شديدة على مصر بل على الشرق كله . وقد كان لايمثلة في جميع المعارض العالمية إلا قهوات الرقص . كأن الشرق — فيما يقول الكاتب — لم يشتهر في نظر الأوروبيين إلا بذلك .

وبقى الكاتب يمد جريدة الأهرام بمثل هذه الرسائل .  
ثم أمد الكاتب جريدة الأهرام بمقال تاريخي عنوانه ( ووترلو والمذبح البشرية ) أشاد فيه بذكر نابليون العظيم ، وذلك بمناسبة زيارته لتلك القرية التي منى فيها البطل الفرنسي بالهزيمة الأخيرة .  
وفي باريس أدرك الكاتب عيد جلوس السلطان عبد الحميد فقام على تنظيم احتفال كبير بهذا العيد ، كان أول احتفال من نوعه أقيم في مدينة النور ، وبعث إلى جريدة الأهرام برسالة يصف فيها هذا الاحتفال العظيم ، فنشرت الأهرام له هذه الرسالة في الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان .

#### الاحتفال بعصر جبروت السلطان

وهي حفلة اشترك في إقامتها جميع المصريين بباريس وحضرها المسيو (دولونكل) النائب الفرنسي الشهير ، والمسيو (ميلفو) أحد النواب السابقين ،

(١) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعاً - على فهمي - جزء ٢ ص ٩٨

واستمع الحضور إلى خطابة الخطباء وهم يثمنون على السلطان عبد الحميد، ويشيدون بالعلاقة الطيبة بين مصر والدولة العلية. وجاء دور مصطفى كامل فقدمه أحد الصحفيين الفرنسيين على أنه مصطفى كامل المصري صاحب (جريدة المدرسة) فقام وألقى خطاباً باللغة العربية هتف في غضونه بحياة السلطان برهة طويلة قام وألقى خطاباً باللغة العربية هتف في غضونه بحياة السلطان وحياة العباس وحياة مصر. ثم لم يكفه ذلك حتى صاغ هذا الهتاف شعراً لا حاجة بنا إلى ذكره.

ثم بعث الكاتب الشاب بطائفة من المقالات إلى جريدة الأهرام فنشرت أولها في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان  
**هناهم مجاهرون بعكس ما يضمرون**

انتقد فيها سياسة الاحتلال الإنجليزي وذكر أن الانجليز دخلوا مصر قائلين :

« إنا دعاة الصدق، نصراء الشرف . دخلنا مصر لتأييد سلطة أبنائها وإصلاح شؤونها، وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاضطراب . ثم أثبتوا في تاريخ احتلالهم أكبر إثبات أنهم عاملون على تقويض السلطة الخديوية وتقليل نفوذها وخراب البلاد وإفقار العباد . . . كأن الدولة العباسية ( يريد مصر ) مقاطعة من مقاطعات اسكتلندا أو أيرلندا . هذا أميرنا — أبو أميرنا ( يريد توفيق ) عليه من الرحمن الرحمة والرضوان ظن بكم خيراً، وسالمكم في أكثر الأمور فقابلتم بعد موته ثقته بكم ومسالمته لكم بقولكم عنه :

« إن اللورد كرومر تنازل له عن الامضاء على الأوامر العلية فكان يضع إمضاءه بدل امضاء حضرة اللورد ! . . . »

بل قولوا لنا بحق مجدكم يا أدعياء الحربة وزعماء المدينة هل أعدتم الوطن العزيز إلى ما كان عليه قبل الثورة بسلخ السودان عنه وتركه غنيمة باردة



لكم ولصنائعكم من بعدكم . فلا تركتمونا نسترجعه ولا صنتم حياءكم ، بل كنتم أول الظالمين فيه المقتدرين عليه .

ماذا كان منكم بعد أن أجبتم إلى طلبكم بسلخ السودان ؟  
كان منكم أن كنتم أول المنتهكين لحرمته باستيلائكم على أوغندا ثم احتلال وادلاي ، وأخيراً بالهدية الثمينة التي قدمتموها في الصيف الماضي إلى صديقتكم إيطاليا ( يعني بها كسلا ) .

وهكذا مضى الكاتب في لهجته العنيفة التي نازل بها الاحتلال

حتى قال :

لنسلم لكم أنكم أصلحتهم الشؤون ، وأيدتم السلطة الخديوية فما لكم لا تخرجون ؟

أظنكم تحيروننا على ذلك بأنكم إلى الآن لم تتموا ما تكلفتم به . . .  
إذا كان قولكم حقاً فلتضربوا لنا ميعاداً للانجلاء . . . وبذلك تبرهنون للعالم أجمع أنكم حريصون أكمل الحرص على مجدهم وشرفكم . وإلا فيؤخذ عليكم أن تكونوا أبناء التاميز دعاة الصدق ونصراء الشرف وتجاهرون بضد ما تضمرون .

لم نر مصطفى كامل احتاج في كتابته إلى الآن قدر ما احتاج في كتابة هذا المقال . وما ذلك بطبيعة الحال إلا لأنه يمس موضوعاً حساساً هو موضوع الاحتلال . وأي أمر في العالم كان يستطيع أن يحرك هذا الشاب قدر ما يحركه هذا الأمر ؟

كان مصطفى كامل يكتب مقالاته هذه بلغة الشباب وحماسة الشباب وحرارة الشباب على حين كان كتاب آخرون كالسيد علي يوسف لا يتكلف في صحافته ضد الاحتلال البريطاني هذه اللغة ، ولا يصل فيها إلى هذه الدرجة من الحدة والانفعال ، ولا تحس في كتابته بعض ما تحسه في كتابة هذا الشاب .

ومع هذا وذاك فقد كان هذا الشاب هادئاً أو كالمهادى، إلى الوقت الذى كتب فيه مقاله الأخير بعنوان

منام نجاهرونه بغير ما نضمرونه

ومنذ يومئذ وبركان الثورة فى نفس هذا الفتى قد انفجر انفجاراً هائلاً وقذف الاحتلال البريطانى بمقذوفاته المؤذية .

ومنذ ذلك التاريخ والفتى فى الحادية والعشرين فقط من عمره بدأت عنايته بالقضية المصرية تقوى وتشتد. وكان يستعين فى ذلك بما حصل عليه من السكتب السياسية التى تبحث فى هذا الشأن وما أتيح له أن يقتنيه من المذكرات الخطية وغير الخطية من بعض رجال السياسة الذين كاتبهم أو حادتهم فى هذا الصدد. (١)

نعم منذ ذلك التاريخ أخذ مقياس الحرارة فى كتابة الشاب يرتفع . وكان الرجل أصيب منذ يومئذ بحمى السياسة التى أصبحت بعد قليل من الزمن داء عضالاً يرمى فى جسده ويمزق عصبه وينزف من دمه . وأقبلت سنة ١٨٩٥ فطلع الشاب على قرائه بمقال نشرته الأهرام بعدها الصادر فى اليوم الرابع من يناير تحت عنوان :

الوعود الصريحة:

بدأه بقوله :

ذكرت الانكليز فى رسالتى الأولى بأشهر سيئاتهم الاحتلالية . وأذكرهم اليوم بشرف الوعود وأتمن العهود التى قالوها ضماناً للانجليز ، آتيا بها وعدا بعد وعد ، وعهدا بعد عهد ، عسى تنفع الذكرى ، ويعلم السادة الأحرار أنهم بمحافظتهم على هذا الاحتلال الثقيل قد وطئوا بأقدامهم وداسوا بأرجلهم أعز شئ يتباهون به ويفتخرون به - وأعنى

(١) مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعاً جزء ٣ ص ٧٦



بذلك الشرف البريطاني الجليل الشأن الرفيع البنيان .

ثم أخذ الكاتب يحصى وعود الشرف التي قطعها انجلترة على نفسها فبلغت ثمانية عشر وعدا . أولها وعد اللورد غرانفيل في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ أى قبيل أن تظهر للثورة العرايية نار ويقام للاحتلال منار . وآخرها وعد المستر (مورلى) لمجلس العموم في ٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وفيه يقول « إن رأيه بشأن مصر هو عين رأى أسلافه وإنه لا يرى غير الجلاء » ثم وجه الحديث إلى السادة المحتلين قائلا لهم بعد كل ذلك « هذه وعودكم الشريفة الصريحة التي لا تستطيعون نكرانها . . . . فهل لكم أن تحترموا شرفكم العزيز ، وتنجلوا عن الديار بسلام ؟ أم عزمتم العزم الأخير على استخدام ذلك الشرف في اغتيال البلاد كما يشير به عليكم الخونة الأشرار ؟ » .

لقد دل هذا المقال على الخطة التي وضعها الشاب منذ يومئذ لمقاومة الاحتلال الانجليزى . وهي خطة تقوم من جانبه أولا على الدراسة ، ثم على الدعاية ، ثم على إيقاظ الشعور القومى فى مصر .

وفى الفصل الذى كتبناه بعنوان ( مصطفى كامل الداعية ) وقفنا على الحديث الخطير الذى دار بينه وبين شقيق اللورد كرومر فى مصر ، ونعنى به ( الميرالاي بارنج ) . وقد نشرته له الأهرام فى عددها الصادر يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٩٥ ولا حاجة بنا إلى إعادته .

وقد ردت المقطم ( لسان حال الاحتلال الانجليزى فى مصر ) على هذا الحدث العظيم فى تاريخ السياسة المصرية بمقال لها صدر فى اليوم الثانى مباشرة تحت عنوان « حديث خرافة »

فما كان من الكاتب الشاب إلا أن بعث بخطاب إلى صاحب الأهرام بشاره تقلا باشا نشرته هذه الجريدة فى عددها الصادر يوم الاثنين

٤ فبراير سنة ١٨٩٥ ردا على ترهات المقطم فطالب هذه الجريدة بأن ترجع في تكذيبها إلى (بارنج) شقيق كرومر، فإن وافقها على هذا التكذيب فليس بد للكاتبة يومئذ من أن يذكر (بارنج) هذا بالمكان والزمان اللذين اجتماعا فيهما، ثم بالحديث الذي دار بينهما على أن يذيل كل منهما ذلك بامضاءه ليتحمل تبعه الصدق والكذب.

منذ ذلك اليوم كثر أعداء هذا الشاب. وكان من ألد أعدائه صنائع الاحتلال الذين اضطروا الشاب إلى محاربتهم محاربة سافرة. من ذلك أنه في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال تحت عنوان:

### التهديد بالباطل

رد فيها على جرائم الاحتلال التي لم تستطع أن تخفي غيظها من الشباب الذين لم يكن لهم ذنب غير أنهم احتفلوا مرة بعيد جلالة السلطان، وزاروا مرة أخرى جناب المسيو فور رئيس الجمهورية الفرنسية. قال المحرر الشاب:

فإذا افترى إذنب مصريو باريس حتى اهتزت الدنيا، وقام الانكليز وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، طالبين من مريض الوزارة عقابهم أشد العقاب تعذيباً لهم، وعبرة لغيرهم، مما حرك الشيخ العليل إلى إصدار أمره إلى صديقه أرتين باشا بتحقيق هذا الأمر وتقرير العقاب الصارم.

وماذا أتى إخواننا المصريون ضد الانكليز حتى يطالب السير بالمر إلغاء الارسالية المصرية بأسرها وجعلها أثراً بعد عين. ثم يعود فيطلب إلغاءها ومعاقبة المسبيين لزيارة المسيو فور عندما علم (وياللعجب وطول الخجل) أن حضرات الأجلاء (أعضاء البعثة المصرية من الأرمن) يتعاملون في الارسالية على نفقة حكومتنا السنية! وأى حكمة وراء قول المقطم



لسان حال معتمد الدولة البريطانية في مصر : بأن المصريين لو كانوا على رأى الجرائد العربية الفرنسية - يريد بذلك على ما أظن المؤيد الأغر والأهرام الزاهرة - لاستعمل الانكليز معهم الشدة والقسوة بدل الملاطفة واللين . مع علم السادة المحتلين جميعاً بأن الأمة المصرية بأسرها على رأى هاتين الجريدتين الصادقتين .

يظهر لى أن الحكمة هي الوعيد والتهديد . ودليل ذلك قوله إن نابليون كان يعامل المصريين بالشدة كأنه يريد المقارنة بين عنصرين يفصلهما قرن طويل ، وبين فريقين جاء أحدهما فاتحاً والآخر قاصداً الاحتلال المؤقت والجلاء السريع .

ولكن ليهذا المحتلون بالا ويسكنوا خطراً . فلقد علم المصريون كل ما يضرهم لهم أبناء التاميز ولا يزيدهم الوعيد إلا ثباتاً في العمل وقوة في الوطنية الخ .

هكذا مضى المجاهد العظيم مصطفى كامل يقاوم المحتلين ، ويسخر من تهديدهم ووعيدهم ، ويستصفر جهودهم في سبيل إرهاب الأمة المصرية . حتى إذا ضاق اللورد كرومر ذرعاً بهذه المقاومة لم يجد بداً من استصدار أمر عال بتأسيس ماسماه ( المحكمة المخصوصة ) لمحكمة المعتدين من الأهالي على جنود الانجليز وضباطهم . ويومذاك ثارت ثائرة الشاب الأبى مصطفى كامل وبعث إلى جريدة الأهرام في الرابع من شهر مارس سنة ١٨٩٥ بهذا المقال الذي كان شديد الوقع على رجال الاحتلال البريطاني في ذلك الوقت ، وعنوان المقال :

### صواعق الدمار

بدأه بقوله :

يا لله من صواعق تصب علينا بغير حساب ، ومصائب نرى بها بلا

أسباب ، وبلايا تتدارك علينا تدارك السحاب ، ورزايا تتصدع بها القلوب والألباب حتى أصبحنا نتقلب بين أنياب هذا الشر وأظفار ذلك السوء ولا نعرف من الأيام غير ظلماتها ، ولا من الحوادث إلا مرعجاتها . كل ذلك على أيدي فئة جاءت البلاد بحجة الإصلاح .

وإذا سألتها ماهذه الصواعق التي تصيبنا علينا قالت إنما هي أدوية أدواتكم ومراهم جروحكم فتقبلوها بالصبر والسكون وإلا وضعت لكم السم في الشراب ، كأنما نحن أطفال صغار لا ينفعنا إلا التهديد والارهاب . وإذا ناديناها : لبي نداء هذا الشرف البريطاني الرفيع الذي يسألك الجلاء عن الديار وترك البلاد لأبنائها يسوسون أمورهم بأنفسهم ، قالت : ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون في خروج الانكليز من بلادكم وتسكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم ؟ فلا أرسلن عليكم الصواعق تأتيكم من حيث لا تشعرون ، ولأرمينكم بالمصائب تهز قلوبكم هذا ، وتذك وجداناتكم دكا ، حتى إذا علمتم بطش الانكليز وقوة البريطان أخذتم إلى السكون وجنحتم إلى عدم المطالبة بالجلاء ، لتتم علينا نعمة الحكم عليكم والسيطرة على بلادكم . ولسنا نستشهد على صحة هذا القول بحادث من حوادث الماضي . بل نستشهد بحادث اليوم الذي جاء ضربة قاسية على النفوس ، وصاعقة شديدة الوقع على الرؤوس . أعني به حادث المحكمة العرفية الاستبدادية التي أنشئت لمعاقبة كل من تعدى على جنود الاحتلال عقابا لا يدخل تحت قانون ما .

تأسست بعد أن أرغت جرائد لندرة وأزبدت ، وأرعدت وأبرقت ، ووجهت إلى سدة الأمير طعن وبذاء ، مما قابلناه تلك الساعة بقول الشاعر وإذا أتتك مذمتي من ناقص . . فهي الشهادة لي بأني كامل



تأسست هذه المحكمة على شكل يكفى وحده لأن يرهن للعالم بأسره أن الانكليز لا يعرفون للقانون رسما .  
وهل سمعتم يا قوم بمحكمة تحكم بما يشاء هواها ؟ محكمة تحكم بصلم الأذن ، وجدة الأنف ، وسلخ الجلد ، وبالجلد والضرب ؟

وهل رأيتم يا قوم في التاريخ أن أمة تحكم على غير قانون ودستور ؟  
أجيبونا يا معشر المشرعين . واستمعونا كلمة الحق أيها المنصفون . فقد بلغ السيل الزبى . نعم نعم أنتم تريدون أيها المحتلون بهذه المحكمة عقاب كل مصرى أمين يعرف أنكم خصوم بلاده ، وتقصدون بها إهانة الوطنيين بسجنهم السنين الطوال . إن لم نقل بأعدام كثيرين منهم .

نعم نعم - أنتم تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية تحكم بنفس القانون الذى تحكم به محكماتكم الجديدة .

نعم نعم - أنتم تريدون ذلك وتبذلون الجهد الجهد فى سبيل الوصول إليه . وإلا فأى تعصب دينى فى البلاد حملكم ( أيها العادلون ) على تأسيس هذه المحكمة التى تؤاخذون على تأسيسها كل المؤاخذه ... وأى داع حملكم اليوم على المطالبة بهذا الحق الذى تقولون عنه بعد أن سكتكم عن المطالبة به ثلاث عشرة سنة ... لا خلاف فى أنكم ترغبون قتل العواطف الشريفة الحية ، وتوددون من صميم الفؤاد إخماد أنفاس كل كاتب وكل معارض : ولنا فى الغاء مدرسة دار العلوم دليل آخر على ذلك . فلقد أردتم أن يكون هذا الشهر شهر النصر لكم والخذلان لنا . فأرسلتم علينا من سماء عدالتكم الصواعق تباعا ، حتى عسر علينا إحصاؤها . بل بتنا نقول ( كل البلايا فى ظل المحكمة المخصوصة ) فانا لله وإنا إليه راجعون . »

ثم في الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام  
لمصطفى كامل مقالا بعنوان

### الشرق الأقصى

تحدث فيه الكاتب إلى قرائه عن الحرب الصينية اليابانية وصلة ذلك  
بالمسألة المصرية . وكانت انجلترا تقف موقف العزلة من هذه الحرب بينما  
كانت فرنسا والمانيا وروسيا شديدة الاهتمام بها . قال مصطفى كامل : —  
« ولا أراني مخطئا إذا قلت إن مسألة الشرق الأقصى خدمت مصر  
خدمة جليلة بأن وجهت إليها الأنظار أكثر من ذي قبل . فليست  
الجرائد الفرنسية وحدها هي التي تطالب اليوم بالجلاء عن وادي النيل ،  
ولكن الجرائد الروسية والألمانية صارت أشد لهجة وأعظم غيرة منها »  
ثم أتى الكاتب الشاب بعبارة لبعض الصحف الأوروبية جاء فيها :  
« إن انكلتره تهددنا بأقفال قناة السويس إذا أتينا بأي عمل حربي  
ضد مصالحها في الشرق الأقصى . فعلى الدول الثلاث المتحدة حل مسألة  
مصر بأول فرصة حتى لا يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة انكليزية »  
ثم قال :

« ولا سرا في أنه إذا دام الحال على هذا المنوال وظلت خطة  
الدول الثلاث بلا تغيير نجحت مصر من مخالب الأسد الذي يحاول اقتراسها ،  
وتحققت آماني محبي مصر والمنصفين في قولهم « مصر للمصريين »  
ثم في أول يونيو سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام لهذا المجاهد العظيم  
مقالا تحت عنوان :

### من أين يأتي الخطر

وفي هذا المقال لخص الكاتب خطايا سياسيا خطيراً ألقاه بعض



الفرنسيين في حفلة دعى اليها الشاب مصطفى كامل . ومن هذه الخطبة قوله :-  
 إني لم أكن أعلم شيئاً من حوادث مصر ، غير أن الانكليز فيها  
 يريدون ابتلاعها . وسياستهم على شواطئ النيل كسياستهم في كل بلد آخر  
 تتلخص في الافقار والاستعباد والتخريب . والسكنى اندهشت أعظم دهشة  
 عندما قرأت في الجرائد خبر تأسيس محكمة مخصوصة تقبض بيدها على  
 السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية . وزادت دهشتي لما علمت أن  
 الذي قرر هذه البدعة الكبرى هو مجلس النظار المصري المركب على  
 ما أعلم من نظار مصري الجنسية ! ومن ذلك اليوم درست المسألة دراسة  
 مجتهد حتى وقفت على ما جريات الأحوال وعموميات الأشياء . وخلاصة  
 ما استنتجته أيها السادة هو أن مصر بلد سيء الطالع ، رزق في هذا  
 العصر المنير عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبي يديره رجال لا يعرفون  
 غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام ، وقوم من مصر سواء من  
 أبناءها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم . فهم فصلوا السودان  
 عن مصر ، ومكنوا العدو من كل شيء . ولقد كان نابليون يقول : لو  
 كان عدد الخونة في فرنسا نصف ما هو عليه اليوم لكانت هذه الدولة سيدة  
 العالم . وأنا اليوم أقول : لو كان عدد الوطنيين الصادقين في مصر بقدر  
 عدد المارقين والدخلاء فيها لكانت نجت من عهد بعيد . فالبلاء كل البلاء  
 في تعيين الضعفاء والبسطاء في المناصب الرفيعة وإبعاد الصادقين الأكفاء  
 من المصالح والادارات . والمصيبة كل المصيبة في وجود بعض مصريين  
 لا يفهمون معنى حب الوطن ، وآخرين لا يدرون - وهم مصريون - أن  
 مصر بوضعها الطبيعي لا بد أن تكون حرة مستقلة .

فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم وخروج الانكليز من  
 دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية ، ولم تهذبوا أوربا إلى الحقائق ؟

بل تركتم هذا الواجب الخطير إلى الجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقة ويخالف الواقع . فهي تقول لنا يوما إنكم راضون بالاحتلال ، تدخلون في بابه أفواجا أفواجا . وتحدثنا يوما آخر عن تعصبكم في دينكم ، وكرهكم لغير أبناء جنسكم . وتذكر لنا تارة أنكم لستم أكفاء ، ولا يليق بأوربا أن تضع ثقها فيكم . وطورا آخر أن الانكليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلا ، وضاعت مصالح المالمين ونزلت القراطيس المصرية بعد أن تحسنت وصعدت .

فهل قام منكم وفد جاء أوربا مناديا بالحقائق ، طالبا العدل والانصاف ؟ أمالكم في بعض العناصر الشرقية كالصرب والبلغار وغيرهم عبرة كبرى ؟

واذكروا الآن الأرمن الذين لا يعضون لحظة عن تأسيس الجمعيات وإلقاء الخطب . على أنهم ما عرفوا من قبل معنى الاستقلال ، وما ذاقوا للآن حلاوة الوحدة في العمل ، وعدم تسلط اليد الأجنبية على بلادهم كما ذقم أنتم حلاوة ذلك في عهد الأسرة الخديوية الكريمة . وفضلا عن ذلك فلهم ليس لهم حق يخول لهم نيل مطالبهم . أما أنتم فحقوقكم أكبر الحقوق . وليس لكم سبيل إلى استرجاعها غير نشر الحقائق في أوربا والاستعانة بها .

هذا خطؤكم في سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه . أما أنت أيها الشاب المصري فقد أحسنت عملا إذ جئتنا اليوم تنادي باستقلال بلادك . فأمل خيرا كثيرا وادع أبناء جلدتك إلى الانضمام اليك ليكون صوتكم عاليا يسمع في كل الأرجاء .

وعقب الكاتب الشاب على هذه الخطبة بعد ذلك بما شاء له أن يعقب وذكر المصريين بأن الخطر يأتيهم من طوائف ثلاث : طائفة الدخلاء ، وطائفة الضعفاء ممن يلون الحكم في مصر ، وطائفة اليائسين الذين ينسون أن الأمم



الأخرى كانت أتعس منا حظا ومع ذلك جاهدت وثابتت حتى نالت حريتها .

ثم ضرب المثل بالولايات المتحدة وإيطاليا واليونان . ثم قال : « وأنتم أيها المواطنون الأعزاء لا تحتاجون لسكثير من العناية في إنقاذ الوطن العزيز إذ أن ذلك من صالح أوروبا . ولا مراء في أن الدول التي حررت سويسرا وبلجيكا لها في تحرير مصر فوائد أكبر من فوائدها في هاتين الدولتين . . . . ألا فاجمعوا كلتكم أبناء الوطن العزيز ، واخلصوا النية في خدمة مصر ، والقوا وراء ظهوركم الشقاق والنفاق ، واختاروا سبيل الخلاص سبيلكم حتى يشهد لكم العالمون بالكفاءة والاستعداد وحب الوطن . وتروا بعين البهجة والرضاء بعد زمن يسير « مصر للمصريين »

وئارت ثائرة الاحتلال ، وتعدت صحفه أطوارها ، واشتد أوارها ، واندفعت تحرق الوطنيين بنارها ، وخاصة بعد أن قام المجاهد الشاب بهذه الحركة المعروفة التي قدم فيها لمجلس النواب الفرنسي لوحة الفن المعروفة وعريضته المشهورة . وأخذت صحف الاحتلال تسب هذا الشاب وتظعن فيه وفي نواياه وأخلاقه . فاضطر الشاب من جانبه إلى الرد عليها في مقال بعث به إلى الأهرام فذشر في الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٩٥ بعنوان

كلمة الى المرسلين

بدأه بقوله :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى \* فما زال غضبانا على إثمها  
عذرا أيها الأصدقاء، الأوفياء . إذا قصرت عن القيام بواجب شكركم على دفاعكم عنى أمام طغمة المارقين الذين أقل صفاتهم أن لا وطن لهم ولا خلاق . فإني أترك الوطنية الحقبة تشكركم أجل الشكر ، وأدع المحامد تحمدكم على رفيع إحساساتكم وجيل شيمكم ، واستمحيكم العفو إذا

خصصت رسالتى هذه للرد على هؤلاء الخوارج بلسان التاريخ . فان فيه ولا مرأى أقوى ساعد على خدمة بلادى العزيزة وتحرير أوطانى المحبوبة . يلومنى الخصوم على الدفاع عن حقوق ضائعة وحرية مسلووبة ، ويصفون شريف الفعال ( بأعمال الصغار ) ونعم هذا الوصف . وما الذى مثل هذا اللوم على أذى . إنه لعمرى الحق الذى من تغريد الطيور .

أبلغتم أيها الخوارج من التدليس هذا المبلغ ؟ حتى اعتبرتم الفضائل نقائص الخ ، فاني وإن أكن فى أزهر سن الشباب لست ممن يميلون مع الأهواء ، ويقضون الساعات والأيام فى الملاهى والملاذات . بل أنا ممن لا تحلو الحياة فى عيونهم مادام الوطن على خطر ، والأمة على شفير هار . أفأخركم أيها الطاعنون أمام العالم أجمع بأنى وهبت حياتى لأمتى وبلادى . وبدأت أعملى بعد سن الدراسة بمطالبة أوربا العادلة حقاً وإنصافاً . أفأخركم ساخراً من طعنكم وقدحكم بأنى أقتنى أثر رجال شرفهم التاريخ لما شرفوا بلادهم ، وأعزتهم أوطانهم لما أعزوها وأعلوا شأنها ....

.... ألا فانتظروا الحوادث ، واهزأوا ظاهراً وموتوا باطناً مما نحن

فاعلون ..

وختم مقاله هذا أيضاً بقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتى من ناقص \* فهى الشهادة لى بأنى (كامل)

\* \* \*

هكذا كانت هذه السنوات الثلاث التى كاتب فيها الشاب مصطفى كامل جريدة الأهرام من أخصب سنوات عمره نتاجاً وأصدقها جهاداً . راض فيها الشاب قلمه على الكتابة الصحفية الصحيحة .. ومازلنا نقتبع مقالاته فى هذه الجريدة فنراه يرتفع قليلاً قليلاً من حيث درجة الحماسة حتى يصل إلى قرب نهايته عندما ينفق يخوض فى سياسة الاحتلال ونقد هذه السياسة . وإذ ذاك وجدنا لعبارة انطلاقة كبيراً ، وانسياباً عظيماً ، واتساعاً



فسيحا ، وطواعية تدعو إلى الإعجاب . كل ذلك في سهولة لفظ ، وتدفق شعور ، وعذوبة معنى ، وعدول تام عن الكلمات الغريبة ، ومعرفة تامة بالألفاظ التي توحى إلى القراء بأسمى المعاني وأشرفها في الحقيقة .

وتتلخص السمات التي يتسم بها مصطفى كامل في هذه المرحلة الثانية من مراحل الصحافة ، وهي المرحلة التي قضاها في جريدة الأهرام فيما يلي :  
أولاً—تشبه الكاتب بالقدماء في الميل أحيانا إلى الاستشهاد بالشعر . وهو ميل أصيل في كثير من أدباء العربية لم يزل يستأثر بنفوس كبارهم وأعيانهم إلى اليوم . ورمى مصطفى كامل في مقالته التي عنوانها ( البحر ) وهي مقالة أدبية أكثر منها سياسية يستشهد في مطلعها بتسعة أبيات دفعة واحدة ربما كانت من نظمه .

بل إن الكاتب الشاب يحاول في بعض كتاباته الأدبية أحيانا أن يتشبه بالقرآن الكريم في أسلوبه ، أو بعبارة أدق يصطنع بعض ألفاظه ، كما في قوله في نفس المقالة السابقة يصف ركاب الباخرة متأثرين بدوار البحر :

إن رأيتهم حسبتهم سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنهم في بحار الدوار  
تائهون ، لا حراك بهم ولا هم يفقهون .

على أنه من الحق أن يقال إن مصطفى كامل لم يسرف لا في استخدامه لألفاظ القرآن ولا في استشاده بالأشعار . لانه قلما كان يحسن شيئا من ذلك لضعف موهبته الأدبية من حيث هي .

ثانياً — على أن عبارة هذا الكاتب الشاب أخذت تميل شيئا فشيئا إلى السعة والانطلاق .

وبلغ هذا الانطلاق غايته في المقالات الحماسية التي كانت من آخر ما كتب الفتي في جريدة الأهرام . أغنى منذ المقالة التي عنوانها « حتام تجاهرون بغير ما تضررون » . وترى في المقالات التي تليها سهولة في اللفظ ،

وتدفقاً في الكتابة، وانسياقاً في العاطفة، وطواعية في التعبير. وما زال هذا القلم تشتد قوته، وتعمم سيطرته حتى بلغ الغاية من ذلك في مقالته «العوود الصريحة»، و«صواعق الاحتلال»

ثالثاً— منذ بدأ القتي يخوض بقلمه في ميدان السياسة، وذلك في أواخر عام ١٨٩٤ ترك عادة قديمة كانت عنده، وهي العناية بكتابة المقدمات الطويلة في صدر كل مقال. وذلك بالطبع لأن أذهان القراء لا تحتاج إلى مثل ذلك عند قراءة المقالات السياسية.

أما المقالات التي تشبه البحوث الأدبية والاجتماعية فقد تحتاج إلى هذه المقدمات.

رابعاً— كان مصطفى كامل يغلب على مزاجه الجد، ولا تعرف نفسه الضحك أو الهزل. ومن أجل ذلك جاءت سخريه هذا الكاتب الجاد سخريه حزينة لا يشعر معها القارئ بانفراج شفة الكاتب عن ابتسامة خفيفة أو عريضة.

وانظر إليه يسخر من أحد مكاتب جريدة التيمس وقد كتب رداً على حديث مصطفى كامل مع السكولونيل بارنج حيث قال :

«لو كان عندنا ذلك الكاتب المصري لعاقبناه بما يستحق» فعقب عليه مصطفى كامل بقوله. كأنه يريد وضع مادة جديدة في قانون المطبوعات يقول فيها.

«كل مصري نقل إلى الجرائد حديثاً جرى له مع سيد من الانسكيز يعاقب بالطرده أو الأشغال الشاقة».

ثم انظر إليه كذلك كيف يسخر سخريه حزينة أيضاً من رجال الاحتلال في مقاله المعروف «صواعق الاحتلال» فيقول :

فاذا نادبناها: لبي نداء الشرف البريطاني الرفيع الذي يسألك الجلاء عن الديار، وترك البلاد لأبنائها قالت : —



« ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون في خروج الانجليز من بلادكم ، وتكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم الخ » .

لا شك أن السخرية الحزينة لا تصدر في الأعم الأغلب إلا عن رجل عصبى المزاج ، سريع الانفعال . وقد كان مصطفى كامل ذلك الرجل العليل من كثرة العمل ، المحطم الأعصاب من طول الجهاد . وهذا فضلا عن كونه شابا حمل نفسه عبء البلاد كلها قبل أن تتقدم به السن ، ويقوى له كاهل يتحمل كل هذا الجهد .

خامسا — ميل هذا الكاتب الوطنى إلى صوغ الآراء الوطنية في قالب حكمة جامعة أو جملة رائعة يسهل حفظها والاستشهاد بها كما في قوله :-  
« من نظر في تاريخ البشر لا يجد أمة عظيمة قامت على الأرض ثم تطرق إليها الضعف والاضمحلال إلا بعلّة تفريق أجزائها الملتئمة ، وانفصال أعضائها الملتحمة » .

وقوله :

إن الأمة التى لا تماسك أجزاؤها ، ولا تتلاحم أعضاؤها ، لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا . وما بقاء عقد تناثرت حباته ؟ الخ  
ولكن من الحق أن يقال إن ورود هذه الحكم الجامعة ، والعبارات الرائعة ، كان قليلا في هذه المرحلة من مراحل الكتابة الصحفية عند مصطفى كامل . وإنما كثرت هذه الحكم بعد ذلك كثرة هائلة في خطب الشاب المجاهد ، وفي مقالاته التى كتبها في المرحلة الأخيرة من مراحل حياته الصحفية ، ونعني بها مرحلة ( اللواء ) .

سادسا — ميل الكاتب إلى اصطناع الأسلوب الخطابى . وقد بدأنا نعرف له هذا الميل منذ خوضه في الميدان السياسى . فاذاك مال هذا الكاتب إلى تكرار عبارات بعينها على قاعدة من يقولون ( من كرر فقد

قرر) ومال إلى استخدام ضمير الخطاب كأنما يتحدث إلى حفل جامع من الناس حاضرين أمامه .

ومن سمات الأسلوب الخطابي في عبارته هذه كذلك اصطناعه أسلوب الاستفهام عقب كل تقرير في كلامه . واصطناعه القسم من مثل ( لعمر والحق ) و ( لعمر والانسانية ) و ( لعمر والله ) الخ

\* \* \*

و ( بعد ) فقد كانت لهذا الأسلوب الذي كتب به الرجل مقالاته في الأهرام بعض هنات منها على سبيل المثال :

الخطأ في استخدام ( باء البدل ) كما في قوله في مهاجمة المحكمة المختصة نعم نعم — تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية . والصحيح ( وابدال المحاكم الاستبدادية بها ) وذلك ان ( الباء ) كما يقول النحاة للترك . فالترك في العبارة هو ما اقترن بها . والمطلوب منها ما لم يقترن بها . قال تعالى ( ألتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير )

وقوله « فشرعوا في عزل من أرادوا من الضباط الوطنيين ، واستبدلهم بضباط الانكليز . » والصحيح ( واستبدال ضباط الانكليز بهم ) ومنها الخطأ في استخدام لفظ ( بعض ) والأصل في الأسلوب العربي أن يتكرر هذا اللفظ مرتين . ولكن مصطفى كامل وغيره من كتاب العصر كانوا لا يعقلون ذلك .

وكان هذا الكاتب الشاب يخطئ كثيراً في غيره من الكتاب في لفظ ( مسرح ) فيكتبه مسرح ، ونحو ذلك .

وكثيراً ما لاحظنا في أسلوب مصطفى كامل حين استخدامه الجمل الشرطية أنه يميل إلى جعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً ، حتى لقد أصبح ذلك سمة من سمات الكتابة عنده ، مع أن الأصح هو جعل الشرط والجواب



ماضيين كما في قوله تعالى ( كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها  
رزقا ) .

لقد سميت هذه الاخطاء ( هنات ) وهى فى الحقيقة لا تعدو أن  
تكون كذلك . فما أهونها بالقياس إلى مزايا الأسلوب عند هذا الكاتب  
الناشئ الذى كان يعالج بقلمه أدق القضايا السياسية والاجتماعية  
كما رأينا .

---

## الفصل الخامس

### نشأة اللواء

كانت هناك صحف وطنية لها شأنها ولها مكانتها حينما فكر مصطفى كامل في إنشاء « اللواء ». وأهم تلك الصحف الوطنية اثنتان هما « المؤيد » و « الأهرام ». وكانت « الأهرام » أسبوعية كما كانت أقدم في تاريخها من « المؤيد ». إلا أن هذه الجريدة الأخيرة كانت أعظم خطراً وأجل شأنًا وأبعد صوتاً من بقية الجرائد المصرية الأخرى ومنها جريدة « الأهرام » وذلك فضلاً عن أن المؤيد كانت جريدة يومية ، وأنها نشأت في ظروف خاصة أضفت عليها أهمية خاصة . ومن تلك الظروف أن الوطنيين في مصر لم تسكن لهم إلى ذلك الوقت صحيفة يومية تعبر عن رأيهم ، وتكون لسان حالهم ، على حين كان لرجال الاحتلال في مصر جريدة كبيرة ، هي جريدة « المقطم »

من أجل ذلك قلنا في كتابنا عن علي يوسف « وهكذا ظهرت جريدة المؤيد في الوقت الصحيح ، واختار لها القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها إذذاك المنهج الصحيح » . (١)

كانت الصحف الوطنية المصرية تفسح صدورها لمصطفى كامل يجول في صفحاتها بقلمه متى شاء ويشارك في توجيه الرأي العام في مصر كيفما شاء . غير أن الفتى المصرى بالرغم من مشاكلة الكثيرة ، وأسفاره العديدة ، وأعبائه الثقيلة ، لم يقنع بذلك حتى فكر في أن يتخذ لنفسه صحيفة بل

---

(١) الجزء الرابع من أدب المقالة الصحفيه ص ٧٧ للمؤلف



صحفاً كثيرة يكتب فيها ماتمليه عليه قريحته الوفاة ، وقلبه الكبير ، ونفسه الطموح إلى مجد الوطن وإعلاء كلمته والظفر بحريته .

ولعل أهم ما يلفت النظر في صحافة الاحتلال بوجه عام أنها استكملت أسباب النضج ، وأصبحت خليقة بأن تسمى صحافة رأى ، وأنه قد غلب على أصحابها شعور عام بأن الصحافة في ذاتها أشد لزوماً لمصر مادامت في بداية الشوط من غيرها من الأمم الأوروبية التي أتم أكثرها بالفعل هذا الشوط .

ولقد جاء تفكير مصطفى كامل في إنشاء «الواء» متأخراً بعض الشيء ، لأنه ظهر على مسرح السياسة المصرية منذ عام ١٨٩٠ ولم يخرج لواءه للناس إلا في سنة ١٩٠٠ ، ولذلك التأخير أسباب تتصل بظروف هذا الفتى الغيور . ولعل من أهم هذه الأسباب — فيما نعلم — أن مصطفى بقى يعتمد في المراحل الأولى من جهاده على وسيلة فعالة ، هي وسيلة (الدعابة) . وقد تحدثنا عن أهمية هذه الوسيلة ، ونوهنا بالشهرة التي عادت عليه وعلى مصر من ورائها كطريقة من طرق الاذاعة . ولكن بالرغم من عظم الجهد الذي بذله الرجل في هذا السبيل فإنه صدم صدمة قوية في حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ، وهو الحادث الذي كشف عن ضعف فرنسا أمام انجلترا ، وجعل الوطنيين في مصر يدركون خطأ الاعتماد على تلك الدولة المستضعفة .

وازداد المصريون يأساً من العون الذي ينتظرونه من الدول الأجنبية ، وفقدوا أملهم في عدالتها وقدرتها على الوقوف في وجه الانجليز ، وذلك منذ رأوا جمود تلك الدول أمام مأساة أخرى ، هي مأساة البوير عام ١٩٠٠ وتركها إياهم أمام طغيان الانجليز ، وتوحشهم في حرب دارت بينهم وبين البوير في الترنسفال .

وإلى الأسباب المتقدمة كلها ، يضيف بعض العارفين بسير الحوادث المصرية في تلك الفترة ، زعمهم بأن جريدة المؤيد أبدت نوعاً من الفتور في الترحيب

بالمقالات السياسية التي يكتبها مصطفى كامل بين الحين والحين .  
إذ ذاك لم ير الزعيم الشاب بداً من التفكير في إنشاء جريدة يومية  
تظهر باسمه ، وتعبر عن رأيه ، وتحارب جيوش اليأس التي طوقت الشعب  
المصري بأسره . فأعد العدة لهذه الجريدة في عام ١٨٩٩ ، وأصدر العدد  
الأول عام ١٩٠٠ ، وكان هذا العمل في الواقع أجل الأعمال التي قام بها  
مصطفى كامل في حياته كلها ، حتى لقد أطلق الأستاذ الراحل عليه اسم  
( الجهاد الأكبر ) ومن يومئذ وجريدة اللواء علم على الصحافة المصرية ،  
ورمز للحركة الوطنية .

وبقيت اللواء تحمل علم الجهاد في مصر إلى أن فارق الفتي المصري  
هذه الدنيا . واستمرت تحمله بعد وفاته إلى أن قضت الظروف عليها بعد  
أن أتمت رسالتها الكبرى بنجاح تام .

وأما صاحب اللواء — وقد أصبح يعرف بهذا الاسم منذ ظهرت  
جريدته تلك — فقد كان أول من ألف الشركات الكبرى للصحافة في  
مصر ، وأول من عني بوصف الحفلات الكبرى بالبرق وتقول  
« الاكسبريس » في عدد من أعدادها التي صدرت في أكتوبر سنة  
١٩١٥ : إن موارد اللواء تقدر بثمانية وثمانين ألفاً من الجنيهات . وهو  
تقدير يجعلها أغنى الصحف المصرية بعد جريدتي الأهرام والمقطم .

مهما يكن من شيء ، فحينما كانت فكرة إنشاء اللواء تداعب خيال  
هذا الشاب ، وتأخذ بمجامع قلبه بحث إلى مدام جوليت آدم يزف إليها  
هذه البشرى فردت عليه هذه السيدة بخطاب جاء فيه :

صديق الشاب :

أسمح لي أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التي أرفعها إلى السماء

(١) في أول يناير سنة ١٩٠٠ تلقى مصطفى كامل من مدام جوليت آدم السكاتية الفرنسية  
الشهيرة هذا الخطاب . وقد أوردته أحمد شفيق باشا في كتابه « مذكراتي في نصف قرن » ص ٣٣٠  
من القسم الأول الجزء الثاني .



ليهبك الله من لدنه صحة ومجدا ، وقوة في جهادك الشريف ضد أعداء بلادك . وإني منشرحة الصدر جداً لما علمته من إنك ستنشئ جريدة سياسية ( اللواء ) لأن ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لكل المجاهدين في ميادين السياسة .

وإني أهنيك أصدق تهنية على نجاحك الخطابي . ولست بحاجة لأن أعرفك رأي في أعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين . ولو استطعت أن أشرح لك أفكارى بشأن بلادك البديعة لوجدت فيها ما يملأ فؤادك آملا وثقة في المستقبل . فقد كانت مصر آفة الدول الطاغية . وأثبت التاريخ أنها لم تبتلع الفاتحين لها ، بل قذفت بهم إلى خارجها . ويظهر لي أنها محروسة بأرواح أبناءها القديماء ، وأن في أرض بلادكم مراً جعلها ويجعلها مقدسة عند الناس أجمعين .

إنكم معاشر المصريين لو أردتم أن تكون مصر من أكبر الأمم وأعظمها لكانت كما تشاءون .

ألف تحية وألف سلام للواء الرسول . وليكن لواءك عامل التقريب بين أبناء الدين المحمدي الصحيح وأبناء الدين المسيحي الصحيح . وما ذلك بعسير فإن هذا التقريب يكون أكبر خطوة في تاريخ الإنسانية والتقدم .

جوليت آدم

\* \* \*

وصدر العدد الأول من اللواء يوم الثلاثاء غرة رمضان المعظم سنة ١٣١٧ وهو الموافق ٢ من يناير سنة ١٩٠٠ وذلك في ورقتين من قطع أقل من طول الجرائد العادية في أيامنا هذه وكتبت في صدرها هذه العنوانات :

## الـلـوـاء

جريدة يومية سياسية لصاحبها مصطفى كامل بك	اشترك اللواء
مكاتب اللواء وجميع الرسائل	١٠٠ عن سنة داخل القطر
يجب أن تكون خالصة أجرة البريد	٦٠ » ستة أشهر »
باسم صاحب اللواء	٣٠ » ثلاثة »

إدارة الجريدة بشارع فهمى رقم ١٣ بجوار محطة باب اللوق  
ثم جاءت كلمة الافتتاح ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل لواء الوطن أشرف لواء ، وصلاة وسلاماً على نبيه  
خير الرسل والأنبياء . ( أما بعد ) فقد علم أبناء الوطن أنى وقفت نفسى  
من زمن بعيد لخدمة الوطن العزيز ، وإعلاء شأن الملة السمحاء بقدر طاقتى  
الضعيفة . وإنى ممن يعتقدون إعتقاداً صحيحاً أن الوطن دونهُ الأُنفس  
والأموال ، وأن أشرف يوم فى حياة الانسان هو يوم يموت فيه لأجل  
بلاده وفى سبيل سعادتها . وقد بذلت قصارى الجهد فى رفع لواء الوطنية ،  
وجمع كلمة الأمة المصرية ، وإحياء الشريعة الاسلامية . وما وجدته من  
التعاضيد فى كل أعمالى ، وما تحققت من أميال مصر العزيزة سهل لى إظهار  
جريدة ( اللواء ) التى أوُمل أن تكون إن شاء الله تعالى لواء حقيقياً  
لبنى الوطن الصادقين ، وراية للمجاهدين فى سبيل تقدم مصر والمصريين ،  
وعاملاً لخدمة الاسلام والمسلمين . وجعلت أول عدد يصدر منها مقروناً بهلال  
شهر الصيام المبارك تيمناً بشهر رمضان ، الذى أنزل فيه القرآن هدى  
للناس ، وبينات من الهدى والفرقان . ولما كان اللواء فى كل أمة حية هو  
شارة الوطن والوطنية ، وممثل أسمى العواطف الانسانية ، حيث يرى الانسان



به الأمة والوطن والعقيدة مجتمعة ، وكان مقامه عند الأمم الحية المقام الأول ، ومكانته في نفوس الشعوب المسكانة السماء ، اليه ينتهى الشرف كل الشرف في صفوف الجيوش . وبه يسمع الجندى إذا نظر اليه في ( ميدان ) القتال طبول النصر والظفر إذا ارتفع لواؤها وسمت رايتها . ويحل كل إنسان راية وطنه ولواء بلاده أعظم إجلال ، ويحس بقوة في الفؤاد ونشوة الدم كلما نظر إلى هذا اللواء الذى يمثل تاريخ الوطن ومجده وفخاره .

ولما نهضت مصر ، وكان من نهضة أبنائها حول لواء الوطن العزيز ، واتفقهم على خدمته ونصرته ، أحببنا أن نسمى جريدتنا باسم اللواء أملا في وجه الله الكريم أن يوفقها لجمع كلمة المصريين حتى يقوموا بالواجب عليهم نحو الوطن المقدس .

### خطة الجريدة

أما خطة الجريدة فهي خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبيل وأنفعها . خطة الحكمة والاعتدال ، والحكم على الأشياء حكما صادقا ، والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة ، وبين كافة المسلمين من جهة أخرى . والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية ، وترقية التجارة والصناعة ، وإجلال كل من يعمل عملا مفيدا للوطن والأمة والدولة ، واجتناب الشوائب والشخصيات اجتناباً تاماً .

ورغبة منا في تقرير الحقائق ، وتعضيد العاملين والمجاهدين ، سنفتح في جريدتنا فصلاً تحت عنوان : ( المنبر العام ) ننشر فيه كل ما يردنا من الرسائل السياسية والاقتراحات المفيدة للوطن ، والاختراعات الحديثة التى يخترعها أبناء البلاد . وبالجمله يسمح لكل مصرى صادق أن يسمع الأمة صوته . وسيكون كذلك في الجريدة فصل عنوانه : ( أوروبا والاسلام ) ننشر فيه كل ما يكتب في جرائد أوروبا عن الاسلام والمسلمين ، وكل

ماله علاقة بذلك . وفصل عنوانه : ( أخلاق وآداب ) لانتقاد الأخلاق الفاسدة والحث ... البلاد الاسلامية . وفصل عنوانه : ( بريد العالمين ) ننشر فيه أخبار أوروبا وأمريكا وآسيا . وفصل عنوانه ( آيات الوطنية ) نأتى فيه على قصص الوطنية التى من شأنها بث الروح الوطنية الطاهرة فى نفوس أبناء الوطن .

وإننا نؤمل من حضرات الكتاب الأماجد ورجال الأفكار والآراء أن يشتركوا معنا فى هذه الخدمة الشريفة . فجريدة اللواء هى جريدة الأمة كلها — لا جريدة شخص أو أشخاص .

وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للقيام بالواجب ، ويمدنا بروح من عنده ، ويهبنا قوة وثباتاً ورشداً ، وأن يحفظ للخلافة الاسلامية صاحبها ، وللسلطنة العثمانية سيدها جلالة مولانا السلطان بن السلطان الغازى عبد الحميد خان أيدى الله وأدام ملكه ، وأن يديم لمصر فى ظل جلالته عزيزها وأميرها سمو خديوينا المعظم عباس حلمى باشا إنه سميع مجيب .

مصطفى كامل

غرة رمضان سنة ١٣١٧

\* \* \*

فصل المحرر فى كلمته هذه منهاج الصحيفة ، وأبان عن خطتها ، وأفصح عن أغراضها المختلفة . والناظر فى عدد من أعداد اللواء يرى فى أولى صفحاتها المقال الافتتاحى وجزءاً من المادة التى عنوانها «أوروبا والاسلام» ، أما الصفحتان الثانية والثالثة فهما فى اللواء الحوادث المحلية والتلغرافات الخارجية مستمدة من شركى رويتر وهافاس . كما يرى فيها القارىء أخبار التجارة ، وبرد العالمين ، وغير ذلك . وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فكثيرا ما تشغلها الاعلانات المختلفة بصورها المتنوعة .



على أن هذا النظام لم يكن متبعاً على الدوام ، بل كان المحرر يدخل عليه شيئاً من التعديل بين الحين والحين .

وأما أسيرة التحرير فقد كانت تتألف على حياة الفقيد من رجال كثيرين نذكر منهم على سبيل المثال :—

أحمد حلمي « صاحب جريدة القطر المصري فيما بعد » .

وأمين الرافعي « صاحب جريدة الاخبار فيما بعد » .

ومأمون بيومي « من الحقوقيين المعروفين في مصر » وتوفيق العطار « من الحقوقيين أيضاً » ومحمود سلامه ، ومحمد الكنازة ، ومصطفى نجيب « المفتش بالداخلية وصاحب كتاب حماة الاسلام وقد نشره فصولاً متتابعة بجريدة اللواء » والشيخ عبد العزيز جاويز ، ومحمد بك فريد ، وعلى فهمي كامل « شقيق الفقيد » ، وغيرهم كثيرون .

وكانت اللواء تنشر لبعض الشباب من الشعراء قصائدهم الوطنية والاجتماعية . ومن أهم هؤلاء اسماعيل صبرى ، وأحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، و خليل مطران ، وأحمد محرم ، والكاشف وغيرهم .

وبعد وفاة الفقيد عام ١٩٠٨ ، رأس تحرير اللواء الشيخ عبد العزيز جاويز ، وأعانه على تحرير الصحيفة كثيرون من محرريها القدماء .

واستمرت اللواء في الظهور إلى سنة ١٩١٤ . ثم عطلت نهائياً منذ ذلك التاريخ بسبب المؤامرة التي قيل إنها دبرت لقتل الخديوي عباس والورد كدشنر وعبد باشا سعيد ، واتهم فيها الأستاذ حسن حسنى كامل « أصغر أشقاء الفقيد » برياسة هذه الجماعة التي حكم على أعضائها بالسجن لمدة خمس عشرة سنة . وكان من هؤلاء الأعضاء إمام واكد ومطاهر العربي وعبد السلام وآخرون .

## اللواء بين الحاكم الشرعى والحاكم الفعلى

بقيت العلاقات طيبة بين اللواء والخديوى عباس منذ ظهورها سنة ١٩٠٠ إلى وقت حدوث الاتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ . وفى هذه الأثناء كانت اللواء لا تدخر وسعا فى تحييدها إليه وتقربها منه ، وكانت حريصة دائماً على تهنتته بأعياد الجلوس ، وأعياد الميلاد ، ونحو ذلك من المناسبات المختلفة . وكانت تتخذ من تلك التهانى وسيلة من وسائل توجيه الحكومة المصرية ، وبث روح الوطنية فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم .

وما برحت اللواء طوال حياتها تناصب الانجليز العدا ، بقدر ما تضرر للعباس الوفاء ، وتضرب فى ذلك المثل الأعلى للوطنية المصرية التى تلقت درساً نافعاً من حوادث الثورة العرابية . ومن ذلك على سبيل المثال ما نشرته فى ٩ يناير سنة ١٩٠١ بقلم مصطفى كامل نفسه تهنتة للعباس بعيد جلوسه ، وتعريضاً بالنظر المصريين فى نفس الوقت :

« لوفقه نظار مصر وحكامها ما للأمر من الآمال السكبار ، وما فى أفئدة الأمة من الحب والاخلاص لذاته ، وكانوا بمن قرأوا التاريخ ، واعتبروا بعبره ، وخدموا الأمير والبلاد بالصدق والوفاء ، ونزعوا من أنفسهم كل بأس وقنوط ، لكننا اليوم أشركناهم فى التهانى التى نرفها إلى سمو الأمير ، وفرائض الاخلاص والاجلال التى نقدمها اليه ، ولكن الوطن حياهم فى عيد الأمس بخير الشكر والأمتنان . ولكنهم أرادوا وأرادت الايام ألا نخطب إلا الأمة والامير ، وأن يكونوا فى عزلة عنا وإنقطاع فى هذا الوجود . فلندعهم إذا فيما هم فيه ، ولنهنى أميرنا الجليل بأتمته العزيزة التى أحبتة لصفاته العالية ، ونواياه الظاهرة ، وعرفت له جهاده فى سبيل حرية مصر واستقلالها . وخيانة الدول والرجال له فى أصعب المواقف وأشد الاحوال خطراً .



وإن للامير في تهنئة الأمة السلوة الكبرى . فقد تحولت الأنظار إلى التربية والتعليم ، وفتحت المدارس في كل صقع وبلد ، ودخل الشعب في طريق جديد وسبيل سعيد ، من دخله فقيراً خرج منه غنياً ، ومن سلكه ذليلاً اجتازه حراً .

وإذا ذكر التاريخ حكم العباس على صفحاته فلنما يذكر أنه أول أمير أرشد الأمة إلى محبة الوطن ، وأوقفها على مالها من الحقوق ، وما يجب أن تكون عليه من المجد الجليل والشرف الأئيل . وحسببه ذلك شرفاً وفخاراً أمام الشعوب والأمراء »

بهذه الالهجة الحلوة كان اللواء يتحدث عن العباس ، ولكن بلهجة مؤذية خشنة كانت اللواء تخاطب جبار الاحتلال . وإليك مثلاً واحداً من مئات الأمثلة على هذه الأخيرة .

نشر اللورد كرومر كتابه أو تقريره السنوى عام ١٩٠٣ فلاه ثناء على الاحتلال ، واستعرض آثاره في غضون عشرين عاماً من حياته في مصر . فأنبرت اللواء كعادتها للرد على هذا الكتاب في مقال لها عنوانه . ( بعد عشرين عاماً ) جاء فيه :

وقد طالعنا تقرير جنابه مطالعة باحث يطلب الحقيقة ، فوجدناه يطنب في الثناء على الاحتلال ، كأنه بهذا المديح أو الاطراء يكتب تاريخ حياته في هذه العشرين عاماً ، ويستلفت النظر إلى عمل هو القائم به وهو المشيد لأركانه (١) .

ماذا يريد المصرى أن يعرف من تاريخ خمس قرن مضى ؟  
يريد أن يعلم في أى حال كانت بلاده ؟ ولأى غاية دخلت انكلترة الديار المصرية ؟ وماذا فعلت فيها ؟ فهل أجاب جناب اللورد في تقريره على الأسئلة التى يسألها المصرى آنا بعد آن ، وتوردها الجرائد الحرة ؟

كلا — إنما طاف حول موضوعات راق له أن يمثلها في أبهى الألوان ،  
 ويزينها بأجل الأقوال . فرمى الزمن الماضى قبل الاحتلال بكل المعاييب ،  
 وخص هذه الأعوام بالحمد والتمجيد ، وفاخر العالم بالمالية المصرية ، وأعلن  
 عدم استعداد المصرى لاستلام أزمة بلاده ، ورغبة بعض المصريين فى ازدياد  
 عدد الموظفين الانكليز ، ونصح الشباب المصريين الذين لم يذوقوا مرارة  
 الحكم الغابر بالتأنى فى الحكم على الحاضر ، والاعتدال فى الثقة بمقدرتهم  
 وكفاءتهم .

وليس هذا كل ما يريد المصريون أن يعرفوه عن حالة بلادهم . إنما  
 يبتغى المصريون أن يعرفوا مستقبل النفوذ المصرى فى الحكومة ، ومصير  
 التربية فى مدارسها ، وحقوقهم أمام الحكم ، والنظام الذى ستسير عليه  
 البلاد لتوطيد أركان الأمن والعدالة فى جميع أنحاء ، ومقامهم فى السودان ،  
 ونصيبهم من الشركة بين مصر وانكلترا .

أعلن الانكليز عند دخولهم هذه الديار أنهم يرمون إلى توطيد عرش  
 الخديوية وتأييد الأمن ، وجعل المصريين أكفاء لإدارة شؤون بلادهم الخ .  
 فهل يستطيع جناب اللورد أن يقول إن الاحتلال هو الذى وطد عرش  
 الخديوية المصرية ؟

إننا لا نظن أنه مهما أراد أن يشرح صدور أبناء جنسه يقدر على  
 القول بأن عرش الخديوية وطيد الدعائم والأركان بفضل السلطة البريطانية .  
 ولا نخاله ناسيا أو متناسيا ما جرى من النزاع الشديد بين هذا العرش  
 السامى وهذه السلطة .

وإذا كان أثر الانكليز فى توطيد السلطة الخديوية ما نراه من موت  
 ( الوزارة المصرية ) ، وزوال وجودها الحقيقى فى أعمال الديار ، فحق على  
 كل إنسان أن يعلن سوء سياسة المحتلين ، ويقضى على كل دعاوى  
 الإصلاح والتقدم . لا جرم إذا قال جناب اللورد معنا فى سره ، وإن لم



يقول في جهره إن الاحتلال قتل النفوذ المصرى فى الحكومة قتلا كاملا ، وإن الموظف المصرى مهما سمى مكانته ليس إلا آلة فى يد الانكليز ، وإن نظاما هذا شأنه لا يؤدى مطلقاً إلى إظهار كفاءة المصريين . وأنى لهم ذلك وهم بين مصرى علم قبل الاحتلال بتهمة الانكليز له بالقصور والتقصير والجهل ، ومصرى تربى فى حجور المحتلين ، فهو يصنع كما يشاؤون ، ويعلم بغير لغة قومه ، ولا تلقى اليه مبادئ الاستقلال فى الرأى ، والشرف الذاتى ، والمطالبة بالحقوق — تلك المبادئ التى لا يكون الرجل رجلاً بغيرها « الخ وعلى هذا النحو سارت اللواء فى تأييد صاحب الحكم الشرعى فى مصر ، ومناهضة الحاكم الفعلى لها . وقد ضربنا على ذلك مثلاً واحداً فقط . وسيرى القارئ أمثلة عديدة أخرى ، سيأتى ذكرها فى موضعها من هذا البحث بمشيئة الله .

\* \* \*

وحين أثرت اللواء ، وبلغت مبلغاً عظيماً من هذا الثراء ، فكر صاحبها فى تزويدها بمطبعة من المطابع الحديثة . وكان ذلك عام ١٩٠٧ . يقول الأستاذ محمود عزمى : « وقد ظلت المطابع الصحفية فى مصر هي المطابع التى تدار باليد إلى وقت قريب . وكانت « الجريدة » لصاحبها لطفى السيد أولى الصحف التى استعملت مطبعة مزدوجة تدار بالتيار الكهربائى من نوع Duplex . وكان دخولها فى المطبعة المصرية حادثاً فارقاً بين عهدين . وكان ذلك سنة ١٩٠٦ . وقد كان هذا الحادث حافظاً للشيخ على يوسف على أن يدخل إلى مصر ما هو أضخم من الـ Duplex فادخل المطبعة العديدة الدورات Rotative

وأقام بمناسبة ذلك احتفالاً دعا اليه النظار والكبراء والعظماء . وكان ذلك سنة ١٩٠٧ . ثم كان هذا حافظاً بدوره لمصطفى كامل على أن يحذو حذو الشيخ على يوسف فيجلب اللواء وزميليه الفرنسى والانجليزى مطبعة

Rotative في آخر سنة ١٩٠٧ . ولا تزال المطبعتان قائمتين إلى الآن في مصر ببعض العمل الصحفي الخ « (١) .

\* \* \*

(وبعد) فهكذا كانت اللواء تدرك عظم المهمة التي أقيت على عاتقها ، وتحس خطورة الواجب الذي عليها نحو أمتها ، وتقود الرأي العام المصري أحسن قيادة وأحكمها ، مضارعة في ذلك أكبر الصحف الأوروبية والأمريكية في ذلك الوقت .

« قامت في فرنسا مناقشات حول أحسن الوسائل الدستورية لصيانة الحريات العامة ، وتدعيم الأنظمة المستقرة . فنشر (سينيوبوس) أستاذ التاريخ بالسربون مقالا في (مجلة باريس) سنة ١٨٩٥ ناقش فيها نظرية فصل السلطات كضمان للحريات ، وذكر فيه أن الجماعات قد استحوطت في القرن التاسع عشر بفضل تقدم العلوم والانتاج المادي والتربية والتعليم والصحافة استحالة سريعة لم يكن منتسكيو (صاحب نظرية فصل السلطات) يستطيع أن يحسب حسابها فيما قدره في بحوثه من تعاليم .

وختم الأستاذ مقاله بأن تاريخ القرن التاسع عشر قد كشف عن وسيلتين فعاليتين يستطيع بهما مقاومة ميول التحكم عند رجال السلطة التنفيذية .

أما الوسيلة الأولى فهي أمة ذات تربية سياسية متعوددة دقة الأخبار ، ومطالبة ممثلها ، مجبرة إياهم على أن يؤدوا لها حسابا عما يفعلون ، وأن يقيموا وزنا لارادتها الخ

وأما الوسيلة الثانية فصحافة نشيطة عندها علم كل شيء ، حريصة على أن تبحث وتنشر وتنفذ كل أعمال الرجال الذين يتولون الحكم ، وتكون ممتعة بالامستقلال بحيث لا يمكن أن يفرض عليها الصمت ، وتكون من



الغنى ومن السكثرة بحيث لا يمكن التأثير عليها عن طريق الرشوة . ومع مثل هذه الأمة ، وبمثل هذه الصحافة تأمن الدولة جميع أصناف الاستبداد» (١) والحق أن هذا وأكثر منه كان بعض ما أدركه صاحب اللواء حين فكر في إنشاء جريدته لتنهض بهذا العبء الذى وضعه على كاهلها . وكان للجريدة منذ نشأتها أهداف واضحة هي التي تحدث عنها محررها ، وفصلها في العدد الأول من أعداد جريدته .

ونستطيع نحن أن نلخص هذه الأهداف فيما يلى :

أولها — تقوية الحركة الوطنية المصرية .

ثانيها — الدفاع عن الاسلام ضد التهم التى تكيدها لها الدول الاجنبية .

ثالثها — توجيه رأى العام فى شؤون المجتمع المصرى .

ولقد آثرنا أن نخص كل واحد من هذه الأهداف بفصل من فصول هذا الكتاب ، وذلك قبل أن نصف الأسلوب الكتابى الذى دمج به الكاتب الشاب مقالاته القيمة المتنوعة .

\* \* \*

ولكن قبل الخوض فى هذه الأشياء يجمل بنا أن نشير إلى زميلتين عظيمتين لجريدة اللواء . إحداهما فرنسيه هي ( لتندار إجبسيان ) والأخرى إنجليزية هي ( ذى إجبسيان ستاندرد ) — أصدرهما الشاب المجاهد عقب حادثة دنشواى .

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار الجريدتين تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتب بها كثيرون من صفوة المصريين فى ذلك الحين .

وقامت الجريدتان بالواجب الذى أنشئتا من أجله يومئذ ، وهو الدعاوة لمصر وقضيتها فى أوروبا ، وإطلاع الرأى العام الأوروبى على حقيقة

الاحتلال البريطاني وعلى فضائحه أيضاً.

وكم أرغى اللورد كرومر هاتين الجريدتين وأزبد ، وراح يزعم لأوروبا كلها أن الجريدتين معاً من وحى الخديوى عباس وأنه ينفق عليهما من ماله الخاص ، ورد الزعيم الخالد مصطفى كامل على ذلك بأن نشر أسماء المساهمين في هذا المشروع العظيم . (١)

وظهرت الجريدتان فعلاً في مارس ١٩٠٧ وكانت الانجليزية تصدر في الصباح والفرنسية تصدر في المساء .

---

(١) راجع هذه الأسماء في كتاب ( مصطفى كامل ) باعثة الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعي ص ٢٠٣



## الفصل السادس

# الولاء والاسلام والدولة العلية

في مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٠٧ أقيم إحتفال بفندق الكونتنتال بالقاهرة لمرور ستائة وثمانى سنوات على تأسيس الدولة العثمانية . وحضره كثير من أعيان المصريين وبعض الأجانب وفي مقدمتهم الكاتب الفرنسى بيير لوتى . وقام صاحب الولاء خطيباً فى هذه الخفلة فحيا الدولة العلية أجمل تحية . ووصفها بأنها حامية الاسلام وأنها دولة العفو والغفران ، ودولة الرحمة والاخاء والحرية والمساواة بين بنى الانسان . ذلك أن السلاطين العظام قد ساروا على الخطة التى رسمها لهم صاحب الشريعة الاسلامية ، وهى خطة الخلفاء الراشدين ، وخطة كبار ملوك المسلمين . فساروا فى أعظم طريق ، وهذبوا أحسن شعب ، وسجلوا أجمل تاريخ .

ثم قال : نسمع الناس فى كل يوم يقولون إن بلاد الدولة العلية بلاد عظيمة فيها المناجم ، وفيها الخصب ، وفيها العقول القوية ، والنفوس العالية السامية . فما هو السبب الذى أوقف سيرها ؟

وقد أجاب دولة البرنس جيدر باشا فاضل على هذا السؤال بقوله الآن « إن السبب فى ذلك الوقوف هو الشقاق والافتراق . فالיום الذى نسود فيه جميعاً هو اليوم الذى يكون فيه السورى والكردى والتركى والألبانى والأناضولى متضامنين متكاتفين مدافعين عن أمتهم إلى آخر نفس من حياتهم ، ليكن الدين للاتفاق لا للشقاق ، وليكن سبباً للتقدم لا للتأخر .

ولكن إذا كان كل فرد من أفراد الأمة العثمانية يقول ( نفسى ولو كان بعدى الطوفان ) أو يقول ( أنا روسى السياسة أو فرنسى

السياسة أو انجليزى السياسة ، ولا يقول إننى عثمانى السياسة فلا أمل إذن فى الارتقاء ، لأن هذا الارتقاء لا يكون إلا بإيجاد الوحدة العثمانية الخ . ثم قال الخطيب : لا بد أنكم جميعاً سمعتم فى الشتاء والصيف والخريف والربيع المنتقدين علينا يقولون :

ما بال المصريين يحبون الأمة التركية ، ويتفانون فى تمسقها ، ولا يألون جهداً فى إعلان ذلك الحب ؟

فنحن الآن نجيب على هذا السؤال فنقول :

إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شىء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية . نحبا لأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمى المسلمين فى الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة . فملكه الخلافة الاسلامية هى فى الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التى إليها نلجأ ونحوها نتجه . وإذا قصرنا فى واجب نحوها نكون بلا ريب قصرنا فى أعظم واجب . نحب الدولة العلية لأنها يوم رأت مجد على والعلماء فى مصر يطلبون أميراً يحكمهم باستقلال احترمت تلك الدولة شعورهم ، وقدرت حبههم للاستقلال حق قدره ، ومنحت الشعب المصرى إستقلالاً لا يزال هو مطمحن إلى الآن . ولا يوجد فى مصر أيها السادة رجل يود أن يبيع استقلال بلاده ، تلك البلاد العزيزة التى تضم عظام أجداده وآبائه . ويستحيل علينا أن يطلب واحدنا مالكا أجنبياً عنا . فنحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية . ننصرها وتنصرنا . ونعزبها وتعزبنا .

ثم ختم الخطيب كلمته بالهتاف عالياً : لتحي الدولة العلية ، ولتحي مصر . وردد الحاضرون هتافه . (١)

معنى ذلك أن مصطفى كامل ومعه الكثرة الساحقة من الوطنيين المستنيرين فى مصر إلى ذلك الوقت كانوا يعلنون ميلهم إلى تركيا لأمرين :



الأول — نظرهم إلى الدولة العلية على أنها زعيمة الاسلام ، وحامية المسلمين ضد الدول الأوروبية التي كانت لم تزل إلى ذلك الوقت تنظر إلى المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها نظرة صليبية .

والثاني — اعترافهم بالجميل الذي أسدته تركيا إلى الأمة المصرية حين منحتها استقلالها ، ووافقت على الأمير الذي اختارته بنفسها وهو محمد علي . وقد لا يعنينا الأمر الثاني من هذين الأمرين بقدر ما يعنينا الأمر الأول . وهو نظر المصريين إلى الدولة العلية على أنها زعيمة العالم الاسلامي ولا بد لهذا العالم من قوة يواجه بها زحف الدول الأوروبية المسيحية ، وتوغلها في البلاد الاسلامية .

والحافظون للتاريخ يعرفون أن هذه الدول الأوروبية كانت منذ دخولها ، في الشرق تحسب حساباً عظيماً لهذه الحركات الاسلامية التي يقوم بها هذا الشرق ، والتي قد تؤدي يوماً ما إلى نشوب حرب صليبية تزيد من مشا كل أوربا ، وتضع العراقيل في طريقها إلى تنفيذ خططها الاستعمارية . وذلك هو السبب في أنه كثيراً ما أوجس السياسيون الأوروبيون خيفة من حركة ( الجامعة الاسلامية ) أو تظاهروا على أقل تقدير بالخوف من تلك الحركة . ففهم من كان يؤكد حدوثها ، ويفسر كل حادثة تحدث في البلاد الاسلامية على أنها تمهيد لها ونذير بنشوبها . ومن هؤلاء اللورد كرومر نفسه في كثير من تقاريره وأحاديثه .

ومن السياسيين من كانوا يرون أن الدول الاسلامية أضعف من أن تقوم بحركة ( جماعية ) . وكان هؤلاء السياسيون يدركون الهدف الأول لكل حركة من تلك الحركات الاسلامية في كل بلد من البلاد الشرقية . ويرون أن هذا الهدف بعيد في جوهره عن فكرة الجامعة الاسلامية ، متصل كل الاتصال بحاجة من حاجات هذا البلد الشرقى أو ذاك من بلاد الجامعة الاسلامية . وكثيراً ما صدرت جريدة اللواء أو جريدة المؤيد وفي فاتحة

كل منها مقالة من هذا الطراز ترجمت من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية .  
وإلى القاري، نبذة صغيرة من مقال نشرته جريدة التريبيون الانجليزية  
بمعنوان ( أوروبا والاسلام ) ، ( وذلك في عددها الصادر في ٢ يناير ١٩٠٧ )  
وقامت مجلة العالم الاسلامي بترجمته إلى العربية . (١)

استعرضت هذه الجريدة الانجليزية حركات المسلمين في مراکش ومصر  
والهند وإيران ، ثم قالت :

ففي مراکش أصبح المراكشيون مقتنعين تمام الاقتناع بعجزهم عن  
مقاومة أوروبا ذات الجيوش المسلحة المنظمة ، لأنهم لا يجدون وراءهم قوة  
تشد أزهرهم ، وتسند ظهرهم ، وتقوى شأنهم . وعلى ذلك فالظن بإمكان  
حدوث حركة إسلامية في مراکش ظن بعيد عن الاحتمال . وجدير بمن  
يتمسك به أن يرمى بالجنون والطيش . ولو أن بعض ما يقال عن الجامعة  
الاسلامية كان حقاً لاستدعى سير السفن الفرنسية الأسبانية إلى مراکش  
هياج العالم الاسلامي كله ، ونهضة المسلمين عن بكرة أبيهم للدفاع عن  
إحدى ممالكهم ، ولقام السنوسي يدعو المسلمين إلى الجهاد الخ .

وقد دل عدم حدوث شيء من هذا على أن تلك النهضة - وإن كانت  
موجودة في الأفطار الاسلامية - فليست بحال من الأحوال موجهة ضد  
المسيحيين ، وليست حركة تعصب مطلقاً .

أما مصر ففيها حركة وطنية - ولكن هذه الحركة لا علاقة لها  
بالدين ، وإن كان المصريون مسلمين ، ذلك أن الأمة المصرية نهضت للمطالبة  
بدستور ومجلس نيابي ( كما يقول رجالها المعتدلون ) وبوفاء وعود المستر  
غلادستون ( كما يقول رجالها الأشدغيرة وتحمسا ) .

وأما في الهند فالحركة عبارة عن نهوض المسلمين لتأليف جمعية أو اتحاد  
يبحث بعضهم بعضاً على الائتلاف وتحسين حال التعليم . وقد يشتم من خطتهم



الميل لمقاومة حركة الهندوس المتطرفين . وقد دل برناج هذا الاتحاد على أن أعضائه متفانون في الطاعة لانتجلته ، وأن إخلاصهم وإعتداهم يعادلان هياج الهندوس وتطرفهم .

وأما في إيران فالحركة الدستورية قد ازدهرت قوتها في هذه الأيام الأخيرة . ولكن لا يمكن أن تكون لها بالحركتين المصرية والهندية أدنى علاقة لسبب بسيط جداً ، وهو أن دين المعجم يخالف دين المسلمين الأصليين مخالفة ظاهرة . (١)

ولسنا نرى في هذه الحركات كلها شراً موجهاً نحو المسيحية ، فضلاً عن خلوها بالمرة من روح التعصب المذموم .

إن نهضة تلك الأمم ترمى إلى تفسير القرآن بحيث يفهمه الكل . والمسلمون في الحقيقة الآن يعملون ما كان يعمل المسيحيون للتوفيق بين العلم والدين . وبالجمل فلهذه الحركة التي نراها الآن حركة سلمية ، غرضها مسالة التعاليم الغريبة التي هجمت على مصر هجمة واحدة . وغرضها تنقية دين الاسلام مما علق به في الماضي ، مما كان سبباً في اتهام أهله بالتعصب ، وبغض الغير . فإذا قيل لنا إن الوطنيين المصريين متعصبون فيكفينا أن نذكر أنهم الآن يجمعون مالا لتأسيس جامعة حرة تسير على خطة جامعة عليكرة الهندية . وهذه الجامعة سوف تحارب التعاليم المتأخرة التي تخرج من تأثير الجامعة المصرية القديمة المسماة (بالأزهر) .

وربما كانت الحركة المصرية حركة سياسية محضة ، لأننا لما دخلنا مصر وجدناها في يد حكومة دستورية ، ولا يزال تأثير هذه الحكومة الدستورية إلى الآن ظاهراً للعيان . ولكن المصريين الوطنيين يطالبون بالمطالب التعليمية نفسها ، ويحاربون المسلمين من ذوى الأفكار القديمة التي عرضتهم للفشل ولمزاحمة الأجانب المتعلمين ، كالسوريين واليونانيين .

(١) ردت مجلة العالم العربي على ذلك بعبارة كتبها بين توين وهي ( هذا غير صحيح فكلنا مسلمون )

وقد يمكن أن يقال إن إختلافهم مع وكلائنا سبب إتحادهم مؤقتاً مع تركيا . وقد يمكن أن يقال إنهم بمحاربتهم لأجل تحقيق أفكارهم الوطنية اضطروا كما اضطروا من يماثلهم إلى التطرف والحدة . ومع هذا وذاك فإن نفوسهم نفوس أحرار . ويستحقون مد يد التعضيد والانعطاف ، كما مدت فرنسا يدها لأمثالهم من المسلمين في تونس » « انتهى المقال »  
قرأ مصطفى كامل كل ذلك ، وفكر تفكيراً عميقاً في كل ذلك ، ثم كتب يقول :

« الخلافة الاسلامية هي لكل مسلم السلطة العالية التي يستمد منها القوة والنور والهداية ، والحصن الحصين الذي يسان به الاسلام ، ويعتز بين المسلمون ، والقائم بأمرها ، والعامل لاعلاء شأنها ، فيجب أن يكون موضع إجلال كل مسلم . ويجب مساعدته وتعظيمه بالنفس والنفيس ليم له الغرض الشريف الذي يعمل لتحقيقه ويسعى لبلوغه . وقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الاسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها ، وتدمير بنائها ليسهل لهم استعباد أبناء الدين الاسلامي الكريم ، وإملاك بلاده وربوعه ، والاسترسال في الاعتداء على الدولة العلية . الخ »

ومصطفى كامل هو القائل في كتابه ( المسألة الشرقية ) : ( ١ )  
« والحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى ، وإن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق » ثم هو القائل :  
« ولقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها — لا قدر الله — يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار ، وأن هدم هذه

( ١ ) المسألة الشرقية - الجزء السابع من كتاب مصطفى كامل في ٣٤ ربيعاً - مؤلفه على



المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين، وحروب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صيبانية»

ومع هذا وذاك فقد كان هناك رأى آخر مخالف لرأى صاحب اللواء في هذه المسألة . وكان القائل بهذا الرأى هو الأستاذ احمد لطفى السيد صاحب « الجريدة » . لسان حال حزب الأمة . وكان من رأى ذلك الحزب أن مصر لا ينبغي لها أن تربط نفسها بعجلة الأباطورية العثمانية ، وأن من الخير لها أن تستقل بنفسها عن تلك الأباطورية . ولكن يظهر أن هذه الفكرة كانت مبكرة ، وأن صاحبها الأستاذ احمد لطفى السيد كان سابقا للوقت الذى ظهرت فيه بزمن غير يسير . ومن ثم كان الرأى العام المصرى أميل إلى رأى صاحب اللواء منه إلى رأى صاحب الجريدة ، وإن ظهر فيما بعد أن الأخير كان صائب النظر فيما ذهب اليه . ولا يتسع المجال هنا للموازنة التامة بين هذين الرأيين ، ومقارنة ذلك بالظروف المحيطة بهما . فكان ذلك الجزء السادس من كتابنا إن شاء الله .

\* \* \*

هكذا نرى أن كثرة المصريين أخذوا يغلفون الشعور الوطنى بغلاف إسلامي . وذلك منذ عهدهم بالأفغانى وعربى وعبد عبيد ورشيد رضا ثم منذ عهدهم بآبراهيم المويلحى وعلى يوسف ومصطفى كامل . وكان كل واحد من هؤلاء يتجه فى حركته الإصلاحية التى قام بها إتجاهها إسلاميا لا شك فيه . كما كان كل واحد من هؤلاء يرى فى إحياء الاسلام الوسيلة الوحيدة للنهوض بجميع الشعوب الضعيفة التى تعتنق هذه العقيدة .

أجل كانت ( حركة إحياء الاسلام ) غالبة فى أول الأمر على ( حركة الوعى القومى ) وذلك فى كل بلد من البلاد الشرقية الاسلامية ومنها مصر . ولكن بقى المصريون على هذه الحال حتى جاء مصطفى كامل وأمال

بشكلتا يديه قصبة الميزان ، فرجحت كفة الوعي القومي على كفة الوعي الاسلامي . ولعل ذلك بعض ما عناه الخديوى عباس حيث قال :

« كان مصطفى كامل قد جرد وطنيته من كل رداء ديني . ولكن ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن . أما على يوسف فانه برغم ثقافته الدينية البهتة قد عرف كيف يتخلص من الطابع الاسلامي الذي يبق عند مصطفى كامل . ومع أن الأخير تربى في أوروبا فقد كان يستخدم النظريات الأوروبية كوسيلة ، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها » . (١)

ونحن نرى أن مصطفى كامل مزج — فيما نرى — عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية مزجا ليس إلى إنكاره من سبيل . وقد أوضحنا ذلك في فصل عنوانه « العقيدة السياسية عند مصطفى كامل » . ومن هنا جاءت عناية الرجل بالاسلام والمسلمين كما جاء اهتمامه بالدولة العلية على أنها حامية هذا الدين .

وهنا يجدر بنا أيضا أن نجيب عن سؤال يتردد في أذهان المهتمين بسيرة هذا الزعيم . وهذا السؤال هو :

ألم يكن في وسع مصطفى كامل أن يتخلى عن فكرة السيادة العثمانية تخليا تاما ، ويدعو إلى استقلال مصر استقلالا كاملا ؟

أجاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن هذا السؤال في فصل كتبه تحت عنوان (٢) ( مصطفى كامل وتركيا ) . ويمكن تلخيص هذا الفصل في النقاط التالية : أولا — أن مركز مصر الشرعى إلى الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المسكوفول من الدول ، وضمان عرش مصر في أسرة محمد على وبقاء السيادة العثمانية عليها . وحين وقع الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ عصفت بالاستقلال الذى تعترف به هذه المعاهدة ، ونزل بها إلى مرتبة

(١) مذكرات الخديوى عباس كما نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

(٢) هو الفصل الثامن عشر من كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٩٠



المستعمرات التي للحاكم العام البريطاني مطلق التصرف فيها . وعلى هذا فالتمسك بهذه المعاهدة هو السبيل الوحيد لمطالبة الانجليز بالجلء ، وعدم التمسك بها يجعل الانجليز في حل من فرض حمايتهم على مصر .

ثانيا — أنه حين قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان عليه أن يكافح في جبهة واحدة ضد إنجلترا ، لا في جبهتين ضدها وضد الدولة العثمانية في وقت معا . أى أن عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كان هو الخطة الحكيمة لمن أراد مناهضة الاحتلال البريطاني والعمل في سبيل الجلء والاستقلال الحقيقى . أما التخلص من السيادة التركية فانه يكون بعد ذلك أمرا في غاية السهولة . فلقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها فعلا عقب الحرب العظمى وقبول تركيا مبادئ الرئيس ولسن سنة ١٩١٨ .

ثالثا — أن للمسألة المصرية شكلا دوليا لا يمكن إغفاله بحال ما . وكل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائما دولية ، لأن مركز مصر يقضى على الدول بالاهتمام بها . وقد أخذت الدول تطلب إلى ألمانيا أن تغير خطتها حيال المسألة المصرية ، وتدعوها إلى الاهتمام بها بدلا من إهمالها . وذلك لأهمية قناة السويس ، وما يكون للدولة التي تضع يدها عليها من النفوذ والقوة . ومن ثم بنيت سياسة مصطفى كامل على رقب الحوادث الدولية ، وضرب بعضها ببعض لترجح القضية المصرية من وراء ذلك .

رابعا — أن في وسع تركيا — لو أرادت — أن تعقد مع إنجلترا اتفاقا وديا كالاتفاق الذي عقد سنة ١٩٠٤ بين فرنسا وإنجلترا . ويومئذ تزداد المسألة المصرية تعقدا ، ويصعب حلها مدة كبيرة جدا من الزمن . وعلى ذلك جرت سياسة الزعيم الشاب مصطفى كامل ، وغنه صدرت جميع مقالاته وخطبه وأحاديثه ، ورسالاته ومذكراته .

من ذلك على سبيل المثال ما كتبه الرجل في اللواء بتاريخ (٦ أكتوبر سنة ١٩٠٦) رداً على جريدة أوروبية حيث قال :

« لقد أخطأ المحرر كثيراً بقوله إننا نريد حرية مصر لاعادتها إلى حكم الأتراك . فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن نعطفنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا أو أفعالنا . ولست أجد لأخام خصوصى غير طرح هذا السؤال البسيط : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازات تركيا عن حقوقها لانجلترا ؟ أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ . . وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف ، فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة إتباع هذه الخطة ؟ »

وكثيراً ما صرح مصطفى كامل أن سياسته تقوم على محاسبة الدولة العلية ، وعلى التحالف معها لا لشيء إلا لأن فى ذلك الضمان الوحيد من الوقوع فى الكوارث التى تسببها الألاعيب الانجليز من وراء (الكواليس) كما يقول رجال المسرح الحديث .

وقد أوضح الرجل طرفاً بسيطاً من هذه الألاعيب الانجليزية الخطيرة فى حديث له مع مراسل جريدة النيويورك هيرالد الأمريكية (١) حيث قال : « إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية — وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون — هى سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها . والتاريخ يعلمنا ألا نتبع حيالها غير هذه السياسة ، لأنه إذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولاشك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا . وقد نجح الانجليز فى التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين . فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدوه يعمل



لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه ، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر محمد علي . وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ، ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية . فلما قامت الحركة العرابية رأى الإنجليز من تمام المهارة وتوسيعا لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له . فسمعوا عند السلطان — سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الأول . وكان عرابي يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر وقد أوغر هذا الأمر صدر الخديو توفيق ، وألقاه في أحضان الإنجليز . وهام الإنجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان ولكن ما نعهده في أميرنا الحالي عباس الثاني من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية ، وهي السياسة التي في اتباعها سلامة الكرسي الخديوي وسلامة الوطن المصري . »

ومع هذا وذاك فلا يبعد في نظرنا أن يكون الشاب مصطفى كامل في أولى سني جهاده مؤمناً بالسيادة العثمانية . ثم عدل بعد ذلك عن هذه السياسة حين ظهر له خطؤها أولاً وأنها لا تتفق والرأي العام الذي أصبح له وجود ما بعد ذلك . يدلنا على هذا قول الخديو عباس في مذكراته :

« وقد انزلق مصطفى كامل في أثناء قيامه بدعابته إلى إدراك خاطيء للوطنية المصرية . وكان التقرب الذي ينشده مع تركيا يتخذ صورة أقرب إلى التنازل منها إلى الأمل . ولكنه عندما وجد من يفهمه ذلك استبدل بسياسته التي كانت تركية الطابع إلى حد كبير إدراكاً وطنياً سليماً . وقد تطور براءة فائقة جعلت تلاميذه يتبعونه دون أن يفتنوا إلى الخطأ الأول (١) . »

نحمل بنا بعد كل ذلك أن نلقى نظرة عامة في أعداد اللواء لنعرف الحيز الذي شغله الاسلام بهذا المعنى من صفحاتها ، ونرى الطريقة التي عرض بها صاحب اللواء أفكاره الاسلامية فيها ، ثم نتبع هذا كله بمقال أو اثنين على سبيل المثال .

أما عن هذا الحيز الذي شغلته المقالات الاسلامية في صحيفة اللواء فإن نظرة عجيلى إلى أعدادها في السنوات الثماني الأولى من حياة الرجل تدلنا بوضوح على أن المقالات ذات الطابع الاسلامى كانت هي السائدة على الصحيفة في العامين الأولين من حياتها على الأقل . ثم أخذت هذه المقالات تقل شيئاً فشيئاً ، وزداد عناية الصحيفة بالمقالات الوطنية والاجتماعية شيئاً فشيئاً ، حتى كانت السنة الأخيرة من حياة اللواء على عهد مؤسسها مصطفى كامل فوجدنا أن النسبة بين الاسلاميات من جهة والوطنيات من جهة ثانية كالنسبة بين عشر مقالات للنوع الأول ومائة مقال للنوع الثانى

ففي السنة الأولى نجد مقالات

سلامة الدولة العثمانية — اتحاد كلمة المسلمين — مصلحة الدولة العلية — أوروبا والاسلام — من الرجل العليل — ناموس الترقى في الاسلام — كيف يقوى الاسلام من ضعفه — كلمات في سبيل الاسلام — كيف يحيا الاسلام — كيف قامت الدولة العلية — المدنية الغربية والاسلام — سلامة الاسلام — مسألة بلغاريا — قوة الخلافة الاسلامية — أخبار مؤتمر اسلامى — أعداء الاسلام — فرنسا والاسلام — مصر والاسلام — كيف كانت حالة العالم لو لم يفتح المسلمون — السر في بقاء الدولة العلية الى ما شاء الله — الاسلام والتعصب عدوان — من الجانى على الاسلام والمسلمين — بم نقيم البرهان على سمو الاسلام — شكوى المسلمين في البوسنة والهرسك — مسلمو البوسنة والهرسك — دعوة عامة إلى المسلمين — الحركة الاسلامية الموهومة — كلمات في سبيل الاسلام — عيد الخلافة والاسلام — قوة الخليفة بين المسلمين — الاسلام أمس واليوم —



مصر والدولة العلية — الخلافة والاسلام — هل ينشط الاسلام — بقاء الدنيا موقوف على بقاء الدولة العلية — تأثير الأراجيف على عقول المسلمين — كيف يحيا الاسلام — الروح الجديدة في الاسلام — أوروبا وهمة التعصب الديني — المسلمون والاسلام — سياسة فرنسا في الجزائر — العروة الوثقى — الاسلام والامير عبدالرحمن — الدين والجامعة — كيف تغلب الغرب على الشرق — المسلمون في الصين .

ثم في السنة الثانية نجد مقالات : —

الدولة العلية ومسلمو الصين — أوروبا والاسلام — المسلمون في جاوة — شكوى المسلمين في تونس — السلطنة والدين والاستعمار — المسألة الصينية والاسلام — الاسلام في افريقيا — الاسلام دين التسليم — شكوى إلى أمير المؤمنين — الحالة في البلقان — حديث مع أمير الجبل الأسود — الاسلام في الصين — المرأة المسلمة — مصلحة الاسلام — حركة علمية بين المسلمين — مقابر المسلمين — يقظة أفكار المسلمين — تأثير الخلافة على المسلمين — المسلمون في الجزائر — تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم — مسألة اليوم في الدولة العلية — أثبات ضعف الحكومات الاسلامية — تأثير الدين على الأخلاق المحالفات الأوروبية في البلقان — دعوا تركيا والاسلام — ماذا يؤمل الاسلام — التبشير والاسلام — الارشاد للدين ( كلمة لمشيخة الأزهر ) — الروسية والدولة العلية — الخلاف بين الباب العالي وفرنسا — تركيا وفرنسا وجمالة السلطان — بين المسلمين — أوروبا والاسلام — مستقبل الاسلام — حالة المسلمين المسلمون في الصين — القضاء والقدر — أوروبا والاسلام — هل ينشط الاسلام — مستقبل الاسلام .

وفي السنة الثالثة من حياة اللواء نجد مقالات : —

مصالح الدولة والاسلام — الانشاء والخطابة في الاسلام — إلى بني الاسلام — مستقبل الاسلام — المسلمون في البوسنة — رجوع أوروبا إلى الاسلام —

نايليون والاسلام — الوطنية العثمانية — الاسلام بالسultan — الجناب العالى والاسلام — التحالف الثلاثى والحالة فى البلقان — الاتحاد الاسلامى — مسألة الخلافة — مسلمو البوسنة واهرسك — سلامة الدولة العلية — شكوى مسلمى كريد — انجلترا والاسلام — الشيخ سنوسى بالدين سخيا — المسلمون فى زنجبار — المسلمون فى روسيا — غاية أوروبا من الاسلام — الدولة العلية وبلغاريا — فرنسا والاسلام — اعتراف مسلم — أوروبا والاسلام — المسلمون والاسلام — أوروبا والاسلام .

وفى السنة الرابعة :

رجوع أوروبا إلى مبادئ الاسلام — الانجليز والاسلام — الانجليز وجهود المبعوثين المسيحيين — الدين والسياسة — حقوق المسلمين فى مصر — مولد النبى عليه الصلاة والسلام — مسلمو الجزائر — ما معنى التعصب — العلم والاسلام — قوة الخليفة — الاسلام والاستقلال — كيف ترفع راية الاسلام — عيد الاسلام والمسلمين — بين أمريكا ودولة الاسلام — الجامعة الاسلامية — أوروبا والاسلام — غاية أوروبا من الاسلام — سفينة الاسلام — الوحدة الاسلامية — تعصب الصليب ضد الهلال — الاسلام . الاسلام — اضطهاد الصليب للهلال — مصلحة الاسلام — مسألة مراکش — انجلترا والاسلام — استيلاء الانجليز على بلاد النيجر الشمالية الاسلامية — ( أيها الحكام سارعوا الى رد هذا الاعتداء عن الاسلام ) — فظائع هولندة ضد المسلمين — هولندة والمسلمون

هذا — وقد امتازت تلك السنة من حياة اللواء بكثرة الكتابة فى المسألة المقدونية ، وهى فرع من فروع المسألة الشرقية ، حتى بلغ عدد المقالات التى كتبت فى هذا الموضوع أكثر من خمسين مقالة . فلا حاجة بنا إلى ذكر عنواناتها .

وفى السنة الخامسة :

الاسلام : ماضيه وحاضره — انعطاف المسلمين نحو الدولة العلية — استبداد



النمسا بمسلمي البوسنة والهرسك — لكم دينكم ولي دين — رفع دفاع المؤيد  
( عن مجلة بشائر الاسلام الطاعنة على دين الاسلام ) — الحروب الحاضرة  
والاسلام — المسلمون في روسيا — المراكش في أمان — مسلم صيني — فوضى  
المبشرين — نجوى المسلمين لأمير المؤمنين — ارزاء المسلمين — المسألة المراكشية —  
مستقبل الاسلام في العالم — المجاهرة بالالحاد ( ونسكران الأديان ) — ثلاثون  
عاما في الاسلام — طريق من الورد وطريق من الشوك : أيهما تسلك الدولة  
العلية — الأسطول الإسلامي — مصر والشرق والاسلام — مستقبل المسلمين —  
الخلافة والمسلمون — لاعانة الأسطول الاسلامي — مصر والاسلام واليابان —  
الخلافة والانجليز — المسلمون في روسيا

وفي السنة السادسة :

ممالك الاسلام — فرنسا في مراكش — اللغة العربية ودولة الاسلام —  
المسلمون في روسيا — فرنسا والاسلام — الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية —  
مستقبل مراكش — الاسلام والاتحاد — المسلمون يأكل بعضهم بعضا —  
الغريون والممالك الاسلامية — المسلمون في تركستان — بين مسلمي الهند —  
الأزهر والاسلام — مسلمو الصين — الشعور الاسلامي حيال عيد الجلوس  
السلطاني — رأى المسلمين في المسألة المراكشية — مسلمو الصين — أنفع سياسات  
المسلمين — الاسلام في اليابان — السياسة الفرنسية والعالم الاسلامي —  
الامبراطور غليوم والاسلام — التنصر بالقوة — أوروبا والدولة العلية —  
لماذا تناهض أوروبا الدولة العلية — اتفاق دول وأمراء الاسلام — عداوة  
انجلترا للاسلام — الشعور الاسلامي — الازمة المقدونية

وفي السنة السابعة :

الشعور الاسلامي — في سبيل الاسلام — الدولة العلية وانجلترا — مسألة  
الخلافة العربية — المسلمون في الجزائر — المسلمون المصريون — المسلمون  
والاحتلال — الامبراطور غليوم والاسلام — مسلمو الهند ومسألة طورسينا —

الجامعة الاسلامية — فرنسا والاسلام — عمل إسلامي جديد — الجامعة  
الاسلامية — بريطانيا والاسلام — انجلترا والجامعة الاسلامية — حركة الجامعة  
الاسلامية في مصر — الجامعة الاسلامية — بريطانيا العظمى والاسلام  
وفي السنة الثامنة : —

الجامعة الاسلامية والمسلمون في شمال أفريقيا — الممالك الاسلامية والدولة  
العلية — المانيا والاسلام — نهضة الاسلام — نظرة في تقرير اللورد كرومر من  
الوجهة الدينية — الشرق في الاسلام — الجامعة الاسلامية — يقظة الشعوب  
الاسلامية — أصوات مرفوعة إلى جلالة أمير المؤمنين .

\* \* \*

تلك هي مجموعة المقالات التي نشرتها اللواء في موضوع المسلمين  
والاسلام . ولا يفوتنا أن نضيف اليها تلك المقالات التي نشرتها هذه  
الصحيفة بعنوان ( حماة الاسلام ) ، وبمناوات ( بم نقيم البرهان على سمو  
الاسلام ) وهي نوع من الدفاع عن الجانب الروحي في العقيدة الاسلامية ،  
وبعنوان ( عيد الخلافة والاسلام ) وهي مجموعة التهانى التي درجت اللواء على  
أن تبث بها إلى السلطان العثماني كل عام في عيد ميلاده ، وبعنوان ( بريد  
الاسلام ) وفيه تعنى اللواء بأخبار المسلمين في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

\* \* \*

أما الطريقة التي عرض بها صاحب اللواء كل هذه الأفكار فكثيرة .  
منها التقرب إلى بعض الشخصيات الأوروبية الهامة التي اشتهرت بميلها إلى  
الشرق والاسلام واستكثابها أحياناً في هذه الموضوعات . ومنها الاقاضة  
في سير عظماء الاسلام وتناول هذه الشخصيات بالعرض والتحليل ليعرف  
المسلمون ماضيهم ، ويدركوا شيئاً من جوانب العظمة الحقيقية في كل واحد  
من أولئك الرجال . ومن ثم مضت اللواء تنشر مقالات مستفيضة في حياة  
الرسول ، وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة القواد المعظم كخالد بن الوليد



وأبي عبيدة بن الجراح، وحياة الصالحين من الخلفاء الأمويين، فاختلفاء  
العباسيين. ثم جمعت هذه المقالات كلها في كتاب (حماة الاسلام). (١)

\* \* \*

بقي أن نقرأ لصاحب اللواء بعض النماذج على سبيل المثال ومنها مقالة  
له بعنوان :

### انحرار كلمة المسلمين (٢)

... على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام  
والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فم يشتكى  
المسلمون؟ نشتكى معاشر المسلمين من أن أوروبا المتحضرة لا تعاملنا كما  
يجب أن يعامل بنو الانسان. نشتكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى  
الاصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى. نشتكى  
من أنها تكبرها كراهية دينية شديدة، وهي المنادية بمبادئ العدل  
والحرية والمساواة. نشتكى من أنها تقصد إبادةنا كما تباد الحيوانات  
الضارة، وكما أييد الهنود في أمريكا وهم أصحاب البلاد الأولون. نشتكى  
من كل أعمال التمدن والمدنية، وبودها لو كنا غير شاكين. هذا ما نشتكى  
منه فم تشتكى أوروبا؟

أتشتكى من أننا سلمنا إليها بلادنا، ووثقنا بأقوالها ووعدوها.  
أتشتكى من أنها سادت علينا بارادتنا، وهضمت حقوقنا، واستنزفت  
أموالنا، وضيق علينا في حياتنا؟ أتشتكى من أننا نحسن للمحسنين في  
الشرق، ولعدوهم إخوانا لنا؟ أتشتكى من اعتدالنا وتساعنا وهي معنا ظالمة  
قاهرة. هذه مصر أعز بلاد الاسلام على المسلمين، وأرقها في المعارف

(١) صاحب هذه المقالات هو أحمد بك نجيب

(٢) اللواء : العدد الخامس في ٧-١-١٩٠٠

والآداب قد سارت في طريق المدنية الغربية، ووثقت بالأوروبيين أكبر ثقة، وعين أمراؤها من بني الغرب حكما وسواسا، وفتحوا أبوابها وأبواب السودان لكافة الأوروبيين بما فيهم المبعوثون الدينيون.

فإذا كانت نتائج هذه الخطوة ؟ وماذا جنت مصر من ثقتها بالغرب وأهله ؟ . كانت نتيجة خطتها وثقتها بالغرب وأهله أنها صارت في قبضة الاحتلال البريطاني ضائعة الحقوق باكية ، مجدها الشايع واستقلالها المحبوب .

فيا كتاب أوروبا وسواسها : قبل أن تحملوا على الدولة العلية وتسموها دولة الهمجية والتعصب إسألوا أنفسكم بالله عليكم : هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر معشار ما يلاقىه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية ؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين ؟ إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالك يا كتاب المدنية الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهم ؟ وما بالك لا تعرفون للحقيقة مقاما ؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة إحتراما ؟ اللهم إن كل المسلمين في كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم ، آسفون على ضياع استقلالهم ، ساعون في تحسين أحوالهم . ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك ؟ نحن نصرح في كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين ، وأن الهييجان والاضطراب والفتنة أشد خطرا على سلامتهم من كل الأخطار .

\* \* \*

وإلى القارئ نموذج آخر من مقالات صاحب اللواء في موضوع الاسلام بعنوان :



اوربا والد سلام

أو

كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ (١)

« إذا وقف الشرقيون امام التاريخ وتمثلوه شيخاً كبيراً هزماً حكيماً  
ليبيا خبيراً بالأمم وحياتها وسبب مجدها وعلة شقاءها ، وسألوه هذا السؤال :  
كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ لأجلهم ولا محالة : تغلب الغرب على الشرق  
بخيانة أبناء الشرق . نعم لا تلوموا أيها الشرقيون الغربيين إلا بعد أن  
تلوموا أنفسكم ، ولا تسخطوا على المسيطرين من الأجانب عليكم إلا بعد  
أن تسخطوا على حكامكم واغاثنيين منكم . فداء الشرق خيانة رجاله ، وقادة  
زمامه . ودواؤه عدم استسلام أممه لمن يلقى بهم في هاوية الدمار والفناء  
ويحكم فيهم الأجانب والأعداء .

قرأ القراء بمزيد الأسف رسالة ذلك المسلم الفاضل الذي أراد أن  
يشرح لهم آلام الشعب الاسلامي في « البوسنة والهرسك » وأجمعوا جميعاً  
على ان آلام المسلمين واحدة ، سواء كانوا في مشارق الأرض أو في مغاربها ،  
وأيقنوا ان علة العناء والبلاء متحدة ، الا وهي خيانة الرؤساء والكبراء !  
ترى العلماء وهم الذين كان يجب أن يكونوا ورثة الأنبياء صلاحاً وتقوى  
وإيماناً أصبحوا آلات لحكام النمسا ضد أبناء دينهم المسلمين . فبهم  
استطاعت الحكومة النمساوية أن تخرب مدارس المسلمين ، وتقلب التعليم  
الاسلامي ، وتقطع الصلات والعلاقات بين الأهالي وجلالة متبوعهم الأعظم .  
والكبراء هم قادة الأمة في كل بلد أصبحوا كذلك في البوسنة والهرسك  
عمالاً للنمساويين ضد دينهم ووطنهم وقومهم . فبأي وجه تلوم الغربيين  
والداء منا ، والبلاء مدبر بأيدينا ، ونحن علة الشقاء ؟ ماذا نقول للغرب إذا

قال لنا ساسته وحكامه : إنما نحن قبضنا على أزمة دياركم بارادة كبرائكم وعظمائكم وأصحاب الشأن منكم ؟ نعم إن الغرب بالغ في الاحتيال ، ولكن اللوم الأكبر على الذين قبلوا أن يكونوا مخدوعين خائنين خادمين لاهوائهم الذاتية بدلا من أن يكونوا خادمين لأوطانهم وديارهم !

هذه مصر زهرة الاسلام وكوكبه الوضاء كيف تغلبت انكثرا عليها ؟ وكيف تمكنت سطوتها في إدارتها ؟ وبم تمت لها الكلمة في أرض الفراغة ومهد العلوم والعرفان ؟ لم تغلب إنجلترا علينا وتتمكن سطوتها فينا ، وتم كبتها في بلادنا إلا بمعونة الخائنين منا ، المستسلمين لها الجاهلين لحقوق البلاد ومصالحها ، الذين باعوا ويبيعون دينهم ويبيعون وطنهم وشرفهم بثمن بخس دراهم معدودة ينقدونها في آخر كل شهر .

عرف الغريون خبايا الأمور في الشرق ، واكتشفوا ما استتر في الضمائر ، وأيقنوا ان للخيانة في بلادنا أنصارا كبارا فعمدوا اليهم واتخذوهم أصدقاء . أصفياء ، واستعملوهم آلات قاطعات لتدمير الاستقلال الوطني ، وهدم المجد الأهلي فأفلحوا ، وكيف لا يفلحون والأمة تحسب هؤلاء الخونة قادة لها ، هم تقتدى ، وحكاما مرشدين بهم تسترشد وتستشير .

وأذكر اني لم اقرأ في حياتي كتابا اثر على فؤادي واستبكاني على حال الاسلام والمسلمين مثل كتاب ألفه رجل فرنساوي كان دخل بحيلة على المرحوم ( عبد القادر ) بطل الجزائر الشهير ، وتمسك من التقرب منه حتى سهل لقومه الفرنسيين التغلب على الجزائريين ، والانتصار على قائدهم الهام . قال ذلك الكاتب في كتابه بعد كلام طويل عن طرق استعباد الغرب للشرق ، واخضاع أوربا للمسلمين ما معناه :

« إن السبب الأكبر في قيام الجزائر ضدنا واستمرار جهاد أبطالها لانقاذ بلادهم من أيدينا هو أننا عندما دخلناها هدمنا حكومتها الأهلية ، ووقفنا أمام العرب موقف الأعداء . الألداء على أننا لو كنا سلكنا مسلك



الرشد والحكمة ، وأبقينا الحكومة الجزائرية واستعملناها آلة لنا ،  
 وستاراً نخفى وراءه لكننا أخضعنا البلاد بواسطتها في أقرب زمن ، وحقنا  
 دماء جنودنا الاشداء . وقد تنبه حكامنا لهذه الحكمة الساطعة فعملوا بها في  
 الديار التونسية ، وأبقوا حكومة الباي وعضدوها بالقوة واختفوا وراءها  
 يحركونها كما يريدون ، والأمة تظن أنهم ليسوا إلا ضيوفاً ، وإن الأمر كل  
 الأمر بيد الباي ورجال حكومته ، حتى مضت الأيام والسنون وتمكنوا من  
 البلاد ورسخت أقدامنا فيها بدون أن نسفك دم أحد من جنودنا . فخير  
 وسيلة لاستعباد الاسلام واخضاع المسلمين هي أن تحفظ الدول الأوربية  
 شكل الحكومات الإسلامية وتختار لها رجالاً أذنياء النفوس ضعاف  
 الهمم فاقدي الشعور يخدمونها في أغراضها ، ويكونون آلاتها ضد  
 أممهم !!!

وهذا كلام حقيقته الحوادث وأيدته الأيام ، ونصيحة عملت بها أوروبا  
 فافلحت وفازت على المسلمين بفضل الخونة منهم المتربعين في الوظائف السامية  
 المقيمين في القصور العالية الفخيمة ! فليسخط المسلم على أخيه الخائن قبل  
 أن يسخط على الاجنبي ، ويعمل بحوله وقوته على ابادة هذا النوع المدمر  
 للمجموع ، الهادم للاستقلال ، المتاجر بالأرواح والنفوس والأعراض والثروة  
 والحياة ، وليعلم أن يوماً تتخلص فيه بلاد الاسلام من الخونة الأذنياء هو  
 يوم تفوز فيه على أعدائها ، وتسترجع مجدها وعزها ، وتعيد ما كان لها من  
 قوة وشأن وسلطان »

مصطفى كامل

\* \* \*

وفي الدفاع عن الاسلام وحضه على تحصيل العلوم الحديثة كتب  
 صاحب اللواء يقول

## العلم والاسلام

٢٢ يولييه سنة ١٩٠٣

لا يجد المسلم في حكم الغرب على المسلمين والاسلام شيئاً يوجبه ويؤلمه مثل رعى ديننا الكريم بالابتعاد عن العلوم والمعارف ، وعدم دعوة أبنائه إلى اكتشاف ما انطوى عليه هذا العالم ، وإظهار ما خلق الرحمن للانسان في أجل مظاهره وأجل مناظره ، واستخدام الطبيعة وكنوزها العديدة في سعادته وزخرفة الحياة الدنيا . وزاه على الدوام عاجزاً عن إقناع الغربيين بالدليل المحسوس بأن هذا الدين دين رقى وكال وحضارة عالية ومدنية سامية وسعى وراء العلم أنى كان ، لأنهم يحتاجونه بقولهم « وإذا كان كذلك فما بالنا نرى المسلمين في تأخر واضمحلال في كل بلاد الأرض ؟ » ...

يحار الانسان حقيقة في سكوت هؤلاء المتعلمين الذين يشكون ويألمون ويبصرون ويحكمون ويقارنون بين ما نحن فيه وما هم عليه وبين ما نحن سائرون إليه وما هم وراءه يسعون ، ثم تراهم لا حراك بهم ولا همّة تدفعهم لعمل يرفع شأن أوطانهم . ونحن وغمرنا لغدر الجهلاء لأنهم لا يدرون للعلم منزلة ، ولا لانفاق المال في سبيل الوطن معنى . ولكن ما عذر المتعلمين المهذبن ، والغرب ينهب الزمان منها وراء المجده والثروة . وما لا يأتیان في هذا العصر بغير استعباد الأمم التي عادت العلم فعاذاها الاستقلال .

نرى الغربيين ينتفعون بكل شىء في بلادهم وهي دون بلادنا فيما وهبه لها الخالق من نعم وخيرات طبيعية . فهذا نهر « الرون » اتخذ منه السويسريون بقوة العلم قوة كهربائية تنير مدينة جنيف ونواحيها وتنقل الماء العذب إلى مسافات بعيدة . والمتفرج على الآلات الضخمة التي تعمل هناك ليلاً ونهاراً تخلق الكهرباء من الماء ، وتقدر قوتها بستة آلاف حصان ، يندهش من هذه



المقدرة الهائلة ، ويظن أن الانسان في هذه البلاد غير الانسان عندنا ، ويتحسر على شلالات النيل وقوتها الضائعة ، والبسفور وتياره العظيم ، ويندب دياراً يمت الجبل ، أهلها ويحل فيها الفقر والشقاء محل السعادة والرخاء .  
ومضى الكاتب في سوق الأمثلة حتى قال :

تعودنا معاصر الشرقيين أن نلوم حكوماتنا في كافة الظروف والأحوال . وإني لا أبرئها من وصمات ومعائب ونقائص ، ولكن الانصاف يقضي علينا أن نقول إننا لافضلها . لأن الحكومة التركية مثلاً منحت بعض أبنائها امتيازات باستخراج معادن مهمة في بلادها ، فأسرعوا ببيعها للأجانب ، ولم ير واحداً منهم اهتم بإنشاء شركة ذات أسهم لاستخراج المعدن الذي تنازلت الحكومة عنه ، وحصر فائده ومكاسبه بينه وبين بني جنسه .

وعندى أن علة العال وداء الأدواء هو عدم تربيتنا من الصغر على حب الاجتماع . وإرشادنا بالتاريخ وحججه الدامغة إلى أن الدين الاسلامي يبعث في النفوس الحمية والاقدام . ويحبب إليها السعى وراء العيش والجِد والاعتماد على العلم والمعرفة .

لعمري ان مصدر هذه البلايا التي نسيح الآن في بحارها هو استبداد الحكم والامراء السالفين ، وقعود العلماء عن مقاومتهم ، وردعهم إلى العدل والحكم بين الناس بالشرعية المطهرة والخضوع أمام الحق ، حتى ماتت الفضائل ، وتجردت النفوس عن حب المعالي ، وتخلت عن صفات الرجولة والهمة وانقلب نظام العمران فصار الحاكم مالكا لحكوميه ، والأمة متاعاً يتجر فيه .

أى ديناميت في العالم مدمر للأمم والدول مثل سدل حجاب كشيف على أعين الجماهير ، ومطاردة العلم وإحلال الجهالة محل أنوار العرفان ؟ أى

خلل في طريق إحياء أمة مثل الفصل بين علمائها والعلوم العصرية ، وإقامة سد منيع بين الناشئة العاملة والعلوم الدينية ؟

نرى العلماء نابغين في علوم الدين ، ورجال الناشئة نابغين في علوم الدنيا . كأن هذه العلوم لا ترتبط بتلك . على حين أن كل قسم لا يصلح وحده ولا يفيد فائدته إلا بالاتحاد مع الآخر . وفي هذا التفريق تدمير لقوة العلم والدين معا . إذ كيف لا ينجبل العالم إذا سئل عن تلك القوة الباهرة - قوة الكهرباء التي تسير القطارات وتنير المدائن وتستخدم في شفاء الامراض وكان جاهلا ، ولا ينجبل رجل من الناشئة سواء كان طبيباً أو مهندساً إذا سئل عن أمر من أمور دينية وكان جاهلا ؟

لا نزاع في أن هذه الطريقة العوجاء طريقة الفصل بين علوم الدين والعلوم العصرية ضرراً على حياة الأمة الاسلامية في الحال والاستقبال وخطراً يهددها على الدوام . والرجل الذي يوفق لانشاء كلية عالية للجمع بين هذه العلوم يخرج للاسلام رجلاً هم منقذوه ورافعو لوائه بلا جدال . . . ثم قال .

لا حياة للمسلمين والاسلام في هذا المترك الخفيف ولا سبيل لوقوفهم أمام هذا السيل الجارف سيل الغرب وأهله إلا بالعلم . فليتنبه إلى هذه الحقيقة الراغبون في الخروج من الأسر والاستعباد والاضمحلال المشين وليعالموا أن إيجاد النظمات الجديدة الحية أسهل وأيسر من تقويم النظمات المقتلة المتداعية ، وأن البناء الذي يجتمع فيه المسلمون ليعيشوا عيش الأحرار السعداء الأقوياء لا يكون أساسه سوى العقيدة ودعائمه غير العلم الصحيح . وإن الابتعاد عن هذه الحقيقة إضاعة للوقت النفيس ومجلبة لعار فوق عار ومدعاة لزيادة استخفاف الغربيين بالمسلمين والاسلام !

\* \* \*

وأخيراً نختم هذا الفصل بنموذج من إسلاميات صاحب اللواء بعنوان :



## مستقبل الاسلام

إذا كان علماء الغرب وساسته يشتغلون بمستقبل الاسلام . فمن أقدم الفروض على عقلاء المسلمين أن يشتغلوا به ألف مرة . فقد بلغ السيل الزبى وحطت المصائب بكلها على بنى الاسلام حتى صرنا عبيدا للغربيين يتصرفون في أملاكنا وحرقتنا وناموسنا وعوائدنا كما يحبون ويرضون . وفازوا هم في التوازن بين الشرق والغرب بالكفة الراجحة . وقلنا نحن الخيبة المشينة والفشل الفاضح ولم يبق شك في أنه من العار الجسيم أن يتلمهى عظماء المسلمين وأغنيائهم عن البحث في مثل هذا الموضوع الخطر بل الدواء الشافى لأمراض العالم الاسلامى . على حين أن أعداءهم أنفسهم سألوا ويتساءلون ماذا يصيب الاسلام في مستقبل الأيام؟ أليسترجع مجده القديم ويسترد حياته الأولى؟ وهل في الامكان اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم؟ فهم كما رأينا متفرقون منقسمون على بعضهم متباغضون .

وقف اللورد كيرزن حاكم الهند العام في العام الماضى خطيبا في حفلة حافلة بأعيان المسلمين فقال : لو كنت أميراً من أمراءكم أو غنياً من أغنيائكم لما أضعت لحظة واحدة من حياتى في غير بث العلوم والمعارف ونشر النور بين أهل دينى ، ولما أنفقت شيئاً من مالى في غير هذا السبيل .

ووقف السكونت دى بولوف الوزير الاكبر لألمانيا في هذه الأيام خطيباً في مجلس الرشتاغ فقال :

إن التاريخ لم يورد لنا اجتماع دول كبرى متمدنة قوية واسعة السلطان في زمان واحد كاجتماع الدول الأوروبية الآن ووقوفها أمام بعضها البعض وتنافسها في امتلاك المعمورة واقتسام أراضيها .

أراد الأول أن يشير إلى أن مستقبل الاسلام مرتبط بالتربية والتعليم وأن المسلمين إذا لم يستطيعوا استرداد قوتهم الماضية فانهم بالتقدم في العلوم العصرية ومباراة الأمم الأخرى في ميادين المعرفة يستطيعون أن يحفظوا كرامتهم مع الدول المتسلطة عليهم ويضطروها إلى احترامهم ، ومنعهم ما يطلبون من الحقوق .

وأشار الثاني من حيث لا يريد إلى أن الاسلام في حرب مع دول عدة لامع دولة واحدة . وأن بلاده الواسعة الشاسعة صارت مطمحاً لأنظار كافة الدول الغربية . وأنهم يتنافسون أشد التنافس لامتلاكها وإستعباد أهلها . وهو إيضاح لما نحن فيه من الأخطار ولما يتهددنا في القريب العاجل .

مستقبل الاسلام في أيدي المسلمين أولاً وفي أيدي رجال الدولة العلية ثانياً . إذا عمل المسلمون للنهوض ، وسموا في طريق الجد والحياة الحقة ، وفهوا معنى دينهم ، وعرفوا ما فيه من حث على الاتحاد والاتفاق والجد والاجتهاد ، وطلب العلم من أطراف الأرض وسائر جهاتها ، والتنقيب عن أسرار المخلوقات والاستعداد لطوارئ الزمان ، وهجمات العدو الفائز ، واستفادوا من اختلاطهم بالغربيين معرفة الصناعات على اختلافها والاحاطة بالاختراعات الحديثة على تنوعها وتعددتها نالوا — ولو بعد حين — شيئاً عظيماً من العز المفقود والسؤدد المسلوب ، واستردوا من عظمتهم السالفة ما يقدرون أن يظهروا به أمام العالمين بمظهر الأمم الراقية المجددة الجديرة بالاحترام والاكرام .

أما الدولة العلية فقد أجمع الباحثون في حالها ومستقبلها على أنها لا ترد إعتداء الغرب وأهلها وتوقف تياره المتدفق ، وتحمل لنفسها بين دوله مقاماً جديداً وشأناً عظيماً إلا إذا انتظمت مآلياتها وقويت بحريتها وعمت العدالة في أنحائها . وهي مطالب ثلاثة يحق لمن يحققها أن يفاخر المتقدمين



والتأخرين ، ويقول لهم أجمعين : لم يخدم الاسلام والمسلمين أحد منكم مثلي .  
 إذ بالمال تستطيع الدولة تنظيم كل مختل ، وتقويم كل معوج ، وتقوى على  
 الاصلاحات المرغوبة . ولا ينتظر تنظيم المالية إلا إذا خفضت المرتبات  
 تخفيضاً كبيراً ، وهو الأمر الذى شرع فيه دولة الصدر الجديد ورفت من  
 المصالح والادارات عدداً من الموظفين غير قليل . إذ لا يدخل الانسان فى  
 نظارة من النظارات بالاستانة إلا ويرى فيها عمالاً بغير عدد عينهم الناظر  
 مراعاة لظاظر زيد وإكراماً لصديق أو عظيم . وأغلب هؤلاء الموظفين  
 لا يحضرون إلا فى أول الشهر لقبض رواتبهم . وهو خلل هائل يجب إزالته  
 قياماً بحقوق الدولة وتحقيقاً لرغائب جلالة السلطان . ولا نخال سعيدياً باشا  
 إلا مهتماً به بعد أن يتم إصلاحه الأول ، وهو تخفيض المرتبات .

ومن أهم الأسباب فى زيادة الثروة وانتظام مالية الدولة عدم منح  
 امتيازات المعادن والسكك الحديدية وغيرها للأجانب ، فان تمكنهم من  
 الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان . ولا يجب أن يغتر رجال الدولة  
 بزيادة إيرادات الجمارك بسبب المعادن ومد السكك الحديدية وغيرها  
 للأجانب . فان تمكنهم من الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان .  
 ولا يجب أن يغتر رجال الدولة بزيادة إيرادات الجمارك بسبب المعادن ومد  
 السكك الحديدية فان هذه الزيادة إن أفادت الحكومة بعض الفائدة  
 لا تعادل الضرر العظيم الذى يعود على الدولة وأهلها من امتداد نفوذ  
 الألمان والفرنساويين والروس وغيرهم فى بلادها .

وعندى أنه خير للدولة أن تؤجل مد السكك الحديدية وإستخراج  
 المعادن المدفونة فى أراضيها حتى تستطيع هى أو يستطيع أهلها القيام  
 بذلك من أن تمكن الأجنبي من بلادها ، وتزيد من نفوذه وسلطانه .  
 ولا ريب فى أن أنشاء اسطول تركي فخيم يملأ البحار هيبة ودويا من

أحب الأمور إلى كل مسلم غيور ، فضلا عن أن الحاجة إليه أصبحت  
 بادية للعيان ظاهرة لكل إنسان . وحسبنا مسألة طرابلس الغرب ، ومشكلة  
 الكويت واحتياج الدولة فيها إلى مراكب حربية تحمل الجنود وتحمي  
 الثغور . ولا نزاع في أن إنشاء أسطول باني بالحاجة يحتاج إلى مال كثير  
 وزمن طويل . والمال غير ميسور الآن . وإن كان الزمن في بعض الغرض  
 أغلى منه قيمة وأندر منه وجودا . ولا سبيل إلى وجود المال بغير توفير  
 وتدير وإقتصاد كبير وخطة ثابتة تدير الدولة عليها في مائتها عدة سنين .  
 وإذا كان تدير المال وإنشاء الأسطول من أهم المعدات للنهوض ورفع  
 المصائب عن المسلمين والاسلام ، فإن تخرج رجال أكفاء قادرين على تعمير  
 العدالة في أنحاء المملكة أمر ينادى به كل مسلم ويتمناه كل عثماني .  
 ويرى كل مائل أن حياة الدولة في الداخل لا تقوم إلا عليه وهو لا يكون  
 إلا بتقوية تعليم المبادئ الدينية في المدارس العثمانية حتى تتشبع النفوس  
 بالفضائل الصحيحة السليمة وتدرّس التاريخ بطريقة كاملة شاملة وافية  
 بالمرام وشرح الحروب التي وقعت بين تركيا ودول أوروبا شرحا يعلل  
 القلوب بحية ووطنية ويعرف منه الطلاب حقيقة واجباتهم نحو بلادهم  
 حتى يعلموا أنهم إنما يربون ليكونوا سدا في وجه الغرب وحمى للوطن  
 والملة والدين . وقصارى القول أن مستقبل الاسلام لا يكون كما يشتهي  
 عقلاء المسلمين إلا إذا قاموا بهضة قوية واستمروا بلا ملل ولا جزع  
 في سبيل إحياء أبناء دينهم ونشر الحقائق الاسلامية والعلوم العصرية  
 بينهم ، وبعت الله من رجال تركيا من يصدق الخدمة لجلالة المتبوع  
 الأعظم ويساعده على إيجاد المال والأسطول والرجال . وإلا فليبك الباكون  
 على دين حكمتنا الأجنبي في بلاده وأهله ، وهو دين التمدن الصحيح والحضارة  
 العالمية والتقدم والعمران



والقارىء، لهذا المقال الأخير يشعر بأن صاحبه صحفى هادى، أكثر منه خطيبا يستفز السامعين فى جمع حافل . فهو يأتى بأقوال الساسة الأجانب ويناقشهم، ويستنبط منهم العبرة تلو الأخرى، ويسوق كل ذلك مساقا جميلا وحزينا فى وقت معا . والكاتب هنا يربط مستقبل الاسلام بأمرين لا ثالث لهما : هما المسلمون أنفسهم من جهة ، والدولة العثمانية المهيمنة على أمورهم من جهة ثانية . والعلة بادية على كليهما . ودواؤهما بسيط فى نظر الكاتب . لأنه ينحصر كله فى كلمة واحدة هى ( النهوض للإصلاح ) وما أيسر هذا الإصلاح لمن أرادته لو صدقت نيته وصحت عزيمته . ثم إنه نبه المسلمين والدولة العلية إلى استغلال الأوروبيين لموارد هذه الدولة التى منحهم كثيراً من الامتيازات التى منها مد السكك الحديدية والسيطرة على المناجم المعدنية ، وذلك فى مقابل إيرادات جمركية لا قيمة لها .

وفى ختام المقال دعا الدولة العلية إلى إنشاء أسطول كبير يكون مظهرآ لعزتها وحافظا لكرامتها ، وذائداً عن دولها ضد كل اعتداء أجنبى . هكذا جاء هذا المقال برنامج إصلاح كبير لوقام بتحقيقه المسلمون وولاية أمورهم من سلاطين العثمانيين لأفادوا منه الشيء الكثير

وقد ربط الرجل بين الاسلام والدولة العلية ربطا شديدا ولم يستطع مطلقا أن يتصور أن فى استطاعة الأمم الاستغناء عن هذه الخلافة . وأن الأصل فى هذه الخلافة أنها ليست ملكا عضوضا . ولا شك أن الرجل كان فى كل هذه الأفكار متأثراً بالرأى العام بين المسلمين جميعا فى ذلك الوقت . ولقد بقى العامة فى مصر الى وقت قريب يعتقدون أن زمانا يخلو من خليفة هو زمان سوء ، وأن الخلافة لازمة للاسلام لزوما تاما . ولولا سقوط الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال ( أتاتورك ) لبقى هذا الاعتقاد سائداً إلى اليوم . وقد كنا نود أن نتبع ذلك بطائفة أخرى من المقالات التى كتبها

الرجل في هذا المعنى . ولكن المجال لا يتسع لشيء من ذلك . فعلى الناشئة التي تحرص على معرفة تاريخ بلادها أن تستقي هذا التاريخ من مصادره الصحيحة وأن ترجع بنفسها إلى صحيفة اللواء وغيرها من الصحف التي عاشت معها ، فتم تجد ما يسد حاجتها ، وتم ترى من الآراء النافعة والأفكار السديدة ما تكبر به هذه الصحيفة في نظره وتعظم في خاطره .

\* \* \*

ولا نذس مع ذلك ما كان يكتبه مصطفى كامل بين حين وآخر من المقالات الطويلة في الصحف الأوروبية على اختلافها مدافعا فيها عن الاسلام داحضا فيها حجج الأوروبيين الذين رموا الدين الاسلامي نفسه بشتي التهم العريضة ولمن أراد من القراء أن يطلع على نموذج لهذا النوع من المقالات فانا نحيله إلى مقال على سبيل المثال كتبه مصطفى كامل إلى جريدة الفيجارو الفرنسية بعنوان : أوروبا والاسلام :

وهو مقال طويل عاد الكاتب فترجمه بنفسه إلى اللغة العربية ونشر الترجمة بصحيفة اللواء بتاريخ ( ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٣ ) فالتمه هناك :

\* \* \*

( وبعد ) فان من يقرأ المقالات الكثيرة التي هاجم بها الأوروبيون والأمريكيون الاسلام ويقرأ الردود الكثيرة التي ردت بها الصحافة المصرية على تلك الصحف الأوروبية والأمريكية يخرج بهاتين النتيجةين الهامتين : الأولى : أن الصحافة المصرية أثبتت بلاء حسنا في مجاهدة الأوروبيين وحملت الكثيرين منهم على الاعتراف بفضل الاسلام في خلق الشعوب القوية ، وأنه لا عبرة هنا بضعف الأمم الاسلامية في الوقت الحاضر ، فسيدور الفلك دورته وتعود للمسلمين قوتهم يوما ما والثانية : أن كتاب مصر في عهد الاحتلال — وقبل أن تسقط



الخلافة العثمانية وتزول من الوجود كانوا محقين إلى حد ما في دعوتهم إلى  
ائتلاف الأمم الإسلامية ليتكون من هذا الائتلاف ما يسمى بالكتلة  
الإسلامية. ولا بأس عندهم من أن تكون تركيا زعيمة هذا الحلف أو  
الكتلة. والكتاب المصريون لهم عذرهم الواضح في تطلعهم إلى تحقيق هذه  
الأمنية، لأنهم يرون في تحقيقها على هذا الوجه استعادة لمجد الإسلام،  
وتمكيننا له من أن يأخذ لنفسه فرصة جديدة لقيادة العالم المتمدن، كتلك  
الفرص القديمة التي أتيحت له من قبل وكاد فيها هذا العالم قيادة حسنة  
إلى الحضارة.

سيقول المعارضون لهذه الفكرة بل هي خيانة للقومية المصرية وضياع  
لشخصية الوطنية وذهاب بالكرامة السياسية وما إلى ذلك كله من  
شتى التهم والأقوال؟ ولكني أقول لهم إن في يد المؤرخ العدل مقياسا  
يقيس به أفكار الشعوب والأفراد. وهذا المقياس هو قدرة المؤرخ دائماً  
على أن يحيط نفسه بالظروف التي أحاطت بتلك الشعوب والأفراد حين  
يتحدث عنها أو يحكم لها أو عليها. وهو إن فعل غير ذلك أساء إلى  
عدالة التاريخ وهضم حق الفرد أو الأمة.

## الفصل السابع

# اللواء والحركة الوطنية

لا نعرف أن مصر رزقت رجلاً أحبها وغار على مصلحتها كما أحبها هذا الفتى وغار على كل ماله مساس بها . ونحن حين نتحدث عن اللواء والحركة الوطنية فأنما نتحدث عن أهم جانب من جوانب هذه الصحيفة الشعبية، ونشيد با كبر دور لعبته على مسرح الحياة المصرية . إذ الواقع أن اللواء أوشكت في وقت من الأوقات أن تكون المتنفس الوحيد لهذا الشعب المغلوب على أمره . وكان لها الأثر البعيد في إحياء النفوس بعد موتها ، وإنهاض الهمم بعد ركودها ، واسترداد الكرامة المصرية بعد ضياعها على يد الاحتلال البريطاني

والحق أنه كان لصحيفة اللواء من اسمها هذا أوفى نصيب ، فقد ظلت في يد صاحبها بمنزلة الراية الكبرى يلتف حولها دعاة الحرية والكرامة ، أو العالم الرفيع يقف إلى جانبه المجاهدون من المواطنين ، فيزدادون حماسة في الدفاع عن وطنهم ، وثباتاً في ميدان الكفاح من أجل هذا الوطن .

ثم إن جريدة اللواء كانت فوق هذا كله مدرسة يتلقى فيها الشعب المصري على اختلاف طبقاته دروساً في التربية الوطنية ، ويستمعون فيها إلى أساتذة أمناء على تربية الشبيبة المصرية . وإننا إذ نتصور مصر خالية في ذلك الوقت من صحيفة « المؤيد » وتتصورها خالية كذلك من صحيفة « اللواء » يتجلى لنا وجه مصر أغبر اللون أصفره من الحياء والخجل ،



بل من الحزن والكدر ، بل من الشعور بالخزي والعار ، ومن النذل والمهانة .  
وذلك ما لم يسجله التاريخ علينا بحمد الله ، لأن روح المقاومة الهادئة التي بدت  
من جانب صاحب « المؤيد » ، وروح المقاومة العنيفة العارمة التي بدت من  
جانب صاحب « اللواء » هما اللتان أمسكتا يد التاريخ عن كتابة هذه  
الصحيفة المخزية المؤلمة . وليس العيب أن تبثلي الأمة بالفقر أو المرض ، أو  
يسومها حاكمها النذل والخسف ، ولكن العيب كل العيب أن تقف هذه  
الأمة مكتوفة اليد أمام هذه الأعداء كلها ، أو ترضى لنفسها العيش في  
جحيم هذه الشرور جميعها . علي أن المقاومة في ذاتها عنوان الحياة ، والجهاد  
في ذاته أشرف عمل في الوجود والشعور بكمال الانسانية لا يبلغ أوجه  
في أمة أو في فرد إلا في أحد هذين المواطنين .

وهذه هي اللواء تصيح منذ ظهورها علي مسرح الحياة المصرية  
مرآة صافية تسجل فيها حوادث هذه الأمة مقرونة بشعورها تجاه تلك  
الحوادث ، كما يسجل فيها كل ما يتصل بالحركة الوطنية أو يمس الكرامة  
المصرية .

فإذا ملأت الغيرة قلب رجل كمباس حلمي الثاني وراح يدعو قومه  
إلى الجهاد في سبيل الوطن راحت اللواء من جانبها تحيي هذه الروح  
العالية في الأمير ، وتؤكد له أن الأمة كلها معه ، وأنها تقدر له كلمته التي  
قالها بأعلي صوته :

« إنني أفضل أن أموت عن أن أفقد حقوقى وحقوق بلادى »

وإذا أتى كرومر وقال « إن مقاومة عباس للاحتلال الإنجليزي لا تمثل  
رأى الشعب المصرى وأصحاب الجلايب الزرقاء ، وإنما تمثل رغبة الخديو  
الشخصية في فرض سلطة مطلقة علي المصريين » نهضت اللواء ترد كيد الجبار  
في نحره ، وتفرّد لتفنيد دعواه الزائفة وزعمه الباطل مقالا في عددها الواحد  
والثلاثين جاء فيه :

« خير لنا أن نكف عن أنفسنا بأنفسنا بدون تدخل الغير من أن نرى إهانة الاحتلال الأجنبي ملتصقة بنا في الصباح وفي المساء »

ثم تهيب اللواء بالمصريين قائلة لهم :

« ولكن أكبر علة لمصائب هذه الديار الأسيفة ولنجاح الانجليز فيها هي سكوت المصريين عن حقوقهم وركونهم إلى السكون التام الذي يعتبر في نظر السياسيين والحكام موتاً مغنواً دونه الموت الحقيقي . » ثم تقول : « وقد جاهر سمو أميرنا المعظم بمبادئه الوطنية ، ونادى الشعب بالمطالبة بحقوقه والمدافعة عن حريته واستقلاله . فإذا كان منا ؟ إعجاب بعمل الأمير وحب لذاة الكريمة . ولكن هل إلى هذا يقف ههنا ؟ ليعلم الانجليز أن الشعب ذو شعور وإحساس ، وليجد سمو الأمير قوة من أمته تعضده وتشجعه على التمسك بحقوقه وحقوقها الخ »

ثم إذا دب اليأس والخور في قلوب المصريين لاسيما بعد حادثة فاشودة واتفاقية السودان راحت اللواء تنفخ فيهم من روحها ، فتطرد اليأس عن القلوب ، وتبعث الأمل فيها من جديد .

وإذا تطرق اليأس حتى إلى أفئدة الخاصة من الوزراء والحكام ، كما حدث لرياض باشا أنحت اللواء عليهم باللائمة ، وأمطرهم وابلاً من ضرباتها ، وشاركت جريدة المؤيد في تلك الحملات الصحفية التي حملتها على رياض ، وذهبه من دعاة الهزيمة والتردد .

وإذا اتفقت الدول على شر أرادته بمصر والمصريين جاءت اللواء تنبه على هذا الشر وتدعو المصريين جميعاً إلى لزوم الحذر حتى يزول الخطر .

وإذا أقبل المحتلون يمارسون ألعابهم السياسية المعروفة ، ويحاولون خداع المصريين وصرفهم عن آمالهم المنشودة طلعت اللواء بمقالاتها العنيفة فكشفت عن هذه الألعاب الخاطئة ، وفتحت أعين المصريين على نوايا الانجليز القريبة والبعيدة .



وحين جاء اليوم الذى تم فيه الاتفاق الودى بين دولتين من دول  
الاستعمار الأوروبى ، هما انجلترا وفرنسا وذلك عام ١٩٠٤ وانقطع رجاء الناس  
جميعاً فى مصر فى التخلص من برائن المحتل ضاعفت اللواء من جهودها ،  
وتأهبت للهجوم على العدو منددة بهذا الاتفاق الودى ، مدركة يومئذ أن  
واجبها أصبح أثقل من ذى قبل ، وأنها أصبحت تمثل آخر خيط من  
خيوط الأمل المصرى . فلذا انقطع هذا الخيط فقد تم القضاء على مصر  
وكم كان العمل شاقا والطريق وعرا والموت يبدو أشباحا تراقص أمام  
العيون فى ذلك الحين . ولكن اللواء أحسنت تقدير ذلك ، وعملت على  
علاجه ، واستطاعت أن تصور للحركة الوطنية حياتها وتحفظ بالبقية الباقية  
من روح كفاحها . وما زالت بهذه الحركة المباركة حتى نهضت من كبوتها ،  
وقامت من كسرتها وأزاحت عن نفسها كل شعور بالضعف أو الخور ،  
واستبدلت به شعوراً بالقوة والظفر .

وفى مايو سنة ١٩٠٦ كانت حادثة ( العقبة ) وخلاصتها أن تركيا ومصر  
تنازعتا على موقع ( طابة ) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة . وكان قصد  
تركيا من ذلك إثارة ( المسألة المصرية ) من جديد . ولكن انجلترا وقفت  
إلى جانب مصر ، وتظاهرت بحمايتها للحدود المصرية . فثار لذلك الشعب  
المصرى وأعلنت اللواء سخطها واستنكارها لموقف انجلترا ، وطالبت  
الانجليز بالجلاء عن البلاد . ولولا أن الاتفاق الودى جرى بين فرنسا  
وانجلترا عام ١٩٠٤ كما قدمنا لكنت هذه الأزمة كافية لاثارة المسألة  
المصرية من جديد كما رغبت تركيا فى ذلك . ولولا اللواء ونضوج الحركة  
الوطنية على يد مصطفى كامل لكان من الجائز أن تقبل مصر على نفسها  
وقوف انجلترا منها موقف المدافع عنها المعلن لحمايتها . ولكن اللواء صانت  
كرامة المصريين أيضاً فى هذه المحنة ، وأضافت بذلك يدا جديدة من أيلديها  
على الحركة الوطنية .

وأخيراً يأتي دور « دنشواي » أو دور الحادثة المشؤومة على الاحتلال البريطاني ورجاله في مصر . وهي الحادثة التي كان لها من الآثار ما تحدثنا عنه من قبل . ثم هي الحادثة التي انتهت بسقوط جبار الاحتلال ( كرومر ) عن عرشه في مصر . وهنا تم لصاحب اللواء أكبر انتصار في تلك الموقعة الفاصلة التي دارت بينه وبين ذلك الجبار .

هكذا كانت تسجيل الحوادث الوطنية تسجيلاً دقيقاً من جهة ، والوقوف بالمرصاد للاحتلال البريطاني ومعارضته بقوة لا هوادة فيها من جهة ثانية ، وتذكير المصريين بين حين وحين بكل حادثة من الحوادث التاريخية التي كان لها مساس قوى بمصر والسودان من جهة ثالثة ، واليقظة التامة المستمرة لحوادث السياسة العالمية — أو بالأحرى للجزء المتصل منها بالقضية المصرية — من جهة رابعة . نقول هكذا كانت هذه الأمور الأربعة وأشباهاها من أهم الوسائل التي اتخذها صاحب اللواء لبعث الروح الوطنية في مصر ، ولولا هذه الجهود التي بذلتها اللواء لتعرض هذا الروح الوطني للضعف المفضي إلى الموت .

على أن صاحب اللواء كانت له طرق أخرى كذلك ترى إلى بعث الروح الوطنية في الأمة . ومن أهم الطرق التي تجب الإشارة إليها ثلاث :  
أولها — سرد تاريخ الأمم الحية والاشادة بمواقفها العظيمة في ميدان الجهاد من أجل الوطن والأمة ، وذلك على نحو ما كان يفعل صحفي قديم كأديب اسحاق وغيره في أوائل النهضة .

والثانية — العناية بسير العطاء الذين أبلاوا بلاء حسناً في بناء مجد مصر خاصة ، وكانت لهم مشاركة قوية في إقامة هذا البناء .

والثالثة — التعليم والدعوة إلى تأسيس المدارس على نفقة الأهالي .  
ومن الأمثلة على الأولى مقالة نشرتها اللواء ( في ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٢ ) بعنوان

( الحوادث عبر )



كنت اقرأ البارحة في كتاب قيم فصولا شتى من التاريخ وحوادثه  
فاذا بي أمام رجل مثله اليونانيون القدماء، لأبنائهم ليعرفوا مقام الوطن  
والوطنية. رجل نفته بلاده واضطهده أهله وقومه، واتهموه بالثبم الشنيعة  
والفضائع الجمة، ورموه بكل ما يرى به الخونة المارقون. فما سكن بيلاد  
الأجانب واختلط بأهلها وعرف لسانها حتى أنقذ وطنه من حرب كانت  
تدبر ضده وأخرجه من مشاكل كان يستحيل على أمهر الساسة أن يفك  
عقدتها. فتذكرت قول الشاعر :

بلادى وأن جارت على عززة \* وأهلى وأن ضنوا على كرام  
وقلت حياكم الله يا شعراء العرب ما تركتم معنى من المعاني السامية  
إلا ملائتم به أشعاركم ، وقدمتموه للأعقاب من بعدكم ثم انتقلت من  
سيرة ذلك اليونانى الكريم حتى وقع نظرى على قصة ( انيبال ) بطل قرطاجنة  
الشهير ، حيث كان يجمع أطفال بلاده ويعلمهم نشيداً وطنياً يتعهدون فيه  
بخدمة قرطاجنة وإعلاء شأنها وسحق أعدائها ، ومحو كل كاره لها على وجه  
الأرض الخ .

\* \* \*

ثم من الأمثلة على الطريقة الثانية ، وهى العناية بسير العظماء من المصريين  
والاشادة بذكورهم وإعلاء شأنهم ما فكر فيه صاحب اللواء يومئذ من  
الاحتفال بالعيد المئوى لتولية محمد على عرش مصر برضى من أهلها وسعى  
منهم فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . ولقد جاء هذا الاحتفال من  
العظمة والجلال بحيث هز شعور المصريين جميعاً ، وسما بنفوسهم جميعاً ،  
وكان لفته وطنية قوية لها خطرها ومغزاها يومذاك .

وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين إلى  
أن نأخذ على مصطفى كامل أنه شوه كثيراً من سمعة عرابى ، ونظير

إليه على إته خائن لبلاده، وعبرت مقالاته تحت عنوان ( عرابى أمام التاريخ ) عن هذا المعنى فى صراحة تامة .

\* \* \*

ومن الأمثلة على الطريقة الثالثة من الطرق التى اعتمد عليها صاحب اللواء فى تربية الروح الوطنية فى نفوس الناشئة المصرية وهى طريقة التربية والتعليم ما قام به صاحب اللواء فى ذلك الحين من إنشاء مدرسة سميت باسمه ، وبلغ عدد تلاميذها مائتين وسبعين تلميذاً . وكان على إتصال دائم بهذه المدرسة ، لا يدع فرصة تمر دون أن يقف فى تلاميذها خطيباً يلقي عليهم دروساً فى الوطنية الصحيحة . وهكذا استحققت هذه الجهود كلها إعجاب الوطنيين جميعاً والأوروبيين جميعاً ، وأصبح بها الرجل موضوع حديث هؤلاء وهؤلاء وأولئك .

\* \* \*

تلك نظرة عامة فى المجال الوطنى الذى سبغت فيه جريدة اللواء . والآن يجدر بنا أن ننظر نظرة إحصائية إلى بعض ما نشرته اللواء من مقالات فى هذه الناحية . وسنكتفى بذكر العناوين الهامة لهذه المقالات الوطنية سنة بعد سنة . حتى إذا فرغنا من ذلك عدنا إلى بعض الحوادث الكبيرة ، فنظرنا فيما قالته اللواء فى كل حادثة منها ، وأتيننا بطائفة يسيرة من النماذج على سبيل المثال .

\* \* \*

فى السنة الأولى من حياة اللواء كانت المعانى الاسلامية غالبية على تلك الصحيفة اليومية بحيث تضاءلت إلى جانبها نوعاً ما جميع الأغراض الأخرى كالغرض الوطنى والغرض الاجتماعى وغيرهما .

ثم فى السنة الثانية من حياة اللواء وثبتت الصحيفة وثبة ظاهرة فى الميدان الوطنى ، وزادت عنايتها بالوطنيات زيادة فاقت الاسلاميات ، وكذلك



الشأن فيما يتصل بالفصول الاجتماعية التي نشرتها في تلك السنة أيضا. ومن يومئذ والاهتمام بالمقالات الوطنية والاجتماعية يتزايد في اللواء عاما بعد عام، حتى كان العام الخامس من حياة اللواء وهو العام الذي شهد الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا، ثم العام السابع من حياة هذه الصحيفة وهو العام الذي شهد حادثة دنشواي فضوغت عناية اللواء بالوطنيات، ولوحظت هذه الزيادة بوضوح تام في السك تارة، وفي السكيف تارة أخرى، وفيها في أكثر الأحيان.

ثم تأتي السنة الثامنة من حياة اللواء وهي السنة التي شهدت انتصار الوطنيين انتصاراً حاسماً على اللورد كرومر، وانتهت بسقوطه ورجوعه إلى بلاده. وفي هذه السنة طفت المقالات الوطنية طغياناً تاماً، وقلت الاسلاميات إلى حد كبير من حيث العدد، وإن بقيت على حالها من القوة والتدفق. وإلى القاري، بعض العنوانات التي إتخذتها المقالات الوطنية في كل سنة من تلك السنوات الثمان.

ففي (السنة الأولى) نجد عنوانات منها : كيف يحيا الوطن العزيز — الأمة والأمير — سياسة الشرف والاباء — أعمال إنجلترا في مصر — يوم ١٩ يناير ( يريد إتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ ) — كلمات في سبيل السودان — لمن يعمل الانكليز في مصر — حياة الشعب بالشعب — واجبات الوزراء أمام الأمة والأمير — الدين والوطنية عند الأمم الحية — السلطة الشرعية في مصر — إلى أبناء وطني — حقوق الشعب وواجباته — بماذا يلام الشعب المصري — أين الشرف البريطاني — كيف تتحقق الآمال — لماذا لا نعمل — التضامن الوطني — التضامن والاخاء — السياسة الانجليزية في السودان — مسئولية فاشودة — مقام المصري في بلاده — الوطنية وأسلحتها — بم نصير رجالا ؟ — الخ

وفي (السنة الثانية) نرى عنوانات منها :

عظاؤهم وعظاؤنا — حاربوهم بالاعراض — نوايا المحتلين نحو مصر —  
 متى تحل المسألة المصرية — عرابي أمام التاريخ — عرابي بين المصريين —  
 عرابي وعطاء الرجال — عودة عرابي — عرابي والانجليز — الاستقلال أم  
 الاحتلال — الشبيبة المصرية — اللورد كرومر والمسترد دنلوب وضياح الأمة  
 بينهما — حقوق الأمة في مصر — الجندية في مصر — فاشودة والمسألة  
 المصرية — مصر والسودان — الشعور الحى — العيد المئتينى لمؤسس العائلة  
 الخديوية — هل في مصر دستور — العيد المئتينى لمحمد على — ذكرى  
 الرجال في مصر الخ.

وفى ( السنة الثالثة ) نقرأ مقالات منها .

الحوادث عبر — مستقبل الأمة — كفاءة المصرى — صوت العظام  
 أو عرابي أمام قتلى التل الكبير — تنهبوا يارقود — الاحتلال والمفرورون  
 به — حقوق الأمة في مصر — إلى أى مآل نسوق أبناءنا — انكثرت  
 والاستعمار — قيمة الفرد الواحد في الأمة الحية — قوة العقيدة — الدفاع  
 عن الشرف — المنفعة والدستور خصمان — انكثرت في مصر — بعد  
 عشرين عاما — إلى أين يسوقنا الاحتلال ؟ عمل مجد على وواجبات المصريين  
 نحو وطنهم — أقطاب الوطنية الخ.

وفى ( السنة الرابعة ) نجد فصولا منها :

دستور أم استبداد — الشعب المصرى — صنائع الاحتلال — حقوق  
 الأهالى — نصيحة الدخلاء لشبان مصر الأذكاء — إلى أين المصير ( أو  
 الاحتلال والمصريون ) — نوايا الانجليز — حاجة مصر إلى مجلس نيابي —  
 بلادى بلادى — ارتقاء الشعور الوطنى في حكم مولانا العباس — افلاس  
 الاحتلال — الجهاد في سبيل الوطن مع الجهاد في سبيل الله — الامتيازات  
 الأجنبية في مصر : أما آن وضع حد لها ؟ الخ .

وفى ( السنة الخامسة ) : نرى مقالات منها :



إنشاء مجلس نيابي — مصر بين انكلترة وفرنسا — المسألة المصرية —  
تهنئة غريبة — كيف تحيا الشعوب — الأمم بالرجال والرجال بالأعمال —  
إذا تركنا السودان فهو لا يتركنا — خطبة رياض — الوزير المنتحر —  
انفجار العواطف — رأى اللورد ملتر في رياض باشا — إهانة الأمة من  
رياض — الخطبة الرياضية — رياض باشا والاحتلال — إن البلاء موكل  
بالمنطق — خطبة في الموقف السياسي لمصر وواجبات المصريين — حزب  
المعارضة ( إلى جناب اللورد كرومر ) — المصرى هنا وهناك — نحن وهم —  
الاستبداد في صورتيه — البلاد بكبار الرجال — المجلس النيابي — لا ناصر  
لرجل خذلته أمة — من فضيحة إلى فضيحة — حديث مع صاحب اللواء  
( حول الاتفاق الودى ) — كيف تعز الامم — حقوق البلاد — أحرصوا  
على البقية — حرب الدستور — مجلس الشورى والاحتلال — من الرجل  
العظيم ؟ — من الكاره للسودان ؟ — مصر فى عام ( مقال فى الاتفاق  
الودى بين فرنسا وانكلترة ) — خطبة رياض وتقرير كرومر .

وفى السنة السادسة :

كلية محمد على — مجلس الشورى — المصريون والمحتلون — أمنية الجميع —  
الامتيازات الأجنبية — ارتفع الستار فإذا أنتم فاعلون — أمة لا تموت —  
الجهاد فى طلب الاستقلال — الوزراء المصريون — إلى سمو الخديو المعظم —  
كونوا عبيدا — سر الانتصار — معاملة الانكليز للمواطنين المصريين —  
عبرة مؤثرة — الرجال والمبادئ — التمرين على الاستعداد — لو كنت أميرا —  
صداقة انكلترا — بين مصر والسودان — قوة رأى العام — الأعمال  
النافعة وحاجة الأمة إليها — محمد على والانكليز — المصريون والمحتلون —  
اسماعيل والانكليز — المصريون والانكليز — المصريون والزلاء —  
الوطنية الحققة

وفي السنة السابعة :

مصر في عام — المبادئ والغايات — استعداد الأمة للترقى — رأى  
في سياسة الاحتلال — تحرير مصر — خطبة لصاحب اللواء — المهاجرة إلى  
السودان ( إستمعوا أيها المصريون ) — قضية السودان بين الريح والخسران —  
المصريون والانكليز — رئيس النظار والاحتلال — صوت الطلبة — أمة  
تستعد — الازمة المصرية ( عبء مصر والمصريين ) — أكبر أمانى مصر  
( إنشاء مجلس نيابى ) — حقوق الأمير — كلمات لأعداء مصر — الافتراء  
على المصريين — ماهذه المغالطة ؟ — مركز الانكليز في مصر — معركة  
دنشواى — المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى ( عدد من المقالات )  
حادثة دنشواى — يادافع البلاء — الانكليز فى مصر — اللورد كرومر  
وعقول المصريين — احتجاج وطنى على وجود المحكمة المخصوصة — تنفيذ  
الأحكام فى مصر — إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن — إرفعوا أصواتكم —  
مسألة دنشواى فى مجلس العموم — مسألة دنشواى فى البرلمان الانكليزى —  
أربعة من الانجليز حول لفظة واحدة ( مصر للمصريين ) — أبها المخلصون  
لمصر — مصر للمصريين ( إيضاح واجب ) — المطالبة بالحقوق — الوطنية  
المصرية الجديدة — فضائل العدالة فى مصر — المستر بلنت ومصر — الحركة  
الوطنية فى مصر — إجلال الوطنية — الحزب الوطنى فى مصر .

فى السنة الثامنة :

لا يعرف الوطن من لا وطن له — يا حضرات أعضاء الجمعية العمومية —  
ماذا تريد الأمة — التمس ومصر — المصريون والنزلاء — الشقيقان المؤتلغان  
( المسلمون والأقباط ) — مصر والأحرار الانجليز — لينصروا الاحتلال  
ويؤيدوه — عواطفنا نحو الأوربيين — الحياة الحرة — مصر للمصريين —  
اللورد كرومر والحركة الوطنية المصرية — مستقبل الحركة الوطنية  
( ردا على تقرير اللورد كرومر ) — مصر وسياسة الأحرار الانكليز —  
نهضة مصر ومطالبها — حقوق الأهالى — فى سبيل بلادى — المطالبة



بالحقوق — قوة هائلة يجمعها اللورد كرومر ضد المصريين — حفلة الأوبرة — أعمال محمد علي باشا الكبير — حياة الأمة بنفسها — العالم ناظر إلينا فلنسر دائما إلى الأمام — مشكل الوطنية ( من كتاب هموى وجهادى لمدام جوليت آدم ) — ذكرى دلشواى ( إحدى عشرة مقالة : ابتداء من ٢٣ - ٦ - ١٩٠٧ إلى ٤ - ٧ - ١٩٠٧ ) — يوم ٤ يوليه — حان زمن الجلاء — ألا ينبغي أن نعد من الآن عدتنا ؟ ( أربع مقالات متوالية ) — أبطال الوطنية — مطالب المصريين وأمانتهم تنحصر فى الاستقلال وإدارة شؤونهم بأنفسهم — بلادى بلادى — مصر والاستقلال — الفرق بين الوطنيين — الاستقلال — نحن وحدنا — أعداء الحقيقة — الشعور الوطنى — الحقيقة المرة — حب الوطن من الإيمان — لو لم أولد مصريا لتميت أن أكون مصريا — مسجونو دلشواى — الوطنية المصرية — لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ — هكذا فلتكن الوطنية — مصر والاستقلال — الحزب الوطنى — مصر فى عام .

\* \* \*

لم يبق إلا أن نسوق للقارىء طائفة من النماذج الصحفية التى كتبها مصطفى كامل . وهنا نحر حيرة كبيرة فيما نأتى به من هذه النماذج وما نذر منها . والحق أن جميع ما كتب مصطفى كامل يدل دلالة قوية على شخصيته ، وينادى بوطنيته ، ويصلح أن يكون نموذجا لكتابته . وقد كان مصطفى كامل — كما كان السيد على يوسف — صاحب فكرة يصدر عنها ، ورأى سيامى يدافع عنه ، وحزب يتحدث باسمه . وكان صاحب الصحيفة إلى ذلك العصر ملتصقا بصحيفته ليل نهار ، لا يبرحها إلا إلى عمل يتصل بها ، ولا يترك لغيره كتابة ما يتبقى من صفحاتها إلا بعد أن يطمئن كل الاطمئنان إلى أنه عبر عن رأيه أولا ، وشرح فكرته للقراء شرحا وافيا . وذلك كله بالطبع مخالف لما يحدث من أصحاب الجرائد اليومية ، وزعماء

الأحزاب السياسية في وقتنا الحاضر، فإنهم لا يكلفون أنفسهم بعض هذا الجهد، ولا يحاولون أن يقدموا لصحفهم وأحزابهم مثل هذه التوضيحية .  
أجل - يحار الباحث حيرة كبيرة حين يريد أن يقدم للقارئ طائفة من المقالات الصحفية لصاحب اللواء على سبيل المثال . ومع ذلك فنحن مضطرون هنا إلى الاكتفاء بهذه الصفحات الآتية : —

### النماذج

منذ العدد الثاني من السنة الأولى من حياة اللواء حرص مصطفى كامل على محاربة اليأس في الأمة فنشر مقالا بعنوان :

كيف يحيا الوطن العزيز

( بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٠٠ )

جاء فيه :

لم يأت على مصر حين من الدهر اشتغل فيه أبنائها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التي توالى فيها المصائب، وتعاقبت النوائب وعرفنا حقيقة المصائب الانجليزية ضدنا وضد الوطن العزيز .

وقد ذهب أبناء الوطن في أمر مستقبله مذاهب شتى . فأصحاب العقائد الصحيحة والمبادئ القوية يؤملون له مستقبلا سعيدا وحياة طيبة، لأنهم يرون أن الأمة المصرية هي أكثر الأمم استعدادا للتقدم والرقى ، وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعالى . ويرى غيرهم أن مصر قضى عليها إلى الأبد، وأن أبنائها ليسوا كغيرهم ...

واختلاف الآراء بين المصريين في هذه المسألة الجوهرية الحية هو داء من أكبر أدواء مصر التي يجب العمل لشفاء الأمة المصرية منها . فإن اليائسين من الله ومن الأمة تراهم لا يهتمون أبدا بأمر من أمور الوطن ،



بل يسخرون من كل العاملين على إحيائه وإعلاء شأنه . فهم فضلا عن تقصيرهم في خدمة الوطن التقصير الجسيم يعملون على تثبيط الهمم ، وإفقاد العزائم ، وقتل العواطف الحية ، وإنتشار كلمات « موت المصريين » و « جن المصريين » و « عدم فلاح المصريين » على الألسن ؛ وهى أضر على مصر والمصريين من كل المصائب والبلايا . فاعتقاد الأمة في نفسها أنها لا تصلح ، وأنها لا تعرف معنى الوطن والوطنية آفة دونها كل الآفات ، وبلية تسهل بجانبها البلايا .

على أننا لو تصفحنا تاريخ مصر نجد أن أبناءها قاموا بأعظم الأعمال ، وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح ، وأظهروا في ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ في صحائفه البيضاء . فكيف يدعى البعض مع ذلك أنهم أمة ميتة لا حرارة بها ، وأنه يستحيل أن يوجد بينهم شعور وطني صادق ؟ أو ليس من الدلائل الكبرى على حياة المصريين ووطنيتهم أن يوجد بينهم من يعرف حب الوطن بعد أن أختنهم الحوادث ، ودكت بنيان استقلالهم ؟ من في أمم العالم يستطيع أن يحمل ما حملت مصر من المظالم والدواهي ثم يبقى عنده شعور وطني كما نراه ويراه الناس جميعا عند المصريين ؟

نعم إن الأمة المصرية نهضت نهضتها السالفة بهمة قائد عظيم أو أمير على الفكر ، ولم تنهض من نفسها بدون حكومة تديرها كما فعلت أغلب الأمم الأوروبية . ولكن ذلك لا يقضى على المصريين أمام العقلاء . فالأمم تحيا بأبنائها ، وكل أمة تقبل النصيح والارشاد هى أمة سائرة في طريق التقدم والسعادة والحرية . ولا يستطيع أحد أن ينكر اليوم أن المصريين أدركوا أن الوطن وطنهم ، والبلاد بلادهم ، وأن الناس سواء أمام الوطن في الحقوق والواجبات . وهو شعور ينمو يوما بعد يوم نمو ظاهرا . . .

وإني لأعجب ممن يأسون من قدرة الله ورحمته ، ويتناسون التاريخ

وأمثاله السكبار . فهل أراهم التاريخ أمة دامت على حالة أو دولة بقيت بنظام ثابت ؟ وهل خلدت الدول التي حكمت مصر قبل دولة بريطانيا ؟ كلا ثم كلا ! إن دوام الحال من المحال ، ولا معنى لليأس مع الحياة . وهذه انكسرتا نفسها كان يخيل للعالمين في العام الماضي وقت حادثة فاشودة أنها لا تغلب ولا تهزم أبداً ، وأن دول أوروبا كلها ألعوبة في يدها . فقضت إرادة الرحمن ألا يحول الحال حتى تقوم الحرب بينها وبين أمة الترنسفال ، وهي كما يعلم الناس أصغر شعوب العالم ، وعدد سكانها لا يتجاوز عدد سكان أصغر المدائن في انكلترا . وتنقصر عليها جيوش البوير المرة بعد المرة « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله » . فهل بعد هذا دليل على أن اليأس من المستقبل جنون في جنون ، وأن المستقبل بيد الخالق يديره كيف يشاء ؟ ...

فالمواطن الوطنية في الأمة المصرية قوية ، والأمل في المستقبل عظيم . وما على المصريين الراغبين في إحياء بلادهم وخدمتها الخدمة الواجبة إلا أن يحاربوا اليأس ، ويقضوا على المطاعن الفاسدة التي يوجهها هؤلاء ضد الأمة المصرية العزيزة . والاخلاص في محبة الوطن والثبات في خدمته كفيلا بالنجاح الخ .

\* \* \*

من هذا القبيل كثير جدا من مقالات مصطفى كامل كتبها في الظروف التي استبد فيها اليأس بقلوب الأمة ، وظهر التراجع والتخاذل عند كثير من قادة الرأي فيها . ولعل من أروع هذه المقالات واحدة له بعنوان ( بلادى بلادى ) نشرتها اللواء بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٠٣ ) قال في نهايتها :

لقد كنت أعرف أن لكل تجارة سوقا . ولكنى لم أكن أدري أن لبيع الأوطان سوقا . فليبع بلاده من شاء التنازل عن الشرف والناموس .



أما أنا فسأستمر بمشيئة الله طول حياتي - ولو بقيت وحيدا أخطب في الصحراء وأكتب على صفحات الماء - ذلك الذي عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز :

ثم ما كاد يأتي يوم ١٩ يناير وهو اليوم الذي أبرمت في مثله من عام ١٨٩٩ إتفاقية السودان المعروفة حتى بادرت اللواء الى نشر مقال ذكرت فيه المصريين بذلك اليوم المشئوم، واتخذت لهذا المقال عنوانا هو :

يوم ١٩ يناير

( بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠ )

ومما جاء فيه :

... وإن أكبر أيام الشقاء في تاريخ مصر، وأسوأ تذكارات يهيج في نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير - يوم تذكارات إتفاقية السودان - ذلك اليوم المشئوم الذي أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالَم كله أن السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل، وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التي صرفت في سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرما وأكبرك بلاء وهما . أجل - كان الأمس (١) تذكارات المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التي أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وإنصافهم . فان كان لكم معاصر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكرا الأحياء، واعتقدوا أن حقوقكم في السودان مقدسة، وأن كل المعاهدات والاتفاقات لا تمت هذه الحقوق أبداً . وعلموا أبناءكم صغارا معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كبارا أو يحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم .

(١) صحتها أمس بدون ال ، لان المقصود بها ( البارحة ) . واما ( الامس ) بال فيطلق على أى يوم مضى .

تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم، وصرفت فيها أموالكم، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء .

تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم.

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر، وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة. تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرامانات جلالة السلطان الأعظم ومعااهدات الدول الأوروبية. تذكروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الأتاس واللورين إلى اليوم، وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما. وما حاجة فرنسا إليهما كحاجة مصر إلى السودان الخ

\* \* \*

وحدث أن زار اللورد كرومر السودان واجتمع هنالك بالموظفين والأعيان وألقى فيهم خطبة أثنى فيها على الموظفين الانكليز، وعلى نشاط الارساليات المسيحية التي جاءت للتبشير بين القبائل الوثنية السودانية، ثم انتقل إلى الحديث عن تعليم السودانيين، ومحاولة إلحاقهم بوظائف الحكومة فقال:

« أما في السودان فلهيئة الحاكمة الآن هيئة أجنبية. إذ لا يخفى أن المصرى أجنبي عن السودان كالانجليزى سواء بسواء. وكلا الشعبين البريطانى والمصرى يخدم السودان خدمة جلية».

ونشرت اللواء هذه الخطبة في عددها الصادر في أول فبراير سنة ١٩٠٣ وساءها أن ينعت اللورد كرومر المصريين بأنهم كالانجليز أجنب عن السودان فنشرت مقالا بعنوان:



## غريب في بلاده

جاء فيه :

لم يقرأ أحد من المصريين العارفين لحقوق بلادهم وتاريخها ، المظلمين على مايجرى بين الأمم من التزاحم على السلطة والنفوذ ، والعناية بتقديس ميراث الآباء والأجداد خطاب اللورد كرومر حتى قال ما قلناه من أنه سخر فيه من عواطف المصريين وحق مصر وكرامة المسلمين ، وأنه جاء مؤيداً لما قلناه على رؤوس الأشهاد من سنوات مضت من أن الانجليز لا يرومون من احتلال مصر إلا إضاعة كل حق ثابت لها ، واستخدامها ضد مصالحها . ولو كانت الظروف السياسية اليوم كما كانت في أول عهد الاحتلال لكننا سمعنا اللورد بيملاً الأرض تأكيداً بأن مصر صاحبة الحق الشرعى في كل ناحية من نواحيها ، وأن المصرى لا ينازع في السيادة على بلاده . ولكننا الآن في زمن كشف فيه المحتلون الستار ، ورفعوا الغطاء وأسمعوا الملا أنهم هنا وهناك بقوة الاغتصاب ، وأن مصر آلة في أيديهم ضد نفسها . والمصريون بين مستعبد خاضع لارادتهم ، ومتفرج لا يبدى حراكا . وأى سخرية من حق المصرى أعظم من كون اللورد يعلن أمام أبناء جنسه ويقول القسول ليبلغ مسامع الأمم كلها إن المصرى كالانجليزى غريب في السودان ، غريب في بلاده . غريب في تلك الأرض التى امتلأت جبهاتها من عظام آباءه ، وشربت أرضها دماء إخوته وأهله وذويه . غريب في مهد النيل ، غريب بين قومه . غريب في السودان بعد ذلك الجهاد المشهود والمال الممدود ، والدم الطاهر الذى أهرق في سبيل حقوق مصر والمصريين . غريب في بلاد قال عنها غلادستون « إن المصرى بما أنفق في السودان من مال ودماء مالك له ، ولو فصلت زوابع السياسة بينه وبين مصر » .

فاسمعوا معاشر المخدوعين والضالين أقوال اللورد ممثل الاحتلال وكبير المحتلين في مصر . اسمعوه يقول ، وللبيب أن يفهم مرهى أقواله إن مصر انفقت وستنفق على السودان عاما بعد عام حتى ينتظم أمره ويسعد حاله ويصير جنة دانية القطوف ، ثم يطرد منه كل مصرى ، ويستقل به الانكليزى دون سواه .

قال اللورد كرومر إن الممولين المصريين تعهدوا بدفع مبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنية سنويا مساعدة للسودان . ثم أراد أن يشكر مصر على هذه المنفعة فألقى على أبنائها الموظفين في السودان تهمة الشك والريب في استقامتهم وحسن سلوكهم ، وهددهم بالمساس بحقوق الجنب العالى الخديوى إذا خالفوا إرادة الانكليز وساروا على غير رغبتهم . وبديهي أنه ليس بعزيز على المحتلين أن يخلقوا من الحوادث البسيطة أسبابا كبارا لتأييد هذه التهمة وإبعاد كل مصرى عن السودان متى جاء الوقت المناسب وتم لهم ما يريدون . وما قصد اللورد من المساس بحقوق الجنب العالى الخديوى إلا حرمان المصريين من التمتع بنعم السودان وخيراته والاستفادة بتلك الشركة المشؤومة بين مصر وانكلتره .

وإذا كانت ظروف السياسة وحالة البلاد قضت على المصريين أن يقفوا موقف المتفرجين على مصائب بلادهم وشقاء أوطانهم ، فليكونوا في هذا الموقف ذوى قلوب تشعر وتتألم ، وأفئدة تحس وتتوجع ، وعيون تبصر وتذرف الدموع ، لأن المصيبة كل المصيبة أن تصب البلايا على بلاد أهلها في هو لا يشعرون ولا يتحركون الخ .

\* \* \*

ولعل من هذا القبيل ما قيل من أنه احتفل بمد الخط الحديدي بين الخرطوم وبور سودان ، وقام الانكليز بالقسط الأوفر من هذا الحفل الكبير ، ولكن المصريين لاحظوا يومئذ أن الخديو عباس لم يحضر بنفسه



هذا الاحتفال، ولا أناب عنه أحداً في الحضور، ولا حضر كذلك أحد من الوزراء المصريين. فساء ذلك صاحب اللواء، وكتب مقالا بعنوان (مصر والسودان) (١) لسنا بحاجة الى اثباته كاه أو بعنه.

\* \* \*

قلنا إن من وسائل اللواء في إذكاء الروح الوطنى فى المصريين الاهتمام بذكرى العظماء والاشادة بحسن بلائهم فى خدمة الوطن . ومن ذلك عناية صاحب اللواء بالدعوة إلى الاحتفال بالعيد المئوى لتولى محمد على حكم مصر . قال فى هذا الصدد تحت عنوان :

العبر المئبى لؤسى العائلة الخربوية

جاء فيه :

خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقاءها فى سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالهة أجلسها على العرش بارادتها، وصاغت لها نهوض إلى ذرى العلية، ونوال المن والنعماء، واعتمدت عليها فى إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى إليها» وبعد أن أشاد الكاتب بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال دعا إلى الاحتفال المئبى لولايته قائلا :

« وهذا التذكار السامى يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ . أى لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله إعترافاً بفضل محيها، وإجلالا للوطن الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر . فخير ما يحى الوطنية فى النفوس، ويجمع جوع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى . ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون » الخ

وقد نجحت الفكرة نجاحاً رائعاً ، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيرنيا  
بالاسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وهو يوم التذكار  
المئني لولاية محمد علي . وكان موضوع الخطبة (عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو  
وطنهم) ضمنها ما عمله الرجل لاهياء مصر ، وقارن بين مجدها في عهده ،  
وما صارت إليه من الذل والمهانة في عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن  
يهبوا لاهياء مجد مصر واستقلالها ودستورها . وقد كان الاقبال على سماع  
الخطيب عظيماً إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد  
وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها . وهرع إليه كثيرون من مختلف  
الأقاليم حتى من أسوان . وقوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالتصفيق  
والاستحسان ، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي  
لمراقبة تصرفات الحكومة وتقييد أعمالها

\* \* \*

ثم تأتي الكارثة العظمى كارثة الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا  
سنة ١٩٠٤ وينظر الناس في مصر إلى هذا الاتفاق على أنه ضربة قوية  
صوبها الاستعمار الأوروبي إلى قلب الحركة الوطنية . ولكن اللواء  
لا يصيبها الدهول الذي أصاب عامة المصريين ، بل سرعان ما تغير خطتها  
وتطرح فرنسا وغيرها من الدول وراء ظهرها ، وتتجه بكل قوتها إلى  
الشعب المصرى ، فتعتمد عليه في بقاء هذه الحركة ، كما تعتمد عليه في  
تحقيق آمال المصريين من وراء هذه الحركة . وتربص اللواء بدعاة الهزيمة  
في الأمة . وتقف لهم موقف الرقيب العتيد الذي يحصى عليهم حركاتهم  
وسكناتهم ، ويسجل عليهم أقوالهم ، ويلومهم على كل كلمة يراد بها بث  
الشعور بالهزيمة . من ذلك أن صحيفة من الصحف المصرية هنأت الانجليز بعقد  
هذا الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ، فأثيرت اللواء لهذه الصحيفة ، وردت  
عليها رداً فيه كل معانى السخرية في مقال بعنوان :



## تهنئة غربية

( بتاريخ الاثنين ١٨ ابريل سنة ١٩٠٤ )

جاء فيه :

قامت إحدى صحفنا المصرية التي شيد المصريون بناءها بأيديهم لاعتقادهم أنها كانت الناطقة بلسانهم ، المعربة عما في خواطرهم ، المدافعة عن حقوقهم ، المذكرة كبارهم وصغارهم بأن الاستقلال يجب أن يكون على الدوام نصب أعينهم . قامت هذه الجريدة تهنئ انكلترا على فوزها العظيم في المحاربات التي تمت بينها وبين فرنسا بموافقة هذه الدولة على الاحتلال ، وتعهدها بعدم المطالبة بالجلاء . وما معنى هذه التهنئة في هذا المقام إلا القول لانكلتره « هنيئاً لك بتأييد كلمتك في مصر وإتساع نطاق حكمك وسيادتك علينا معشر المصريين ! » وما عهدنا من قبل مأكولاً يهنئ آكله بوقوعه في قبضته واستعداداه للقضاء عليه ، وما عهدنا شعباً يفرح بنصرة عدوه عليه ويهنئه بفوزه في سياسة امتلاكه والتحكم فيه . فما هذا الشعور ؟ وما معنى هذه السياسة ؟ وهل يرجو صاحبها خدمة أمتة بقتل عواطفها ، وتدريبها على عدوها المستحكم فيها ، المتصرف في شئونها تصرف المالك فيما يملك ؟

أنظر أيها الكاتب إلى الشعوب التي أصابها ما أصاب شعبك تجد البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث يجد ويعمل مفكراً كل يوم وكل لحظة في بولونيا . يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها . والفنلندي وقد لبس هو وبقيّة أفراد أمتة ثياب الحداد يوم قررت روسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الامة . والايرلندي وقد عارض انكلترا في ضغطها على بلاده وسلبها حقوقه ، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ، ورد الأراضي الايرلندية إلى أصحابها الأصليين .

وأفطر إلى غيرهم وغيرهم لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الاخلاق والصفات وينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير إلا بالشعور الوطنى . فكل عامل على إطفاء ناره محارب لأمتة وقومه وذويه . وكل داع اليه مجد فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد الخ

\* \* \*

ولقد سبق أن ذكرنا أن صاحب اللواء بلغت به الغيرة الوطنية حداً فقد بسببه كثيراً من أصدقائه وأعوانه فى جهاده . ومن هؤلاء الاصدقاء على سبيل المثال : سعد زغلول . وقد بقيت الصداقة بينه وبين صاحب اللواء على أتمها وأخلصها إلى أن جاء يوم تولى فيه زغلول نظارة المعارف العمومية ، وأحسن مصطفى كامل فى صاحبه أول الأمر بعض الميل إلى رجال الاحتلال ، فحاسبه حساباً عسيراً على ذلك ، وكتب فى هذا المعنى مقالات من أهمها هاتان المقتالتان على سبيل المثال . أما الأولى فبعنوان :

لديعرف الوطن من لوططن لـ

( ١٢ فبراير سنة ١٩٠٧ )

لم يصرح فيها باسم سعد زغلول وإنما ساق الكلام . سوقاً عاماً حيث قال :

يظن بعض الجهلاء ويتوهم الدخلاء أن انتقاد الكبراء والطعن على المقصرين والخائنين من العطاء وأصحاب المراكز السامية جريمة على الوطن وبذيه ، وأن الوطنية الحققة تقضى على صاحبها بأن يستر عيوبهم ويقبل نقائصهم . . فيقول أولئك الضالون والمضلون : ما بال صاحب اللواء يمزق ( المجد الكاذب ) لبعض كبراء مصر من أبناء جنسه ودينه ؟ أهذه هى الوطنية ؟ كيف يدعى كفاءة المصريين لحكم أنفسهم بأنفسهم ، ويقضى بقلبه على أفراد من عطاء المصريين ؟ الى آخر ماجاء فى هذه المقالة



وأما المقالة الثانية من المقالات التي هاجم فيها سعد زغلول ففيها صرح باسمه ووجه الخطاب إليه حيث قال بعنوان :

### الحقيقة المرة

( بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧ )

يتوجع سعادة ناظر المعارف لأنى إنتقده وأريد تقويمه وأدله إلى طريق الشرف الحقيقي لا الشرف الموهوم . وما هو بأكبر من سيدنا عمر ، وما أنا بأحق من راعى الابل .

فاسمع يا سعادة الناظر الحقيقة المرة : —

إنك كنت قبل تعيينك وزيراً تشكو مما نشكو منه، وتألّم لما نتألّم منه، بل سبقتنا فى الشكوى والتألّم والانتقاد والسخط عقب حادثة دنشواى . وسمعنا منك من الطعن على الاحتلال وسياسته ما لم نسمعه من إنسان . وكنت تقول إنك تنوى بيع كل أملاكك ومبارحة هذا القطر؛ لأنك سئمت المعيشة فى بلاد أحكامها ما ترى . فما ارتقيت الوزارة حتى تغيرت مرة واحدة، وصرت « احتلاليا أحمر » . ولعلك لا تجهل أننا ممن يقولون بأنه لا يمكن للمصرى أن يكون احتلاليا ويبقى مضربا . وبعبارة أوضح أن خدمة الاحتلال ومصر معا — مادامت سياسة الاحتلال هي — أمر مستحيل . وتعرف كذلك رأينا فى زملائك فى الوزارة . وقرأت مرارا فى اللواء حكما عليهم .

ولذلك قلنا لك عند تعيينك ناظرا للمعارف إن أمامك سبلا ثلاثة . فلما أن تكون وزيراً حقيقياً ، أو ترى الأمر محالاً فتستقيل . وفى كلتا الحالتين تكون قد خدمت البلاد . وإما أن ترضخ للاحتلال فلا تجد منا إلا نفورا وعدا .

ولعلك لا تشكر أمام ضميرك أنك اخترت الطريق الثالث ، وأنك جاريت

المحتلين بما لم يكن ينتظر منك . فتركت الجامعة ، وسألك اللواء يومئذ  
 « كيف يهتم المستشار في الاستئناف بمشروع علمي ولا يهتم به ناظر  
 المعارف ؟ » . وقت مدافعا عن دنلوب وسياسته في المعارف ، فصرحت  
 بسرورك وارتياحك من حالة المعارف في جريدة الأهرام القراء ، وخطبت  
 خطبتك المشهورة في الجمعية العمومية ، فقلت ضد ما نعلم من اعتقادك ،  
 وجرحت الأمة كلها ، وأبيت أن تمد الجمعية بالعمل لجعل التعليم باللغة  
 العربية . وصرت ترى في اللورد كرومر سيد البشر ، فلا تقبل طعنا فيه ولا  
 انتقادا عليه . ورأى كل أصدقائك هذا الانقلاب في طباعك ، وبالغت في  
 الأمر ، فلم تلتفت إلى عواطف أمتك ، بل جعلت كل عنايتك موجهة لنفسك  
 ومصلحتك ، فقلت عن اللورد كرومر إن له في قلبك « مكانة عالية من  
 الاحترام » بعد أن سب الاسلام والمسلمين ، ولقب المصريين بالعميان ، وحكم  
 عليهم بالمذلة والهوان إلى آخر الزمان . (١)

وكان الذوق يقضي ألا تقول عن اللورد كرومر هذا القول بعد  
 طعنه القبيح في سمو الأمير .

قد يرضى البعض منك أن تعمل الجزئيات والصغار ، فتعين هذا وترقى  
 ذاك مما يتركه لك الانكليز . ولكننا نحن كنا نريد سعدا أكبر ممن نرى :  
 أتعرف ماذا كنا نرجو منك ؟

كنا نرجو أن تضع خطة إصلاح للمعارف شاملة لتعميم التعليم الابتدائي ،  
 وجعله مجانيا ، ولإنشاء مدارس تجبزية في أنحاء القطر ، وجعل التعليم باللغة  
 العربية ، والاستعانة بالأسانذة الاكفاء الذين لبوا نداءك وطلبوا خدمة  
 بلادهم . فتركت دنلوب يمزق هذه الطلبات وما حركت ساكنا ، ومكافأة  
 الذين يؤلفون الكتب النافعة للتعليم وإرسال الارساليات في كل أنحاء أوربا .

(١) راجع خطبة اللورد كرومر ورد السيد علي يوسف عليها وذلك في الجزء الرابع من كتابنا



فاذا قبل الاحتلال خطتك كنت الوزير الذى يشار اليه بالبنان . ونحن نعتقد أنه كان مضطرا لقبولها للظروف الاستثنائية التى تعينت فيها . وإن رفضها إستقلت وأعلنت للأمة أسباب إستقلالك ، وبرهنت الملاءمة كله أن فى المصريين من يضحون بالمناصب حبا فى الوطن ومصالحه .

ولكنك وجدت « محالا » اتباع هذه الخطة ، فوجدنا « محالا » قبول ما عملت والتمدح بما أتيت . لأن مبدأنا الذى نعرفه يقضى كما قدمنا بساءة الظن إلى آخر حد بمن يجارى المحتلين ضد مصالح الأمة .

يدفعك الغضب إلى القول بأنى لا أحب أن أرى فى البلاد عاملا يذكر بحبها والسعى لخيرها غيرى . فهل هذا اعتقادك الصحيح إذا سكن غضبك ورجعت إلى نفسك ؟ أهذا ما كنت تقوله بأعلى صوتك قبل تعيينك وزيراً بساعة واحدة ؟ وكيف دافعت فى اللواء عن المرحوم المنشاوى باشا وأطربته ووقفت ثنائى عليه لما وهب هباته الجسيمة للتعليم بعد أن كنت ألد خصومه ؟ وكيف مدحت كل خادم لهذه البلاد قام بالواجب خير قيام ؟ ولماذا كنت أرى فيك المستشار العادل والقاضى المتمسك بالحق ولا أرى فيك اليوم الوزير الذى تريد أن تمثله للأمة بغير حق ؟

فلا يدهشك منى أن أكون اليوم على خلاف معك فأنى عدو لكل صديق للاحتلال ما دامت سياسة الاحتلال هى هى . ولا تهمنى الصفائر ، بل أطلب الكرامة والوطنية الحقبة قبل كل شىء ، فهما الجوهر وما عداها العرض . ولعلك لا ترى اليوم ما أرى ، ولكن سعد بك زغلول كان يرى هذا الرأى من قبل .

فاسمح لى أن أكون معه ولا أكون مع الوزير .

\* \* \*

ثم بأتى يوم دنشواى وما أدراك ما يوم دنشواى ، فقد صال فيه

الرجل وجال ، ولم تكفه يومئذ صحيفة اللواء الوطنية ، وزميلاتها الفرنسية والانجليزية ، بل سافر إلى أوروبا وأخذ يكتب المقالات المثيرة في الصحف الكبرى ، وذلك فضلا عن الأحاديث الكثيرة التي سمع إلى أخذها منه بعض هذه الصحف ، والخطب الطويلة التي ألقاها الرجل في كبريات المدن الأوروبية ، وبحسبنا هنا أن نشير إلى مقالة واحدة نختم بها هذا الفصل . وبحسن بنا أن نورد هذا النموذج الأخير كما ورد في الصحف ، وهو كالآتي :

### إلى الأمة الانكليزية والعالم المنتمين

( بتاريخ ١٨ يوليه سنة ١٩٠٦ )

وافقتنا الأنباء التلغرافية في الأسبوع الماضي منبهة بأن صاحب اللواء كتب في جريدة « الفيجارو » الشهيرة مقالة ضافية عن مسألة دنشواي ونهمة التعصب الديني المزعوم . وقد دوت في أوروبا دوا عظيما وتناقلتها الجرائد الخطيرة على اختلاف لغاتها ، واهتم بها الساسة الانكليز بنوع خاص .

وقد جاءتنا « الفيجارو » الصادرة في يوم ١١ الجاري — وهو يوم تذكار ضرب الاسكندرية — وفي صدرها هذه المقالة الكبرى . وكانت الفيجارو قبل ذلك بأيام وافقت على خطبة السير ادوارد جراي في البرلمان الانكليزي ، فلم يكن في استطاعتها الرجوع عما قرره . ولذلك تركت مسؤولية المقالة التي نحن بصدددها لصاحب اللواء .

وحسبنا أنها نشرتها بكل عناية واهتمام . وقالت إنها « بليغة ومؤثرة » . وأذاعتها في أنحاء العالم ، فكأن كل الجرائد الخطيرة نشرتها لا جريدة واحدة .

وإلى القراء ترجمتها بالحرف الواحد :



« لقد حدثت حادثة مؤلمة في قرية من قرى الدلتا بمصر تدهى دنشواي ، تحركت بسببها عواطف الانسانية في العالم كله . وقام أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار في انكلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصحتها أن تسمع بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس كهذا .

وإنه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالانسانية والعدالة أن يدرسوا هذه المسألة ويحكموا عليها . وهي المسألة الشاغلة لأمة بأسرها . فقد ترك ضباط من الانكليز في يوم من أيام يونيه الماضي ممسكهم بالقرب من دنشواي بمديرية المنوفية وقصدوا إلى صيد الحمام في الأملاك الخصوصية للأهالي .

فأذّر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالي استاءوا في العام الماضي من صيد الضباط الانكليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد .

ورغمًا عن هذا الانذار فإن الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرقت غيط . فاجتمع الفلاحون من كل مكان ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانكليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانكليز . وقد تخلص أحد المجروحين وهو الكبتي « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس . ثم ما علم العساكر الانكليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية مجاورة لدنشواي ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه .

هذه هي الوقائع . ولكن ما علمها أصحاب الأمر من الانكليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم . وبدلاً من أن يعتبروا الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ،

بالقوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة. فلم تكن العدالة هي المنشودة في المسألة، بل الانتقام القطيع!

ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر ممثل المستشار الانكليزي قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أنقلت فيها كواهل المتهمين بالتهمة، وقصدت صراحة إلى التأثير على المحكمة والرأي العام. وبلغ من احتقار إحدى الجرائد القائمة في خدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشافق إلى دنشواي.

وقد راع الشعب كله ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه.

وقد اجتمعت المحكمة في هذه الظروف يوم ٢٤ يونيو وأى محكمة! محكمة استثنائية لا دستور لها ولا قانون يربطها. لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال.

محكمة الأغلبية فيها انكليز، ولا تستأنف أحكامها ولا تقبل العفو! وإن الدكريتو الذي صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ بناء على طلب اللورد كرومر وضمفه — ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقاً باظهار أقل مقاومة — ذلك الدكريتو يحمل قراءه على الظن بأن الجيش الانكليزي الذي ألقى اليه انكلترا أمر تأييد الأمن في مصر في خطر مستمر جعله في حاجة لمحكمة كهذه أو لآلة إرهاب؟

وقد قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية. وتبين أن الضباط الانكليز هم الذين هيجوا الفلاحين بصيدهم في أملاكهم، وبجرحهم إحدى نساءهم، وأن الفلاحين هجموا على الانكليز بصفتهم صيادين يختلسون الصيد لا بصفتهم ضباطاً بريطانيين. وأعترف أمام المحكمة أطباء انكليز منهم الدكتور نولن الطبيب الشرعي للمحاكم بأن الكاتبين بول مات بضربة



الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاجداث الموت .  
ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متما ليقولوا  
ما عندهم . وأبت سماع أقوال أحد من رجال البوليس أكد أن الضباط  
الانكليز أطلقوا أعيرة نارية على الأهالى . وبنت حكمها على تأكيدات  
الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة .

وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالأشغال  
الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ،  
وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة .  
وبالجلد على خمسة . وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكراباج له  
خمس ذبول !

وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم  
ينقض إلا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

فى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جىء  
بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد من شبين الكوم  
مديرية المنوفية إلى قرية الشهداء التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى  
ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المريع .

وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونيه جىء بهم إلى دنشواى .  
وكان أصحاب الأمر من الانكليز صمموا على تنفيذ الحكم فى محل  
الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها !

وقد نصبت المشائق وآلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها  
٢١٠٠ متر . وأحاطت عساكر ( الدراغون ) الانكليزية بالمحكوم عليهم .  
والتفت السوارى المصرية حول الانكليز . وتولى المستر متشل ومدير المنوفية  
أمر التنفيذ . وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده

لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضاً قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه إنسان !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانكليزية خيولها ، وأشهرت سيوفها ، وبدى بعد ذلك بدقيقة فى الشنق . فشنق رجل ، ولبت أعضاء عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم على بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب . وجلد اثنان أمام الجثة !  
وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات !!!

واستمر ساعة من الزمن منظر وحشى مهيج للعواطف ذرف فيه بعض الحاضرين من الأوروبيين دموع الحنان والنفور مما رأى . وذهب كل واحد منهم وهو يكرر كلمة أحد المشنوقين :  
« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! »

إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ سيمى ذكره فى التاريخ شؤماً ونحساً . وهو خليف بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية . وقد عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عند انتشار أخبار تنفيذ الحكم فى دنشواى . وقد كان يستحيل على أعداء انكلترة الوصول إلى هذه النتيجة بعد جهاد خمسين عاماً . ومن العجيب أن يكون الموجدون لها هم عمال الانكليز !

وقد انشأ الشعراء المصريون على حكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر التى أهينت فيها المدنية والانسانية بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس .

وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانكليزية نفسها والعالم المتمدن عما إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادئ العدالة وشرائع الانسانية إلى هذا الحد ؟ جئت أسأل الانكليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا



لنا عما إذا كانوا يرون مد النفوذ الأدبي والمادى لانكثرا في مصر بالظلم والعسف والهمجية ؟

جئت أسأل الذين يرفعون أصواتهم عالية ذا كرين الانسانية ، ماثين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط - إذا حدثت فظائع في بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة - أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد المدنية الأوروبية في أعين الشعوب الشرقية .

جئت أسأل الأمة الانكليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ، ووسائل همجية ، بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ما هى كرامة الانسان .

إنى أعجب في إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانكليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت في مصر .

ولكن لما رأى السير ادوارد جراى أن رأى العام أنقاد لهم ، وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر حين وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلاى المزعوم في مصر ، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح أن لا يشتغلوا بمسائل مصر حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، أو بعبارة أخرى يضعفوا اللورد كرومر القادر فيها على كل شىء . أمام خطر صرح علنا بأنه موهوم .

إن هذا الخطر ليس في أيدي أصحاب الأمر من الانكليز إلا وسيلة لتبرير الفظيعة الحديثة وفظائع أخرى في المستقبل القريب .

على أنه لا وجود لهذا الخطر . وما القصد من تلك الفظائع إلا إحداثه . وإنى أؤكد بحق أقدس شىء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى

في مصر. نعم — إن الاسلام سائد فيها؛ لأنه دين الأغلبية العظمى. ولكن الاسلام شيء والتعصب شيء آخر.

إن السير ادوارد جرای اتخذ في هذه المسألة. وإني أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتي :

هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع إنكاره أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية، مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم !

هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشغال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان هناك تعصب حقيقة ؟ ولماذا لم يحدث ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير ادوارد جرای معارك كعركة دنشواي في أثناء مسألة (طابة) حين كانت الأغلبية الكبرى من المصريين في جانب تركيا مع أن الجنود الانكليزية كانت تمر دائما في كل جهة بكل أمان واطمئنان ؟

لقد أثبتت المرافعات في قضية دنشواي بكل إفاضة وبيان أنه لادخل للاسلام فيها، فإن الضباط الانكليز وجدوا من بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتمضيذا .

إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا في المسألة . وإن مصر على بعد يومين من أوروبا . فليأت إليها الانكليز المحبون للعدالة والراغبون في عدم تلثم الشرف البريطاني . ليذهبوا إلى المدائن والقرى، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين وكافة المصريين، وليقتنعوا بأنفسهم أن الشعب المصري ليس متعصبا أبدا، ولكنه ينشد العدالة والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب لا كقطيع من الأغنام. وهو يعمل لنجاح هذا المطلب بكل وسيلة .

أجل — إن الشعب المصري شاعر الآن بكرامته. وذلك أمر لا يمكن



إنكاره اليوم . وهو يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب وهو طلب غير مبالغ فيه أبداً .

ولقد تكلم السير ادوارد جراى عن حماية الأوروبيين ضد المصريين . ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين بمصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب يحتج الزلاء جميعا على جرائمهم يقتلون ويجرحون المصريين ، ثم يغفلون من أبدى المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانكليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى ، والضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون فى السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلاً إن البرلمان والرأى العام فى انكلتره يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضاً . ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما اشتغل البرلمان بمسائل مصر ، واحتج على أعمال وحشية كهذه حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بأن التعصب خفيف على شواطئ نهر النيل ، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت . وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف .

ولذلك يقضى شرف الأمة الانجليزية عليها بأن تزن الأقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية التى أمامها الآن بكل استقلال .

لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكّد بأن الأمراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبعوضون للاحتلال ، لأنه سلبهم سلطتهم ، بخلاف الفلاحين فانهم يحبونه ، حبا جما ، ويدعون بدوام العصر الحاضر .

وبناء على ذلك فإنه إذا لم يمتد فلاحو دنشواى على الضباط الانكليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسايمهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة ، ويحق للعالم كله أن يقابلها بمزيد السخط . وإذا كان الأمر بالعكس وأنى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيستحتم على اللورد كرومر أن يتعرف بأنهم يمتقنون الاحتلال ، وأن إدارة جنابه أدت إلى فشل ليس له مثيل . ويحق عندئذ للمستتر (ويلون) أن يقول مؤكدا « إن خطة السير ادوار هي أتمس شرح لمركز انكلترا وسياستها في مصر » . على أن كافة الذين يقطنون مصر ويحبون الصدق والحقيقة يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا ثمرة حركة عدائية ضد الأوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أمم الارض إعتدالا وتسامحا .

إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير على الراى العام فى مصر واضحة جلية . فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا ، وتعريفه حقوقه وواجباته ، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم . وإننا أدركنا من أكثر من قرن إنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية . ونحن أول شعب شرقى صافح أوروبا . وإننا مستمرين على السير فى الطريق الذى سلكناه . وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر . ومقصودنا الذى نرى إليه هو استقلال وطننا . ومحال أن يوجد شئ ينسينا ذلك المقصد .

وإن إنعطافنا نحو الشعوب الاسلامية الأخرى طبعى ولا تعصب فيه . وإنه لا يوجد مسلم متنور واحد يظن لحظة واحدة أن من الممكن إجتماع الشعوب الاسلامية فى عصابة واحدة ضد أوروبا . والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين .



ولا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العالم والفكر الواسع الرافق .

وإن لمصر مكانا خاصا بها في الشرق . فهي التي وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وجعلت فيها طبقة راقية الفكر . وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سريعا . ومن المستحيل أن تحكم مصر — وهذا حالها — كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في أعماق أفريقيا وليس بينها وبين أوروبا اتصال .

ألم ير الناس الانكليز يفعلون ويتهيجون ضد ما يجري في جهات الكنفو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون بحدوث أفطع الجرائم في مصر ؟ إن من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر . فإن مصالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة بها .

وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى تهيج الشعب المصري ، وخلق عواطف عنده مخالفة للمرة لعواطفه الحالية .

وإننا إنما نطالب بالعدالة والمساواة والحرية . ونطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة . ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدالة في انكسارهم إلا أن يكونوا معنا ، ويلبوا مثلنا أن لا تكون مصر التي وهبت العالم أجمل وأرقى مدنية أرضا تفرح الهمجية فيها ، بل بلاداً تستطيع المدنية والعدالة أن تلبغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة !

مصطفى كامل

• • •

(وبعد) فربما أطلنا على القارئ بكثرة النماذج التي عرضناها في هذا الفصل . وعذرنا في ذلك أننا أردنا أن نعرض عليه صورة واضحة من هذا القلم الذي وقفه صاحبه على الدفاع عن الوطن وكرامة الوطن .

ومع هذا وذاك فالتنا لم نستطع أن نقي الرجل حقه من الوصف، ولا استطعنا أن نقدم النماذج الكافية للبرهنة على بلائه في ميدان الوطن والوطنية

واختار الله صاحب هذا القلم إلى جواره في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فضت اللواء في جهادها مستعينة في ذلك بالحزب الوطني ورجاله . وقد نجح الحزب الوطني نجاحا تاما في القضاء على الخلافات المذهبية في مصر ، ثم نجح الحزب وصحيفته نجاحا تاما وفي أمور ثلاثة أخرى :

أولها — المطالبة بالدستور . فلم يزل بولاة الأمور حتى شهدت مصر اجتماع مجلس الشورى في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٠٨ . وفيه أثيرت مسألة المطالبة بإنشاء مجلس نيابي على وجه السرعة ، بشرط أن يكون كأحدث المجالس النيابية في أوروبا .

وثانيها — اشتداد الحملة على بطرس غالى باشا الذى تولى الوزارة بعد مصطفى فهمى باشا . وقد أساءت هذه الحملة أيضا إلى الحديو نفسه . ثم ازداد اللواء حدة منذ تولى الشيخ عبد العزيز جاويش تحريره إبتداء من (٣ مايو سنة ١٩٠٨) فحمل على الحكومة المصرية بصفة عامة ، وعلى دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة المعارف بصفة خاصة ، وانتقد خطة الحكم المصرى فى السودان بوجه أخص . واضطرت الحكومة المصرية أمام هذه الحدة البالغة من جانب الشيخ جاويش أن تقرر العودة إلى قانون المطبوعات الصادر فى سنة ١٨٨٢ وإعادةه فعلا فى ٢٩ مارس سنة ١٩٠٩ ولكن هذا القانون كان كمود الثقاب أحدث الحرائق الهائلة فى الأوساط الوطنية والصحفية ، وراحت الصحف المصرية وعلى رأسها اللواء تشن الغارات المتوالية على الحكومة بسببه .

وأخيرا سجلت اللواء لنفسها نصراً كبيراً على الحكومة فى الأمر الثالث والأخير وهو .

ثالثها — رفض المشروع الذى كان يهدف إلى مد إمتياز قناة السويس . غير أنه فى أثناء مناقشة المشروع حدث أن عمداً ابراهيم الوردانى إلى إغتيال



بطرس باشا غالى . وكان يومئذ رئيس الحكومة المصرية . وقتل فعلا فى ١٠ فبراير سنة ١٩١٠ . وكان من أثر هذا الحادث أن صدرت ثلاثة قوانين ضيقت من حرية الصحافة . غير إنه بالرغم من صدور هذه القوانين مضت اللواء قدما فى معارضة الاحتلال والحكومة فى وقت معاً . فنشرت مقالا بعنوان « الزراعة والصناعة فى عهد الاحتلال بين مصر والهند » أوردت فيه إحصائية دقيقة توضح البون الشاسع بين عهدين ، هما عهد ما قبل الاحتلال وعهد ما بعده . فقامت الحكومة من جانبها بالإنذار اللواء ، فهاجت معظم الصحف على هذا الإنذار ، وهاجمته واستمرت اللواء فى كفاحها الموفق ونضالها المجيد حتى وقع خلاف بين ورثة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وانتهى الأمر بالحجز على مطابع الصحيفة ، فخرست الحركة الوطنية خسرانا عظيما .

وعلى أثر مقال حاد لمحمد بك فريد فى موضوع صندوق التوفير والتقابات الزراعية عطلت اللواء ، واختفت من ميدان السياسة ، بعد أن أبلت فى ميدان الحركة الوطنية من البلاء الحسن ما لم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف فى مصر .

---

## الفصل الثامن

# اللسواء والمجتمع المصرى

نتصفح جريدة اللواء فى السنوات الثمانى الأولى من حياتها كذلك فنجد لها عناية تامه بالمجتمع المصرى من جميع جوانبه . ولا غرابة فى ذلك فقد كان صاحب اللواء رجلا كثير الأسفار ، وكانت له عين يفتحها على وجوه التقدم فى البلاد الأوروبية التى يختلف إليها ، وكان له ذهن يعى كل ذلك ، وقلب فياض الاحساس ينبض بالغيرة على مصر ، ويتمنى على الدهر أن يراها بلغت ما بلغت أوروبا .

على أن صاحب اللواء كان لا ينفى فى أثناء ذلك أن لمصر شخصية خاصة ، وأن لهذه الشخصية طابعا خاصا . ومن ثم كان الرجل ملهما فى كل ما اتجه اليه من إصلاح إجتماعى . وكان إصلاحه مطابقا فى أكثره للطابع الذى تمتاز به هذه الشخصية المصرية . ومن ثم كتب له النجاح فى هذا الميدان الاجتماعى كما كتب له فى غيره من الميادين الاخرى .

ولنا أن نسرع هنا فنقول إن أكبر مسألة عنيت بها اللواء فى عصر مصطفى كامل هى مسألة التعليم ، وأن أكبر موضوع غنى به صاحب اللواء من موضوعات التعليم إنما هو موضوع اللغة العربية باعتبارها اللغة القومية للامة المصرية . ومن أجل ذلك دافع الرجل عنها أصدق دفاع ، وجرى فى ذلك على طريقة أستاذه النديم وطريقة الشيخ محمد عبده . ثم أضاف صاحب اللواء إلى كل ذلك دفاعه الحار عن مدرسى اللغة العربية . فقد أدرك يومئذ أن المحتل حين أراد شرا بالعريسة هبط بمدرسيها إلى مستوى أقل من



مستوى زملائهم ممن يشتغلون بتدريس المواد الأخرى . ومتى هان مدرسو اللغة القومية على أنفسهم فقد هانت هذه اللغة معهم ، واستخف الناشئة بها وبهم .

وكان من مظاهر العناية التامة من جانب اللواء بأمور التعليم أن تصدرت هذه الصحيفة لنقد ناظر المعارف المصرى سعد زغلول ، ونقد المستشار الانجليزى لهذه النظارة ، وهو المستر دنلوب ، ونقد كثيرين من موظفى هذه النظارة بعد ذلك .

وأن قارىء المقالات العديدة التى نشرتها اللواء فى موضوع التعليم ليحس برغبة ملحة فى أعماق مصطفى كامل فى أن يبنى التعليم المصرى على أساس من القومية المصرية ، وأن تعدل نظارة المعارف عن سياستها التعليمية التى هى من وضع رجال الاحتلال .

على أن صاحب اللواء لم يكن ينهج فى ذلك خطة صاحب المؤيد فى الاعتراف ببعض حسنات عهد الاحتلال ، وذكر شئ من مآثره على التعليم . فقد اعترف صاحب المؤيد للاحتلال الانجليزى بأنه أصلح ما يسمى ( بالتعليم الأول فى مصر ) وهذا حق فقد نظم الكتاتيب ، وعمل على إنشاء المدارس التى تخرج ( المعلم الأول ) ليحل محل الشيخ القديم الذى كان يقوم على تعليم الصبية القرآن الكريم ، وهو شخصية معروفة فى تاريخنا المصرى باسم « سيدنا » .

غير أن مصطفى كامل — يدافع عن حماسته ووطنيته — لم يكن من خطته الاعتراف ولو بالقدر الضئيل من الفضل لرجال الاحتلال على التعليم . وهذا أمر إن أجازته الوطنية المصرية ودعت إليه الحركة القومية فإن البحث العلمى لا يرضى به ، بل يؤثر عليه أسلوب السيد على يوسف فى إنتقاد الانجليز ، وهو أسلوب يقوم على ذكر حسناتهم ، كما يقوم على نقد عيوبهم على أن كلا من الرجلين ( على يوسف ومصطفى كامل ) كان يسكمل صاحبه

من هذه الناحية — وأغنى بها ناحية النقد الموجه إلى سياسة التعليم، كما كان يكمله في غير ذلك من وجوه الإصلاح الأخرى .  
وإن ننس لا ننسى لصاحب اللواء أنه كان من أول الداعين في مصر لعقد مؤتمرات التربية . وقد أعد عدته فعلا لواحد من هذه المؤتمرات ثم انعقده في نوفمبر سنة ١٩٠٧ .

على أن هذه الجهود المثمرة من جانب اللواء كانت تؤازرها جهود أخرى قيمة من جانب الصحافة المصرية ، ومن جانب الجمعية العمومية وكبار الشخصيات الوطنية والشرقية . ومن هؤلاء على سبيل المثال :  
محمد كرد علي — وقد دعا إلى إنشاء المجمع العلمي ، وفريد وجدى — وقد دعا إلى إنشاء مدرسة للعلوم العالية لطلبة العلم الدينى الاسلامى ، ويوسف البستاني — وقد دعا إلى تأليف جمعية لترقية اللغة العربية . ويطيب لنا أن نعيد هنا ما ذكرناه في الجزء الخاص بالسيد علي يوسف من إنه كافح في الجمعية العمومية من أجل اللغة العربية . وما زال علي يوسف بصديقه سعد زغلول إذ ذاك حتى أقنعه بضرورة جعل التعليم في المدارس المصرية بهذه اللغة .



وهكذا كانت مسألة التعليم من أهم المسائل التي عنت بها جريدة اللواء كما رأينا وتأتى بعد ذلك في الأهمية مسألة التجارة والصناعة القومية . فقد عنت بهما جريدة اللواء ، وطفقت تشجع المصريين على اقتحام هذه الميادين . وأعان على ذلك ماقلناه من أن صاحب اللواء كان كثير السفر إلى البلاد الأجنبية ، كثير الغشيان لمعارضها ومصانعها ومحافلها فكانت الفيرة تدب في قلبه دائما على مصر ، وكان الأسى يملأ نفسه على تأخرها . وكان يدرك بثاقب بصره يومئذ أنه إذا أريد بمصر أن تنهض نهضة تبلغ بها شأو الأمم الأخرى فلا سبيل إلى ذلك إلا بالصناعة . فلا تقلاب الصناعى هو الذى قضى على طبقة الملاك الزراعيين في أوروبا ، وهو الذى غير وجه الحياة في ذلك الجزء



من الدنيا ، وهو الذى قاد تلك البلاد إلى ميادين جديدة للعلم والحضارة .  
فإن أرادت مصر أن تصل إلى شىء من ذلك فعليها ( بالتصنيع ) الذى  
تستبدل به حياة بحياة ، ونظاما من نظم المجتمع بآخر ، وطريقة فى سياسة  
العيش بأخرى .

\* \* \*

وتأتى بعد ذلك عناية اللواء بموضوع الجيش المصرى ، والجنسية  
المصرية ، وموضوع البوليس المصرى ، والأمن العام فى الأقاليم ، وموضوع  
النواذى العامة وحق المجتمعات الراقية فى إنشاءها وإدارتها . وكان من  
أظهر النواذى المصرية فى ذلك الوقت ( نادى المدارس العليا )  
كانت اللواء تفهم أن هذه الأمور كلها بأيدي الانجليز ، وأن هؤلاء  
كان لا يعينهم الاصلاح الحقيقى قدر ما تعينهم المحافظة على هيبة الاحتلال  
البريطانى ومكائنه فى نفوس المصريين ولذلك وجدت هذه الصحيفة مشقة  
كبيرة فى هذا السبيل ، ولكنها طفقت تجاهد فى ذلك جهاداً طويلاً حتى  
كتب لها الفوز فى نهاية الشوط .

نعم إن اللواء كان عليها أن تقف للاحتلال بالمرصاد . وقد زعم رجاله  
فى مصر يومئذ أنهم إنما أتوا إلى مصر ليأخذوا بيدها فى سبيل الاصلاح المادى  
والاصلاح المعنوى . فشرعت اللواء تراقب أعمالهم باهتمام ، وتحاسبهم حساباً  
عسيراً على هذه الأعمال ، وتفسر حركاتهم بما يبنى عن يقظة هذه الصحيفة  
وحسن فهمها للألعاب الانجليز . وسترى من النماذج الصحفية التى نوردها  
فى هذا الفصل مايدلنا على ان اللواء كانت — بدافع من حرصها على المصلحة  
الوطنية — أميل إلى سوء الظن بتلك السياسة البريطانية فى معظم الأحيان  
ولعل أخطر ماكان المحتلون يرموننا به من التهم طعنهم فى كفاءة  
المصرى لإدارة بلاده . وهنا انبرت اللواء لهؤلاء فردت عليهم وذادت عن  
كرامة المصريين ، وحثت ظهورهم من سوء معاملة المحتلين ، وسخرت من تنمصيل

الموظفين البريطانيين الذين كانوا يتكبرون على شيوخ مصر وأعيانها في ذلك الحين .

ومن المسائل التي شغلت بال الرأي العام في المجتمع المصرى يومئذ مسألة ( السفور والحجاب ) ومسألة ( تعليم المرأة ) . أما الشق الأول من هذه القضية — ونعني به السفور والحجاب — فقد كان لجريدة اللواء رأى صريح فيها . وخلاصة هذا الرأى أن المرأة المصرية لا ينبغي لها أن تذهب في محاكاة المرأة الأوروبية إلى حد تقليدها في ترك الحجاب جملة واحدة . ومن ثم أخذ كثيرون من محررى هذه الصحيفة يهاجمون السفور مهاجمة شديدة ، وعارض السكثيرون منهم آراء قاسم أمين في هذا السبيل . على حين انتصرت ( الجريدة ) لصاحبها الاستاذ أحمد لطفى السيد — وهى لسان حزب الأمة — لآراء محرر المرأة . وبقي الرأى العام في مصر مشغولا بهذه المسألة إلى يومنا هذا .

وأما الشق الثانى من هذه القضية — وهو تعليم المرأة — فقد أجمعت عليه آراء الأمة ، ولا نعرف أن صحيفة من الصحف شذت عن هذا الاجماع بحال ما . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن رفاعة رافع الطهطاوى كان أول من دعا إلى تعليم المرأة ، وأعد لذلك العدة . وبفضله احتلت هذه الفكرة مكانها اللائق بها في برامج التعليم المصرى منذ ذلك الوقت . ولقد دأب اللورد كرومر على إيذاء المسلمين في شعورهم . وكان فيما أورده في ذلك أنه راح يسكى في تقاريره حظ الزوجة المسلمة ويقول : ما أشقاها حالا ، وما أكثرها عذابا الخ . فأخذ صاحب اللواء على عاتقه الرد على كرومر في هذه المسألة الأخيرة . وقد أراد صاحب اللواء أن يكون رده على اللورد بجريدة ( لتندار إجبسيان ) المعروفة . ومما جاء في رده يومئذ قوله :

... وإنه ليطول بنا البحث في المقارنة بين مركز المرأة في الحياة الاجتماعية الشرقية ومركزها في الحياة الاجتماعية الغربية . ولكن يستحيل



على مثل اللورد كرومر—وهو من رجال السياسة والاجتماع — أن يجهل ما عليه  
الكثيرات من الفتيات الغربيات في المدن الأوروبية الكبرى شظفا في  
العيش، وعناء في السكد والسعى، وشقاء ما مثله شقاء . بل مثله لا يجهل  
أن الرق هو استعباد من بعض الوجوه ، ولكن هؤلاء الفتيات قد  
استعبدن من كل وجه .

وغريب أن يعيش اللورد كرومر طول حياته السياسية في الشرق وهو  
يجهل ما في الشريعة الاسلامية من أوامر الرفق بالنساء والدفاع عن ذمارهن ،  
وتوفير أسباب الهناء لهن . يعاني الرجل أشد المتاعب طول نهاره سعياً  
على رزقه ورزق أهله ، فلا يخطر بباله مطلقاً أن يشرك زوجته معه في عمله ،  
وأن يعطيها قسطها من تعب . بل هو يرى في مثل هذا العمل خطأ من  
كرامته ونقصا في شهامته . أما الغربي فيهرق امرأته عسراً . بل لقد  
يستريح هو وزوجته تقى في العمل إجهاداً .

ومن يدري لعل العلم والمدنية يتفقان غداً على تخطيط المدنية الأوروبية  
الحاضرة في إنهاك النساء بالعمل . وهن إنما خلقن ليربين النسل في هدوء  
البيت وسلامه . وهذا هو رأى ( شوينهاور ) أعظم علماء الاجتماع بلا خلاف .  
ولعله يكون غداً رأى جميع العلماء . ( انتهى المقال )



على أن للمجتمع المصري كما للمجتمعات الأخرى آفات كثيرة ومعائب شتى .  
والمصلحون في كل زمان يبذلون الجهد في محاربة هذه الآفات ، ومكافحة  
هذه المعائب . ومن الحق أن يقال هنا كذلك إن المصلحين الاجتماعيين  
في هذه الناحية عيال على رجلين من رجالات مصر ، هما السيد عبد الله النديم  
والشيخ محمد عبده . فلقد كان هذان الرجلان العظيمان أول رائدين من  
رواد هذا الميدان ، وأعظم فارسين من فرسانه . والذي لا ريب فيه أن  
أصحاب الصحف منذ يومئذ أخذوا يتابعون السير في هذا الشوط حتى

كان عهد الصحافة المصرية بالموبلجى الكبير والموبلجى الصغير والسيد على يوسف ومصطفى كامل ، فوجدنا هذا الرعيل من الصحفيين يهتمون اهتماماً زائداً بموضوع العادات المصرية والاخلاق المصرية ، فيستقبحون منها ما قبح ، ويستحسنون منها ما حسن ، ويقومون في أثناء ذلك بالواجب الذي أملاه عليهم ضمير الصحفي .

على أن صحفيي عهد الاحتلال — وفيهم مصطفى كامل — كانوا يتبعون كذلك نفس الخطة التي أتبعها المصلحون من قبل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ونحن نعلم أن أولئك المصلحين من أمثال محمد عبده والنديم كانوا كثيراً ما يكتبون عن الشرق والغرب . ويوازنون بين المدنية الشرقية والغربية ، يرمون من وراء ذلك إلى نقد المصريين من الناحية الاجتماعية والعقلية والخلقية والحضارية ، وينبهون القارىء المصري بشدة إلى أن الفرق بعيد جداً بين الحضارة في لها والحضارة في قشورها . وأن الخطأ كل الخطأ إنما هو في الأخذ بقشور الحضارة دون اللباب ، أو بعبارة أخرى الاكتفاء بمصطلح الحضارة أو عنوانها دون الكتاب !

من أجل ذلك حاربت اللواء كثيراً من عادات المصريين الضارة في الأفراح والمآتم ، وعاداتهم الضارة في الخمر والميسر وتعاطى المواد المخدرة ونحو ذلك ، وعاداتهم الضارة في المضاربات والرشوة والمحابة والعزوف التام عن الهجرة الخ

بل إن صاحب اللواء ذهب في نقده الاجتماعي إلى حد أنه عاب على الأمراء المصريين الذين ينفقون أموالهم في أوروبا ، وإذا دعاهم داعى الوطن إلى شئ من البذل بخلوا بعشر هذه الأموال الطائلة على الأمة التي هم منها ! (١)

وأكثر من هذا وأشد إمعاناً منه في تربية الشعب المصري وتدريبه

(١) راجع في ذلك مقالا بعنوان ( بين الشاغلين ) ١٣ يوليو سنة ١٩٠٣



على احترام نفسه أمام الحكام ما نشره في اللواء بعنوان «حكام الريف» من مقال نصح فيه الموظفين المصريين في الريف ألا يبالغوا في إحاطة أنفسهم بمظاهر الاجلال والعظمة ، فان ذلك مما يبعث في قلوب العامة رهبة شديدة من الحاكم تمت فيه قوة الدفاع عن الحق والمطالبة بالواجب ! (١)

\* \* \*

وأخيراً وجدنا لجريدة اللواء اهتماماً خاصاً بالقضايا الفردية في المجتمع المصرى . وأهم هذه القضايا ما كان له علاقة واضحة برجال الاحتلال ، أو كانوا يقحمون أنفسهم فيه إقحاما لغاية من غاياتهم المعروفة في تلك الفترة .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال :

قضية المنشاوى باشا ، وقضية الزوجية وغيرها . أما قضية الزوجية فخاصة بالسيد على يوسف . وقد أشرنا إليها في الجزء الرابع من أجزاء الكاتب . (٢) ونضيف هنا أن مشاركة اللواء في التعليق على هذه القضية كان ذا وجهين : أولهما — النزاع الصحفى الذى كان مستمراً في كثير من الأوقات بين صحيفتى المؤيد واللواء .

وثانيهما — الكيد للاحتلال البريطانى الذى أراد أن يقف في صف السيد على يوسف في هذه القضية الشخصية لينصره على الشعب المصرى ، وعلى الحكومة المصرية . وبذلك يكسب الاحتلال إلى صفوفه رجالاً ذا نفوذ كبير كالسيد على يوسف . ولكن إرادة الشعب المصرى ممثلة في القضاء المصرى عكست على الانجليز أغراضهم ، وطاحت بآمالهم ، واستطاعت أن ترد السيد على يوسف الى صفوف الشعب الذى علم زعيمه درساً بقى يذكره طول العمر .

(١) اللواء في ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٢

(٢) راجع الفصل الثالث من ١١٠ — ١٢١

وأما قضية المنشاوى باشا فخلاصتها (١) : أنه سرق من مزارع سمو الخديو (بالجديدة غربية) ثوران فى يوم ٢٢ مارس . فاهتمت المديرية بالأمر ولكنها لم توفق للعثور عليهما . وعندئذ تقدم المنشاوى إلى الخاصة وعرض عليها معاونته فى العمل لاعادة الثورين . فقبل طلبه . وقد توصل بعد البحث إلى معرفة السارقين واسترد الثورين . وقبض المأمور على اثنين من بلدة ( شبراخات ) انحصرت فيهما التهمة . فتسلتتهما النيابة للتحقيق ، وأودعا سجن المركز . وبعد يومين أخذها المأمور إلى القرشية بلدة المنشاوى باشا بناء على طلب منه ، بعد أن أفهم المأمور أن وجودهما بداره يفيد القضية ، ويعاون فى الكشف عن خباياها . ثم أعيدا إلى السجن . ولما ذهب رئيس النيابة لسؤالها ثانية قررا أنهما عذبا بالضرب فى دار المنشاوى باشا . فأحिला إلى الكشف الطبى ، ووجدت بهما آثار الضرب . وتقرر لأحدهما علاج خمسة عشر يوماً ، وللآخر عشرة أيام . فأخذت النيابة فى تحقيق هذه الواقعة الجديدة . وذهب النائب العام والمستتر ويلسن مفتش الداخلية إلى طنطا للإشراف على التحقيق .

وفى ٢٩ مارس قرر المنشاوى والمأمور وعدة شهود أن المتهمين لم يضربا فى داره . ولكن التحقيق انتهى بالقبض على المنشاوى باشا والمأمور ، كما أوقف سعد الدين باشا مدير الغربية وأحيل إلى مجلس تأديب . « وقد علمت أن وفداً من الكبراء حضر إلى السراى لرجاء سمو الخديو فى الافراج عن الباشا نظراً لمكاته . ولكن جنابه رأى أن يأخذ التحقيق مجراه » .

وفى ١٤ ابريل رفع المنشاوي باشا إلى الخديو برقية بأنه بريء من

(١) كما وردت فى كتاب : مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا — القسم الأول — الجزء



نهمة التعذيب، وبرجاء اهتمام سموه بالأمر. فأوفد إليه أحد رجال السراي لتحقيق شكواه. ولكن سموه كان يعرف أن المنشاوي باشا إنما يعامل هذه المعاملة نظراً لصلته بالسراي الخديوية، وأن هذه المسألة موجهة للخديو في شخص المنشاوي باشا. ولم يكن الخديو يريد الاصطدام بالانجليز في مسألة قانونية.

وقدم المحامي عن المنشاوي باشا تقريراً إلى اللورد كرومر طالباً فيه نفي موكله من مصر، إذ أنه يفضل النفي على حالة الاذلال التي يلاقها في السجن. وأنه يعامل معاملة سياسية لا قانونية. فأجاب اللورد كرومر بأن ذلك خارج عن حدود اختصاصه وأن المسألة داخلية بحتة.

وقدم المنشاوي باشا وشركاؤه إلى المحكمة. فأصدرت حكمها في ٢٥ ابريل بحبس المنشاوي باشا ثلاثة شهور، والمأمور شهرين ونصفاً، وخادمين من خدام المنشاوي باشا نفذاً أمر التعذيب شهرين (انتهى كلام أحمد شفيق)

اهتم رجال الاحتلال بهذه القضية الفردية لأغراض سياسية، منها حرصهم على أن يظهروا للجمهور المصري ولأوروبا بمظهر الحكم العدل الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم. ومنها حرصهم على أن يظهروا كذلك بمظهر المدافع القوي عن الديمقراطية التي تنكر الرق وتستعجن كل ما يقترن به من أمر التعذيب بغير حق، ونحو ذلك.

غير أن وراء هذا الاهتمام أموراً لا تخفى على ذهن القارئ.

منها محاربة الانجليز للخديو في شخص المنشاوي باشا، كما صرح سموه

بذلك.

ومننا إذلال الكرامة المصرية في أشخاص كبار المصريين تحت ستار المساواة التامة في القانون. وقد كان ذلك دأب المحتلين. وكان أكثرهم من الشبان المتغطرسين الذين جلبهم اللورد كرومر من انجلترا. ولقد دعا ذلك كلا من السيد على يوسف ومصطفى كامل إلى الكتابة مراراً في صحفهما، وإلى الشكوى من

هذه الغطسة التي يتكلفها شبان الانجليز من الرؤساء لأغراض خبيثة ، من أهمها إفهام المصريين أنهم ليسوا أهلاً للحكم الذاتي ، وأنهم خليقون بهذه الوصاية الانجليزية التي يقوم بها الاحتلال الانجليزي ، وذلك حتى يبلغوا بالمصريين مرحلة الرشد السياسي والرشد الاجتماعي والرشد الثقافي .

شعرت اللواء بكل ذلك ، وأحس صاحبها بأكثر من ذلك . فاندفع يذود عن كرامة المصريين ، ويكشف في صحيفته عن نوايا المحتلين . فكتب كثيراً في هذا المعنى ، وختم فصوله الكثيرة بمقال له بعنوان : ( إفلاس الاحتلال ) ستأتي الإشارة إليه .

\* \* \*

وكان للاحتلال البريطاني في مصر موقف شبيه بهذا الموقف المتقدم في مسألة من مسائل المجتمع المصري ، هي ( مسألة الحج ) .

فقد انتشر الوباء في مصر في سنة من السنين ، فأوعز الانجليز إلى الحكومة المصرية ، فأصدرت أمراً بمنع الحج في تلك السنة . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لقلنا أن للانجليز الحق في إصدار هذا الأمر . ولكن الأمر تعدى ذلك إلى محاولة الانجليز فرض ضريبة على المصريين يؤدونها عند قيامهم بالحج . ونظر الرأي العام في مصر إلى هذه الضريبة على أنها نوع من الازدلال للمصريين ، وعلى أنها حيلة من الحيل التي يعتمد إليها الاحتلال الانجليزي ليجرم المسلمين من أداء فريضة من أهم فرائض الدين . ومن ثم أفسحت اللواء صدرها لعشرات من المقالات التي كتبت في هذا المعنى ، حتى لقد أصبح لمسألة الحج معنى جديد فهمه اللورد كرومر فيما بعد . فقد فهم أن كثرة إلحاح الكتاب في هذا الموضوع قد أصبح مظهراً قوياً من مظاهر قوة الرأي العام في مصر . ثم أشارت اللواء إلى هذا المعنى في كثير من مقالاتها بعنوان ( حقوق الأهالي ) وعنوان ( الحج وسكوت الأمة ) وعنوان ( معنى احتجاج الأمة ) ونحو ذلك .



وكان لصحيفة اللواء موقف كهذا الموقف في مسألة (سكة حديد الحجاز) وذلك حين أوحى الانجليز إلى المصريين بالامتناع عن الاشتراك بأموالهم في هذا المشروع . فحذرت اللواء المصريين من ذلك الصنيع . ودل هذا العمل وغيره من الأعمال الماثلة له في ذلك الوقت على قوة الرأي العام المصرى ، وعلى بفضه لسكر ما يتصل بسياسة الانجليز في مصر .

ثم أن الاحتلال الانجليزى في عهد اللورد كرومر كان يمارس لعبة خطيرة كل الخطورة . وجاء خلف اللورد كرومر في مصر — وهو السير دن غورست — فمضى في هذه اللعبة الخطيرة إلى آخر الشوط . ونعنى بهذه اللعبة محاولة الانجليز التفريق بين عنصرى الأمة ، وهما المسلمون والقبط . واتخذ هذا التفريق في بعض مراحله مظهرا من مظاهر المنافسة الحادة في ميدان الوظائف الحكومية . وكانت مصلحة السكة الحديدية ميدانا خطيرا لهذه المنافسة . وذلك منذ أوحى إلى القائمين بأمر هذه المصلحة أن يؤثروا فيها الأقباط على المسلمين ، وأن يعتمد ولاية الأمور في ذلك على أوهى الحجج .

وبالفعل سارت هذه المصلحة من مصالح الحكومة المصرية على هذه الخطة الظالمة . وأحدث ذلك في نفوس المصريين شعورا بالخرج ، ووجدوا فيه تحديا لشعورهم الدينى ولكرامتهم القومية . وحمل ذلك اللواء على كتابة المقالات الكثيرة في هذا المعنى . وهى مقالات تلتطف فيها الكتاب المسلمون ، وحملوا أنفسهم على الأدب في كتابتها ، وضمنوها إحصائيات كثيرة لعدد المسلمين من المصريين بالنسبة لعدد الأقباط منهم ، ولعدد المتعلمين من هؤلاء وهؤلاء . وقد أشرنا إلى محنة قاسية كهذه المحنة عند الكلام عن السيد على يوسف ، وذلك في فصل من فصول الكتاب بعنوان على يوسف والمؤتمر المصرى. (١)

(١) هو الفصل السابع من ١٩١ ، كتاب أدب المقالة الصحفية في مصر الجزء الرابع .

ثم أسرف الكتاب المسلمون وانزلق بعضهم إلى الشتائم التي أصابت إخوانهم القبط عن قصد . أو غير قصد . وكان في وسع الانجليز أن يطفئوا هذه النار الملتهبة ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك رموا في النار حطباً وصبوا عليها زيتاً . وطفقت اللواء تطفىء من هذه النار حيناً ، وتشعل بعض أجزائها حيناً آخر . فرة تنشر مقالا بعنوان ( الجامعة الوطنية ) . وأخرى تنشر مقالا بعنوان ( المسلمون والأقباط ) — كلمة إلى من يجيدون سماعها ) ، إلى أن مات مصطفى كامل ، وخلفه الشيخ عبد العزيز جاويش في تحرير اللواء ، فوصل بهذه الفتنة إلى أقصاها ، وأخذ الامر حده . ثم جاءت الثورة المصرية عام ١٩١٩ فألقت بين عنصري الأمة ، ووحدت بينهما . وما زال الأمر على هذه الحال الطيبة إلى اليوم .

\* \* \*

ذلك إذن هو المجال الذي كانت تسبح فيه اللواء منذ أخذت على عاتقها الاهتمام بأمر المجتمع المصرى فى تلك الفترة .  
وإذ قد فرغنا من هذا الاطار العام للمقالات الاجتماعية التي نشرتها اللواء فليق بنا بعد ذلك أن نقدم للقارىء إحصاءاً مجملاً لأهم هذه المقالات فى السنوات الثمان الأولى من حياة اللواء ، أعنى إلى أن حال الموت بين مصطفى كامل وصحيفته .

فى السنة الأولى من حياة اللواء نجد عنوانات :

الحج الشريف - احترام الأديان فى مصر - واجبات الوزراء أمام الأمة والأمير - التريبة الجنسية - ما هى التريبة - اللغة والأمة - حقوق الجيش - بماذا يلام الشعب المصرى - المدارس الأهلية - التقليد - الحجاب الحجاب - أينهم المصرىون - الحرية الشخصية فى مصر - حالة السكتاتيب أمس واليوم - لماذا لا نعمل - الحكومة والصحافة فى مصر - كيف تكسب الفضيلة - المضاربات وعبرتها - مظاهر المدنية الحقبة - الحكومة والشركات - فضل الشرق



على الغرب - علة الشرق - كلمات في الخطابة والخطباء - الوطنى والأجنبى فى بلادنا - أمنية الفلاح - بم نصير رجالا - مصير الصناعة - كتابنا وكتابتهم - الخطر العظيم على الشبيبة المصرية - الصنائع فى مصر - الجيش المصرى - كيف تغلب الغرب على الشرق - الجهاد العلمى .

وفى السنة الثانية :

الأمة والأمير - مقارنة بين مدينتين - المرأة الجديدة - تحرير المرأة - المرأة الجديدة فى باريس - الصناعة فى مصر - المرأة المسلمة - التربية والتعليم - مصائب الشرق - الاحسان فى الاحسان - حركة علمية بين المسلمين - بقظة أفكار المسلمين - الاتجار فى الزواج - حق الانتخاب فى مصر - المديرون - الداء الأجنبى - أصل تأخرنا - عظماءنا وعظماءهم - حاربوهم بالاعراض - تعاسة الفلاح - الحجاب الحجاب - رجاء المنوفية فى مديرتها الجديد - الحجاب - عوائد الأمة فى أفراحها - أفراح أم خراب وأتراح - الحكومة والميسر - حياة الأمم بحياة لغاتها - حالة المتعلمين فى مصر - سلطة العمدة فى البلاد - تأثير الدين على الاخلاق - محاربة الخمر - الاجهاز على لغة البلاد - المرأة والحجاب - الرتب والنياشين - الجهاد فى سبيل العلم - هل للنساء أن يشاركن الرجال فى الأعمال - منزلة الصحف وما يجب أن تكون - أحوال الفلاح - الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما - نظارة المعارف - الجنديّة فى مصر - التربية والتعليم - البوليس - إحدى نتائج المدنية الغربية - ثمن النصيحة فى مصر - المصريون والنزلاء - الحرية الشخصية والحرية العمومية - سكرتارية المعارف - مدرسة محمد على ( دعوة واجبة الاجابة ) - الوظائف والموظفون - لا يعرف الصحة إلا من مرض - الترقى بالدين والترقى بالوسائل المادية - القضاء والقدر - حقوق البلاد على أهلها .

وفي السنة الثالثة :

كفاءة المصرى — ما هي الوساطة التي توصلنا إلى السؤدد والمجد —  
 إلى أين . نسوق أبناءنا — الميراث المقدس ( يريد اللغة العربية ) —  
 الفضيلة والذيلة في مصر — الجيش المصرى — همجية المتمدنين — الحرية  
 الشخصية — نحن أحق بصحفنا — السراة عنوان الامة — قواد الجيوش  
 وقواد الأفكار — قوة العقيدة — طنطا وما فيها — لامساواة في مصر —  
 مسألة المنشاوى باشا ( ٥ مقالات ) — إلى رجال العدالة — الف خطوة  
 إلى الوراء — مناهضة المديرين وماذا يجب عليهم — كلمة عن نظار الأوقاف  
 الأهلية — قضية المنشاوى باشا — هل على جبر أم بميت غمر — فئة أخرى  
 تموت جوعا — لا قانون إذا كان العقاب غاية الحكومة — الحكم في قضية  
 المنشاوى باشا — كيف يخلف الولد أباه — ماذا يعوز مصر — خطوة  
 كبرى إلى الأمام ( أو روح جديدة في مصر ) — الأصل في تزويرات  
 القيوم — السر في تقدم الانجليز — نظارة الزراعة المصرية — امتحان  
 الشهادة الابتدائية — شوارع المدينة — التعليم أيها الشاكون — المريات  
 المريات — المتاجرة بأوراق اليانصيب — سخرية الغرب من الشرق —  
 الجرائم في مصر — هذه شدتكم ألا تذكرونها يوم رخائكم ( كلمة في الاقتصاد ) —  
 الصيدليات والصيدالة في مصر — التمثيل — الوباء والحج — الخطابة في  
 المدارس — حكام الريف — البوليس البوليس — رأى على المرأة المصرية —  
 السكوليرا — الكتابة والكتاب — كفاءة المصرى — حقوق النواب في  
 مصر — الأمن والعدالة في مصر — المجالس الحسبية — المتحف المصرى —  
 مسألة الحج — فوائد الصوم الصحية — كلمة إلى القائمين بمهمة التعليم —  
 احتكار الحج ( أو المتاجرة بفرائض الاسلام ) — مهرجان العلم ( أو المؤتمر  
 الوطنى ) .



### وفي السنة الرابعة :

مياه الشرب — دستور أم استبداد ( أو دفاع اللواء عن اللغة العربية وعن التعليم بها ) — الحج الحج — مسألة المجلس البلدى — الانقلاب فى التعليم — مسألة الحج ( أى الحكومتين الانكليزية أم المصرية ) — الوقت والنظام — الحج الحج — الحج فى الاسلام — مابعد هذه النهضة — التعليم فى مصر وشعور الأمة بضرورته — الزراعة فى مصر — ٢٧ حاجا — الجمعية الزراعية الخديوية — الغرباء فى مصر — القضاء المصرى ومجلس النظار — آفات التقاضى -- حاجة الشرق إلى تقليد الغرب — التعليم الأهلى ووجوب الاهتمام به — الضباط المصريون ( قسمة ضيزى بينهم ) — الاصلاح وخطة الدولة — تعليم القرآن الكريم — التعليم فى مصر — الامن فى الأقاليم — الاصلاح والقتل — مصر والزراعة — صفحة الامن — المجالس الحسبية والأوصياء — اللورد كرومر والحج -- عمران العاصمة — الأمن فى الأقاليم — الاحتلال والتعليم ( مدهشات اللورد كرومر ) — الضربات الثلاث على مصر والمصريين ( الحشيش والمقامرة والمهاجرة ) — مربوط وعمرانها — الحج والحجاج — ( ماذا عملت الحكومة ) — إذا اشتد البياض صار برصاً ، وإن اشتدت المحابة صارت تعصبا — المساجد والنساء — السكة الحديد كلها عجائب وغرائب — العلم والعلماء فى الاسكندرية — المحسوبة والاحتلال ( علاقتها بالسكة الحديدية ) — امتحان شهادة الدراسة الابتدائية — المسلم فى السكة الحديدية — المسلمون والأقباط ( كلمة يحبون سمعها ) — خطباء المساجد كيف تترقى الأمة — الازهر الشريف وعلومه — جنابة البوليس على الآداب — شكاوى المسلمين من الأقباط — اللغة العربية وأنصارها -- المدارس والمعارف فى مصر — الحركة الفكرية فى مصر — الثروة المصرية — داء الجدري وداء الجهل .

### وفي السنة الخامسة :

آفات التقاضى فى المحاكم الأهلية — تلافى الطاعون وما يخشاه

الزراعون — محابة الحكومة للشركات — الصحافة في مصر — كرة  
 القدم في مصر — العدل والمحاكم — الشرق ماضيه وحاضره — متى  
 يستتب الأمن في مديرية البحيرة — الكلمة الأولى لرجال المحاكم الشرعية —  
 الكلمة الثانية لرجال الحكومة بشأن المحاكم الشرعية — نظارة المالية —  
 افتتاح المعرض الزراعى المصرى لعام ١٩٠٤ — الاحتفال بالعلم : مدرسة  
 مصطفى كامل — مالية مصر — تلاميذ الصنائع والمهندسخانة — التعليم  
 والتربية — الجليل في مصر — المجمع العلمى المصرى — همجية التمدنين —  
 مجلس الأوقاف الأعلى — الاعتداء على الأديان في مصر — ثروة المحاكم  
 وفقر القضاة — فوضى المبشرين — استقلال القضاة — رد على رأى اللورد  
 كرومر — تقدير وأمن ضدان لايحتمعان — أين جمعية الرفق بالحيوان  
 ترى مايجل بالانسان — الفضيلة الأولى بين الأمم — مستقبل صغار  
 المستخدمين — شرف الجندي ومجد الأمم — الحكومة والشركات —  
 استقلال القضاة — الامتحانات العمومية — البلاد في الصيف — أهم موارد  
 الثروة — الجزء من جنس العمل ( أوقضية صاحب المؤيد ) — المجاهرة  
 بالاحاد — المعارف ومدرسة المعلمين — الشعب والأوقاف والحكومة —  
 محاسبة نظار الأوقاف — استقلال الموظفين — الحج والحكومة — رخص  
 لاغلاء — حرية الموظفين والاهالى — اللغة العربية والاحتلال : تقرير عظيم  
 الأهمية ( وهو تقرير قدمه حسن باشا عبد الرازق نائب المنيا إلى مجلس  
 شورى القوانين حول مشروع المحاكم الجنائية ) — من الرجل العظيم ؟  
 وفى السنة السادسة :

تربية البنات — مجلس الشورى — الأهالى والأموال الأميرية — اللغة  
 العربية ودول الاسلام — هل تعمل الحكومة في مصر لخير الشعب ؟ كلا —  
 الوزراء المصريون — همجية التمدنين — المشروع القطنى ( بين الأمة  
 والحكومة — سلوك وزارة المعارف وغلاء التعليم — زراعة الدخان في  
 القطر المصرى — موقف المصريين بين العلم والسياسة — خطاب إلى حضرات



القضاة في المحاكم الجنائية الجديدة — أهذا برهانكم يا أنصار غلاء التعليم — الشركات في مصر — الأزهر — معاملة الانكليز للموظفين المصريين — التعليم والورد كرومر — قضية الفقراء ( العلم يتألم والشبيبة تتأوه ) .  
بيضة الديك في نظارة المعارف — تجارنا الوطنيون — مصائب الحجاج ومن أين جاءت — الواقفون والعلماء — مؤتمر المستشرقين — الحكومة وأموال الفقراء — الحكم في قضية آل رفاعه — مذكرة المعارف لمجلس النظار بتحويل نظام الدراسة الثانوية — الأمة المصرية وشيء من صفاتها — الصحة في العاصمة — المحاباة داء قاتل — ولاية الامور ورجال الاصلاح — التربية قبل العلم — الاقبال على التعليم — مبدأ حركة فكرية في مصر والهند — المعرض الزراعى بالمنصورة وتشريف الجناب العالى لافتتاحه — محاربة العلم في مصر — تقدم الجهاد الفردى في مصر — تعميم نشر التعليم — الصحافة والأمن العام — الغلاء والمستخدمون .

وفى السنة السابعة

قضية تتجدد ( ما بين الأغنياء والفقراء كل آن ) — استعداد الأمة للترقى — المهاجرة إلى السودان — رفاهية مصر وتحريرها — المعارف والتعليم ومغالطة الصحف في البحث — زمن الشدة على الفقراء — مسألة الطلبة — العدل لمن ادخرتموه إن كنتم عادلين — النساء عندهم والرجال عندنا — الجمعية الخيرية الاسلامية — مسألة التعليم — المجلس التشريعى الجديد ( أو مشروع اللورد كرومر ) — التعليم العالى بمصر — الأزهر والأزهريون — انظروا للأمن العام — الصحافة المصرية في نظر اللورد كرومر — المجاهرة بالرأى الصحيح — فظائع العدالة في مصر — كلية عليكرة — ماذا يفيد المال والعلم ضائع — حاجة مصر لترقية الصناعة ( وأثرها في المعرض الزراعى ) — آمال البلاد في ناظر المعارف الجديد — تحرير المرأة وتحرير الرجل — ماذا يريدون من أوقاف المسلمين — نهضة الأمة وحياتها ( حديث عن التعليم ) —

حياة الصحف بحياة الأمة — البورصة جسيم الطامعين .  
وفي السنة الثامنة :

مشروع الجامعة المصرية ومن أين جاءه الفتور — يا ولادة الأمور ( لفتة  
إلى الصناعة المصرية ) — كتاب جديد عن الشرق والشرقيين — الأهالي  
يخاطبون النواب فليخاطب النواب الحكم — الرشوة الرشوة وماذا يعمل  
المديرون — النهضة الوطنية ومسألة التعليم — نظارة المعارف العمومية —  
على باشا مبارك والتعليم بالمدارس الأميرية — المصريون والنزلاء — الشيبيتان  
المؤتلفتان ( المسلمون والأقباط ) — سياسة على باشا مبارك في التعليم — مغالطة  
سعد زغلول : بقلم فقيد الوطن على باشا مبارك — رأى على باشا مبارك في  
تعليم اللغات الأجنبية — اللغة العربية والتعليم — خمسة وعشرون عاما في  
وادي النيل ( أيهما يحي مصر وموجدتها : محمد علي الكبير أم اللورد  
كرومر ؟ ) — الجنسية المصرية — الرق في الاسلام — مسألة اليوم ( المدرسون  
الوطنيون ) — يا نظارة المعارف — حديث لناظر المعارف — القرعة ومشايخ  
الحارات — علم الاقتصاد السياسي — المحاكم القنصلية — علماءنا وعلمائنا —  
الصحف والأحزاب — أخلاق وآداب أم جرائم ( مستشفى القصر العيني ) —  
أمة عطشى فكيف لها الورود — كتاب المسيو لامبير ( في أحوال المعارف  
المصرية ) — تعليقات على كتاب الأستاذ لامبير ( أكثر من عشر مقالات ) —  
توطيد الأمن — الارساليات العلمية — تعليم البنات — تعليم المرأة — المرأة  
اليابانية — المحاضرات العلمية ونادى المدارس العليا .

\* \* \*

وإذ فرغنا كذلك من هذا الإحصاء العام فإنه يجدر بنا أن نعرض  
على القارئ، موجزا صغيرا لبعض النماذج الصحفية التي نشرتها اللواء في  
هذا المجال .



## الميراث المقدسى ( أو اللغة العربية )

( بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٠٢ )

ومما جاء فيه :

إذا نازعنا الغربيون في كل أمر من أمور الحياة جاءونا كل يوم باختراع جديد ، واكتشاف مفيد ، وقضوا علينا بسوء التدبير في سياسة الممالك ، وقصر اليد عن مطاولتهم في إعلان شأنها ، ورفع قدرها ، فلهم لا يستطيعون أبد الدهر أن يحولونا عن احترام ذلك الميراث المقدس الذى يعتبر المساس به مساسا بالشرف والعرض والناموس ، ألا وهو اللسان !  
ألا إنه هو الدرع التى تبقى بها كل خطب ، ونحفظ بها العقيدة في الفؤاد ، والدين من خطر الضياع . اللسان هو خزانة التاريخ الملى ، والشرف الأهلئ ، ومستودع أسرار حكمة المتقدمين والمتأخرين . والمطالب بمحوه وتغييره بغيره إنما يطلب قلب كيان هيئتنا الاجتماعية ، وتدمير أركان ديننا ، والاستسلام الأبدئ للغرب وسلطانة !

ومن المسائل ما يصح النظر فيه ، والمناقشة والمجادلة بشأنه ، ومنها ما يكون الأخذ والرد فيه ابتعادا عن محجة الرشد والصواب ، وتشويشا للأفكار بلا باعث ، وضياعا لنفس الوقت ، وما أحوجنا معاشر المسلمين إليه !

فن يقترح على الناطقين بالضاد هجرة اللغة العربية الفصحى ، واستعمال اللغة العامية فى الكتابة والخطاب بدلها كمن يقول لنا معاشر المسلمين :  
« اتركوا دينكم ولا تحفلوا بنبيكم » أو كمن يقول للمصريين :

« إنما مصر ليست وطننا لكم ، بل وطن للعالم أجمع » . ومثل هذا المقترح لا يصح مقابلته بغير السخرية والاستهزاء . ومن التساهل التكبير أن يناقشه الانسان فى رأيه ، ويبحث عما فيه من خطأ أو صواب . إذ كله خطأ فى خطأ ، وهذيان فى هذيان .

رى المستشرقين إذا تعلموا اللغة العربية الفصحى ، وأحاطوا بآدابها ،

ووقفوا على أسرارها يعترفون جهارا بأنها أسمى اللغات وأرقاها وأغناها وأجدرها بأن تكون آلة التمدن وواسطة الترقى بين الشعوب . فكيف لا يكون حكم أبنائها عليها ، وهم الناشئون في مهدها ، المستمدون منها كل حكمة وكل علم ؟ وكيف نقبل أو نصدق أنها عسيرة على بنها ، والغربي يتعلمها وينفع فيها ، ويقرأ العلوم القديمة والحديثة ، والآداب العربية بها ؟ إذا كنا نجد من الفائدة الاعتبار بنيات الانكليز وغيرهم من

الأوروبيين نحو المسلمين بمثل اقتراحهم هذا ، فإن الحوادث كلها تصبح بأعلى أصواتها : « حذار معاشر المسلمين حذار ، فلو استطاع الغرب لمحا دينكم وقرأتكم واللغة التي نزل بها ، أنزل آثار عظمتكم المنبهة لكم ، الموقظة لهمتكم ، الداعية لاجتماعكم واتحادكم ونهوضكم بعد طول رقادكم . ومن السذاجة أن نعجب إذا سمعنا آنا بعد أن « كاتبا » من الانكليز أو « مهندسا » منهم ينصحنا بتبديل لغتنا ، أو « مبشرا » من المبشرين يعظنا بترك ديننا ، أو رأينا « مؤدبا » يهتك الأعراض ، ويظأ التاموس بغير حياء . فاعلم الغرييون مهاجمون ونحن المدافعون . لهم أن يسعوا في قلب كل أمر ، والمساس بكل شيء مقدس ، وعلينا أن نجاهد لصيانة الدين واللغة والوطن . هذه القوى التي لا حياة لشعب بدونها ، ولا أمل في ارتقاءه بغيرها .

أمامنا شعبان هضمت حقوقهما ، وتحكم الأجنبي في بلادهما ، وتولى أمرهما غير أهلها . وهما لا يزالان متمسكين باللغة الأهلية أشد التمسك ، يفضلان كل سوء على ضياعها ، ويمدان الموت في سبيل المحافظة عليها حياة دونها كل حياة ، وهما الشعبان : البولوني ، والمملطي .

سمع العالم كله ضجة أولئك الأطفال الصغار الذين حاول الألمان محو لغتهم البولونية ، وتعريدهم على تلاوة الأناشيد الدينية باللغة الألمانية . وأعجب الغرييون والشرقيون بتلك الحماية التي أبدوها ، وذلك العزم الشديد الذي ظهروا به في سبيل حياة لغتهم ، والمحافظة على ذلك الميراث المقدس الذي



يتعزى به البولونيون كلما ذكروا ضياع بلادهم وتمزيقها ، وتحكم الروسى والألماني والنمساوى فيها . ورأى العالم كذلك نهضة الماطيين ، ونخوتهم فى رفض قبول اللغة الانكليزية ، واجتماعاتهم المتكررة ، واحتجاجاتهم المتعددة التى حملت « شميرلن » على الرضوخ لمطالبهم ، والانصياع أمام رغائبهم ، وهو هو الوزير العنيد الذى كان سبباً فى إهراق الدماء ، وجلب الخراب والشقاء على إفريقية الجنوبية ، وداعية ذلك البلاء الذى يئن منه العالمون فى سائر البلدان والأنحاء .

فدعوة الناطقين بالضاد إلى ترك لغة آبائهم وأجدادهم ، ولسان نبيهم وقرآنهم فى هذا الوقت الذى رأوا فيه دفاع الأمم حتى المقهورة منها عن لغاتها هى مسبة كبرى ، وإهانة عظيمة ، واستخفاف بدرجة عقولهم لا يجدر بهم مقابلتها بغير الاحتقار والازدراء ، حتى يعلم « ريلامور » ومن على شاكته أننا أرشد من أن نتبع رأيه ، ونفتقر بفكره ، واننا كأبناء جنسه نعرف أن لدينا « ميراثا مقدسا » الموت أحب إلينا من أن يمس بسوء أو أذى ، أو يحاول الاعتداء عليه إنسان ، ( انتهى المقال )

وللقارئ المستزيد أن يرجع كذلك إلى الخطبة القيمة التى ألقاها مصطفى كامل فى حفلة افتتاح مدرسته ، وذلك فى أول مارس سنة ١٩٠٢ ومنها قوله :

« .. فالاحتلال يريد أن يعمل بأبناء المصريين ما عمل فرعون بأبناء الامرائيليين حذراً من ظهور « موسى المجهول » . غير أن فرعون ذبحهم بسكين ماضية أسالت دماءهم فى لحظة واحدة ، والاحتلال يريد أن يبقى عليهم ليتسنى للجهل أن يفعل بهم فى سنوات مافعلته سكين فرعون فى لحظات . ونتيجة العملين إعدام . ولكن أحدهما مادى والثانى معنوى » .

\* \* \*

وكان من الأهداف الاجتماعية لجريدة اللواء دعوة المصريين الى العناية بشؤون الزراعة والصناعة والتجارة . ومن ذلك مقال نشرته اللواء بعنوان :

## نظارة زراعة مصرية

( ١٧ يونيه سنة ١٩٠٢ )

وبما جاء فيه :

لو جاء غريب هذا القطر، واستطلع أحواله العامة لأرى فيه كثيراً من الغرائب، ولكان أغربها لديه أن يعلم بوجود وزارة « للحرية والبحرية » بعد أن باد الاسطول قديماً، وأصبح الجيش لهذه الأيام في حكم الملغى، ثم لا يرى أثراً لديوان زراعة يرجع إليه في أمر من الأمور المتعلقة بأعظم مورد للرزق في هذه البلاد.

ولقد طالما سألت الجرائد على اختلاف نزعاتها وصبغاتها إنشاء ذلك الديوان، فلم تجبها الحكومة إلى دعوتها، وكانت تعتذر عن هذا التقصير بعذرين يكفى ذكرهما للدلالة على التمثل فيهما : فأما الأول فهو أن الحكومة لا تستطيع أن تتولى كل شيء في البلاد، وإلا لم يبق عمل للأهلين سوى أن يحجى لهم ويأكلوا منبسطين على وساد الراحة، وهو نقيض ما يحتاج إليه الأمم ولا سيما الناشئة - من الجد والاستنباط والانتكال على نفسها في شؤونها المعاشية.

وأما الثانى فهو أنه لا يتسنى للحكومة إيجاد مال تنشىء به نظارة جديدة، لما هو معلوم من كثرة ما تقتضيه من النفقات، وأن الذى يبذل سنوياً في سبيل الري والصرف، وفي سبيل مدرسة الزراعة وجمعيتها وتجارتها مغن عن المزيد. ( الى آخر المقال ).

\* \* \*

ثم طفت اللواء | تفند هذين الرأيين لتقنع الحكومة بوجوب النظر في إنشاء هذه النظارة. ولا ترى حاجة الى المضى في هذا الموضوع من موضوعات الاصلاح. بل ترى الانتقال منه إلى موضوع آخر شغل الرأي العام وعנית به اللواء عناية تامة، وهو موضوع ( الحج ) : وقد كتبت فيه اللواء مقالات عدة، يحار الباحث حين يختار واحدة بعينها. منها واحدة بعنوان :



## الحج وسكوت الأمم

( ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٢ )

ومما جاء فيه :

لما اشتعلت نيران الفتنة العراقية، وعمت أنحاء الأرض أخبارها، واهتمت الدول بالأمر قام « غمبتا » خطيب فرنسا الكبير، ورجل سياستها يومئذ وقال في مجلس النواب الفرنسي بأعلى صوته : « إنكم بسياستكم الخرقاء ستوقعون مصر في قبضة انكلترا . وإن هذه الدولة اعتادت في سياستها أن تختبر الأمم التي ترغب في السيادة عليها ، والكلمة النافذة فيها . فإن وجدت ذات رأى قوى ، وإرادة ثابتة منحتها الحقوق العامة ، وسهلت لها السبل للترقى ، وأحسنّت إليها ليدوم حكمها عليها ، ولا تقوم الثورات في وجهها . وإن رأت فيها خمولا واستسلاما عاملتها بيد من حديد ، وأذلتها وجرت على أهوائها كما تشاء . وعندى أنها ستبلغ في مصر غايتها من سياسة العنف والقوة ، لأن أمتها مستسلمة . ولو أن ظاهر الحوادث العراقية يحاول الادلال على غير ذلك »

وهذه السياسة التي قال عنها غمبتا جرت وتجرى عليها انكلترا من أيام استقلال الولايات المتحدة إلى اليوم ، لأنها تعلمت من حوادث ذلك الاستقلال درساً مفيداً ، وأدركت أن مقاومة الأمم الحية الراغبة في الرقي وخيمة العاقبة في كل حال . فنحت كندا وأستراليا غاية الحقوق الأهلية، وترك أهاليها يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وبلغ من استقلالهم الداخلي في أمورهم أنهم يقررون الرسوم على البضائع الانكليزية أسوة بالدول الأجنبية . ولا نزاع في أن مصير العناصر المختلفة بجنوب أفريقية هو الاتحاد تحت الراية البريطانية ، والتمتع بالاستقلال الداخلي ، لما هو مشهور عن هذه

العناصر من الشجاعة والاقدام ، والمطالبة بالحق ، وعدم الرضوخ للضم والهوان .

وقد اختبرت انكلترا الأمة المصرية في عواطفها الوطنية ، فدمرت ماشاءت ، وغيرت ، وبدلت . واستخدمت جيشها وأبطال رجالها في تأسيس المستعمرة البريطانية في السودان . فماذا وجدت ؟ وجدت وزراء يوافقون ويهتئون ، وأمة تنظر إلى وزرائها قائلة : « ماذا عملتم وماذا تعملون ؟ » وهام الآن يصوبون السهام إلى فؤاد الأمة ، ويحاربونها في عقيدتها ، ويصادرونها في دينها ، فماذا قالت ؟ ومتى تقول ؟ أخذت الأمة تتساءل عن مصدر هذا البلاء ، وأصل ذلك الشقاء وتنادى : ألا من مدافع عن الدين ! ألا من مرشد لليقين ! وما أدركت أنها هي التي يجب عليها أن تدافع وترشد ونحتج وتقاوم وتطالب بالحق الصراح !

يقول الانكليز في نواديهم ومجامعهم إن الوزراء المسلمين هم أول الموافقين على « ضريبة الحج » وأن الأمة بسكوتهما أعلنت موافقتها ، وأن أصحاب الصحف ورجال مجلس الشورى لا يمثلون إلا أنفسهم الخ وهم لا يلامون في هذا القول . لأنهم إنما يختبرون الأمة . فإن وجدوها ذات شعور حتى رضخوا لارادتها ، وامتنلوا لرغبتها . وإن رأوا منها استنامة تحكموا فيها ونفذوا رغائبهم . فإذا تنتظر الأمة ؟ هل تؤمل قيام وزرائها المسلمين بالدفاع عن حقوقها ومطالبها ، وهم الذين أبدوا كل مطلب للاحتلال ، وتربعوا في المناصب ليكونوا كذلك ؟

هل نسي المصريون أن بلادهم هي طريق الحرمين ، وأقرب ممالك الاسلام للحجاز ، وأنهم أبناء أولئك الكرام الذين مهدوا طريق الحج ، وفتحوه تحت لواء « محمد على » بعد أن لبث مقفلا ثمانية أعوام ؟ هل جهلوا أن أبعد الشعوب الاسلامية عن الحجاز أصبح الآن أسعد منهم حظا ، وأقرب منهم إلى الحج سبيلا ؟ كيف لا تنمطر على دوائر الحكومة



الاحتجاجات، والاعتراضات، والرسائل من كل جانب، وقد رأى المصريون عن بكرة أبيهم أن الانكليز رجعوا إلى الوراء، في مسألة المحاكم الشرعية، وعدلوا عن مسعاهم أمام هياج الأمة والمحاحا في احترام رغائبها؟ ماذا يخشى الناس والحكومة تدعى أنها دستورية، والانكليز يقولون باحترام الرأي العام والجمهور؟

أين أولئك العلماء، الأعلام، والحكام، والفلاسفة الذين إذا قرأوا كلمة ضد الدين، أو سمعوا صوت طاعن عليه جردوا الأفلام لرفع راية الاسلام؟ أين هم ليؤدوا اليوم عملا أجلا وأعظم وأنفع وأسد؟ أين هم ليكونوا زعماء الأمة في مطالبتها، ومرشديها إلى إبطال «ضريبة الحج» بقوة الاعتراض، ومناقشة الحكومة الحساب؟ أين هم ليقولوا للانكليز على رؤوس الأشهاد إن بلاداً تركت فيها الحرية التامة للمبشرين من القسس والرهبان لا يقضى فيها على حرية المسلمين في السفر إلى وطن نبينهم الكريم؟

أين هم وقد منع الحج فعلاً وإن لم يمنع قولاً. أين هم ليدفعوا هذه النازلة، وهم الذين يطالبون الصغير والكبير باحترامهم وإجلالهم، وهم العالمون أن الاحترام والاجلال لم يخلقاً إلا لرجال الأعمال وصفوة الرجال؟ أين هم ليعلموا هذه الأمة أنها لا تموت إلا بسكوتها واستسلامها، ولا تحيا إلا بالعمل والجهاد في مصلحة الدين والبلاد، لتسلك أحب السبيلين إليها، فتريح العالم من وجودها، أو تعيش مرفوعة الشأن والذكر بين الناس.

\* \* \*

ثم في الفتنة التي حدثت بين عنصرى الأمة المصرية، وأفضت إلى إثارة القبط في مصر بوظائف السكة الحديدية، نشرت اللواء مقالات شتى؛ منها على سبيل المثال مقال بعنوان:

## المسلمون والأقباط

( كلمة يحبون سماعها )

( بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٠٣ )

ومما جاء فيه :

تحاشينا في كل ما كتبناه عن موضوع اختلال السكة الحديدية ،  
وهي المصلحة التي ساد فيها الغرض والمحابة بقدر ازدياد عدد الأقباط أن  
نقول شيئاً عن الفرق الذاتي بين القبطي والمسلم . لأننا لا نريد أن نرحزح  
الأول عن وظيفته ، ونحل الثاني محله بلا سبب ، بل نريد أن الذين يتقدمون  
من الفريقين لتبيل بعض الوظائف يكونون متساوين في الرضى والقبول ،  
متى تساوت معارفهم ، بغير تعصب لواحد دون واحد ، ولا تميز زيد على  
عمرو ، فيما عدا المعلومات التي تحتاجها الوظيفة المرغوب التعيين فيها .  
ولكن يظهر أن مناظرنا غير مبالين إلى الجهر بهذا المبدأ الحق ،  
ويحبون أن يسمعوا كلمة كنا نتمنى عدم قولها ، ولكن ما كل ما يتمنى  
المرء يدركه . ونحن لا يضرنا أن نجيبهم إلى سؤالهم المتكرر ، ونقول كلمة  
كجملته معترضة في الموضوع . أى أننا نقولها مع الاستمرار في نشر فضايح  
السكة الحديدية .

وهذه الكلمة هي : أ يكون المسلم أقل ذكاء من القبطي ، وأدنى مقدرة  
على تأدية الأعمال ؟ أم يفوقه ؟ أم كلاهما متساويان ؟ وهل المتعلمون من المسلمين  
أقل من أمثالهم الأقباط حتى نشأ عن ذلك كثرة عدد المستخدمين من  
الأخيرين في مثل مصلحة السكة الحديدية ؟

هذه هي الكلمة التي لم نرد التصريح بها زمننا . ولكن الذين يعملون على  
الخط من كرامة المسلم ، ورميه بقلّة التبوغ ، هم العلة في تصريحنا بها اليوم ، ليعلموا  
أنهم إذا استمروا على مهارتهم كان نصيبهم الفشل في هذه النقطة كفشهم  
في النقطة الأخرى ( الى آخر ما قال )



كان المقال السابق لسكاتب غير مصطفى كامل ثم لم يكتف صاحب اللواء بالمقالات التي كتبها المحررون في جريدته على كثرتها وغزارة مادتها حتى كتب بنفسه مقالا عنوانه :

بالمقنا كنا منصفين

( بتاريخ ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣ )

ومما جاء فيه :

لو كان يعلم ذلك الذي أفتى السلطان سليم بما سينال قومه ، وأمتة ودولته من جراء فتواه بعدم توحيد الدين في المملكة العثمانية لكان فضل أكبر بلايا الحياة على النطق بتلك الفتوى التي أوقعت الاسلام في مهواة الخطر العظيم ، والشر الجسيم . فان المتأمل في تاريخ الدولة يجدها لاقت بسبب تركها الحرية الدينية والسياسية للشعوب المسيحية التي وقعت تحت حكمها الشدائد والأهوال ، وأضاعت ثمرات فتوحاتها الباعرة ، وانتصاراتها العديدة بتمسكها بالتسامح والاعتدال .

وقد شعر الأتراك وكافة المسلمين بنتائج تلك السياسة التي مهما أعجب بها مؤرخ عادل ومحِب الحرية فلا ينكر أحد ضررها على المملكة ، ومخالفتها لمبادئ الاستعمار . ومن يقارن بينها وبين خطة العرب في البلاد التي فتحوها يجد خطأ العثمانيين السالفين كبيراً . لأن العرب غرسوا لغتهم ودينهم في كل بلد دخلوه بمهارة مدهشة ، ولسان حالهم يقول « حسبنا هذا الفتح الخالد الذي يستوى معه دوام ملكنا وزواله ! » ووضعوا بهذه الوسيلة أمتين أساس لقيام حكومات إسلامية أخرى بعد حكومتهم .

نقرأ كل يوم في صحف الغرب أن الحكومة الفرنسية تزداد شدة في اضطهاد الجمعيات الدينية ، رغبة منها في توحيد التربية الأهلية ، وتوجيه أُميال الناشئة إلى غرض واحد ، وتقوية العقيدة الوطنية في حاضر الأمة

ومستقبلها . فإذا يقول السادة المتمدنون إذا نهضت الدولة العلية غداً بمثل هذا المطلب ، وأصدرت أمرها بإبطال المدارس الأجنبية في بلادها ، وإرغام أبناء كافة الأجناس على الدخول في مدارسها ، وتلقى العلوم والآداب على أسانذتها ؟ هل ترضى الدول المتمدنة بهذا العمل الذى هو حق طبيعى للدولة العلية ؟

لا ريب ولا نزاع فى أنها ترفضه جمعا ، وتقيم الأرض وتقدمها منعاً لوقوعه ، ومقاومة فى سبيل تنفيذه .

وهل يدري المسلمون مهمة تلك المدارس المسيحية المنتشرة فى أنحاء المملكة العثمانية ؟ إنها كلها ترمى إلى بذر بذور عداوة الترك والاسلام فى قلوب الأطفال ، حتى إذا صاروا رجالا كانوا الأعدائنا . وبهذه المدارس — لا بغيرها — ثارت اليونان والصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الأسود . وبها ثار الأرمن ، ويشور المقدونيون فى هذه الأيام . وما على الجاهل بهذه الحقيقة إلا أن يقرأ ما نشرته جريدة « الفيجارو » فى الأسبوع الماضى نقلا عن مؤلف انكليزى تحت عنوان « أمريكا فى الاستانة » حيث أبانت أن كلية « روبرتس » التى يراها كل من قطع البوسفور شاهقة البناء فوق « روملى حصار » هى التى أعدت لبلغاريا كبار ثوارها ، وهى التى ربت أبناءها على كراهة المسلمين ، وعرفتهم أساليب الخروج عليهم . وأفهمتهم حقوق الصليب وواجباته ضد الهلال ! وبديهي أنه إذا كانت أمريكا — وهى أبعد الدول عنا — تعمل هذا ضدنا ، فإن غيرها يقوم بأضعاف أضعاف ذلك .

وغنى عن البيان أن الدولة لا تستطيع فى مركزها الحالى ، وتألب الدول المسيحية عليها أن تقفل المدارس الأجنبية الموزعة فى بلادها . ولكنها تستطيع أن تنافسها فى استمالة الناشئين المسيحيين الى مدارسها ، حتى تربهم تربية عثمانية صحيحة ، وتبث لفتها واخلقها وأميلها بينهم على قدر الامكان .



إذ كيف يقبل أن جانباً عظيماً من رعاياها لا يتكلمون لغتها — كما هو الواقع في مقدونيا — على حين أن الصرب والبلغار ورومانيا تعد ميزانيات مخصوصة لنشر لغاتها، وتأبيدها في الولايات المقدونية . وبذلك التساهل الكبير الذي اتبعته الدولة، وظنها الخير والاعتراف بالجميل للمسيحيين صار فريق منهم أمة في الأمة، وجسماً غريباً في الدولة . ولا سبيل لمقاومة الأميال الشريرة، والنوايا العدوانية إلا بالترية التي تؤدي حتماً إلى اندماج العناصر، وتحويل أُميائها . والوسائل لأدراك ذلك عديدة . وإنه من العار الكبير علينا أن نرى الأجانب ينفقون القناطير المقنطرة من الذهب لسلبنا رعايانا وبلادنا، ونبتقى لاهين عن مداواة هذا الداء، ومقاومة ذلك التيار الخفيف — تيار الزوال والفتاء !

وكما أن استمالة العثمانيين المسيحيين، وتربيتهم تربية عثمانية أمر واجب، فإن للخلافة وظيفة سامية إذا قصرت فيها قطعت أوصال الاسلام وبددت قواه الباقية، وهي جمع كلمة المسلمين . ولا يكون ذلك إلا بجعل اللغة العربية في مدارس الدولة ذات الشأن الأول، أسوة باللغة التركية نفسها، وبارسال الوفود من المتعلمين إلى البلاد العربية لتقوى ملكة اللغة عندهم، كما تفعل كافة الدول الأوروبية، حتى لا يرى المسلم نفسه في دار الخلافة غريباً من أى وجه كان، ويندفع تيار الحركة الفكرية، والنهضة الاسلامية التي صمت روحها بلاد المسلمين بقوة وافية، وبأس شديد .

وكم من مرة شعرنا بخجل شديد عندما رأينا أنفسنا مضطرين لمخاطبة إخواننا الأتراك بلغة أجنبية . فخليق بهم أن يتعلموا العربية قراءة وكتابة وتكلاماً، لأنهم رأس الاسلام، وقادته، وحماة، ولأن الجزء الأكبر من المملكة عربي، والعربية لغة الدين المبين .

وليس في تعلم العربية وحده سر الوصول إلى الاتحاد الاسلامي المرغوب، وتقوية الخلافة وإعلاء شأنها به . ولكن بلوغ هذه الغاية السامية يطلب

أيضا تلقين الناشئين حقائق التاريخ، وإيقافهم على ماضيهم الفخيم، وأعمال آباءهم الغزاة الفاتحين، وإيضاح قيمة ذلك الميراث الفريد الذي آل إليهم ميراث كله شرف فاخر، ومجد باهر، وعز يأخذ بالأبصار عظمة وجلالا. وجهاد مستمر متواصل في سبيل الاسلام، وإرشادهم إلى حالة البلاد الاسلامية، وأسباب تحكم الأوروبيين فيها، حتى يدركوا بهذه الدروس علل الانحطاط، ويبصروا سبل التقدم والارتقاء، ويحافظوا بما آتاهم الله من عقول رشيدة، وملكات مختلفة على الدولة وأملاكها الباقية، ويكونوا «متعصبين» في أرقى معاني التعصب، ويقولوا غير خائفين لومة لائم:

نعم نحن متعصبون للوطن والدين. نعم نحن متعصبون للحياة العالية والشرف الرفيع. نعم نحن متعصبون ضد كل عدو للدولة والملة. نعم نحن متعصبون ضد كل دخيل بيننا أو خارج عنا. ونعم التعصب تعصب المتبصرين المخلصين في خدمة الأوطان.

بهذا- لا بسواه -تبلغ الدولة غايتها، وتحارب أعداءها بالسلاح الذي حاربوها به السنين والأجيال، وتحقق رغائب المسلمين في الحال والاستقبال. ولعمري إن الساعة الحاضرة في تاريخ الاسلام، ودولة آل عثمان لساعة إنذار وإخطار. والأمل وطيد في أن القائمين بأمور الدولة يسمعون صوت الزمان والمكان، ويمدون للمستقبل ما أهمله السالفون للحال، ويدركون أن مسألة التربية وتأثيرها على حياة الأمم هي أهم المسائل التي يجب عليهم النظر فيها، وأنه إذا كانت فرنسا وإنكلترا اهتمتا بها مرة، يتحتم عليهم الاهتمام بها ألف مرة، لكي نبرأ من ذلك الداء العضال، ونحيا بيننا عصر الآمال والأعمال!

\* \* \*

أما القضايا الفردية كقضية المنشاوي باشا وغيرها من القضايا التي أشرنا إليها فكانت توحى كذلك إلى صاحب الدوا، بشتى الأفكار التي سجلها في صحيفته، ومن ذلك مقالة له استعرض فيها بعض أعمال الاحتلال، وبعد فراق، من ذلك عرض لقضية المنشاوي. والمقالة بعنوان:



## أفكرسى الامنزل

( بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٣ )

ومما جاء فيها :

لو كانت الدول التى تهم تركيا بالتقصير فى إصلاح أحوال مقدونيا ، وهى لم تقم بأمر التنظيمات الجديدة إلا من بضعة أشهر قضت معظم أيامها فى مقاومة الثوار ، وحفظ الأمن والأرواح تنظر إلى مصر وأحوالها وارتيك أمورها ، لأعلنت افلاس الاحتلال والمحتلين ، ونادت على رؤوس الأشهاد ، بأن قد مضى على هؤلاء المسيطرين واحد وعشرون عاما ، وهم أصحاب الكلمة النافذة فى طول البلاد وعرضها ، والقول المسموع ، والأمر الذى لا يرد ، فأين نحن اليوم ؟ وإلى أى درجة وصلنا فى سلم الارتقاء ؟

نحن اليوم نرى المحتلين يتساءلون عن القوانين والنظامات التى تلائم البلاد وأهلها ، كأنهم يؤسسون لها حكومة جديدة ، ويهدمون ما بنوه بالأمس ، ويرفعون ما وضعوه قبلا ، ويثبتون بهذا الاضطراب الغريب عجزهم عن معرفة مصالح القطر الحقيقية ، أو تعمدهم تأييد القوضى ، ونشر أعلامها على هذه الديار الأسيفة .

أنظر إلى المعارف وهى التى تعد مستقبل الوطن وتربى ، زهرة شببته ما أكبر تعاستها ، وما أكثر المضحكات المبكيات فى أمورها ! وهل بعد انحلال مدارسها العالية ، واختلال طرق سيرها يؤمل المصريون منها خيرا لهم ولأعقابهم من بعدهم ؟

وماذا يجد الانسان فى الادارة والقضاء ، وهما ركنا العدالة والأمن العام ؟ يجد سقا عضالا ، وداء عيا . يجد التنازع شديدا ، والخطر كبيرا ، وأساءة هذا الشعب جاهلين بالعله . وهل يجرد الجاهل بالداء بالنافع من الدولة ؟ يرى الباحث فى تاريخ الاحتلال أن عميده انتصر للنيابة على الادارة

حيناً من الدهر طويلاً ، ثم مال للبوليس والادارة بكل قواه ، حتى خيف على القضاء ، وحقوق الناس من الضياع . ولم يلبث أن أخذ بناصر النائب العمومي ، وجعله مشرفاً حتى على المستشار القضائي . وها هو اليوم يضرب النيابة ورئيسها بتلك اليد التي طالما أيدتها وأيدته الضربة القاضية . ولا لوم على أحد إذا عبر المحتلين بأنهم أجهل أهل الأرض بأخلاق المصريين ، ومعرفة النافع لهم من القوانين والنظمات ، لأنهم أنفسهم لا ينكرون ارتباكهم في هذه الأيام ، وحيرتهم الشديدة في الوقوف على الرأي المفيد ، والفكر السديد . ولا يخطئ المنصف إذا وجد الشبه عظيمًا بين البورصة ، وإدارة الحكومة المصرية . فإن نفوذ كبار الموظفين الانكسار يعلو ويهبط بسرعة مذهشة ، وفي أزمان متقاربة . فقد كان المستر « كوريت » أقوى عمال الاحتلال كلمة ، وأرفعهم شأنًا ، وأوسعهم سلطة ، وأكبرهم نفوذًا . فأصبح اليوم آخر من يسمع له رأى . ويقول مستشار الداخلية القول فيرجعه إلى الورا ، ويشكو إختلال الأمن ، فتلقى المسئولية على النيابة ورئيسها . وها هو يسمع ويفظر ، ويعارض ، ولكن الزمن عنيد عبوس ، لا يرد له أيام سيطرته وبطشه إلا بعد حين . ولا نقول باستحالة رجوعهما ، لأن إدارة حكومتنا أشبه بالبورصة من جميع الوجوه .

وقد كان المحتلون يصفقون طرباً أيام قضية المنشاوى باشا ، ويقولون : لقد أدخلنا في مصر المدنية العالیه ، وأيدنا أركان المساواة بين أهلها ، فصار القوى الغني الشديد البطش يساق إلى السجون ، إذا إعتدى على الفقير الضعيف العديم النصير . ونسمعهم اليوم يأسفون على تهوّرهم في هذه القضية ، وتحريضهم الأشقياء ، والمفسدين على التوسع في الأذى ، والاضرار ، وعدم المبالاة . وعندى أن هذه الأدوار المختلفة ، والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى . فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحجر مادة إلا بمشيئته ، ولا يززع نظام



بغير أمره ، ولا تملو كلمة على كلمته . وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد — سواء كان مصرياً أو أجنبياً — يضر بالبلاد كثيراً ، وبجر عليها الوبال . فالجلس النيابي هو الأساس الوحيد للنظامات السليمة . ولا سلامة لبناء الحكومة بغير ذلك الأساس ( الى آخر ما قل ) .



وكما كان على اللواء أن يرد على رجال الاحتلال في شتى التهم التي يكيلونها ضد الاسلام ، وكما كان على اللواء أن تدفع الأباطيل التي كان هؤلاء يرمون بها القضية الوطنية ، والكرامة المصرية في أكثر الأحيان ، فكذلك كان على اللواء أن يرد على الكذب الذي اشتملت عليه تقارير اللورد كرومر ، والدعاوى العريضة التي ادعاها في ميدان الإصلاح . فكثيراً ما ملأ اللورد أشداق هذه الإصلاحات ، وكثيراً ما زعم للعالم المتمدن أنه أحيا مصر من الموت . ولكن الوطنيين في مصر كانوا يتعقبون هذه الدعاوى والمراعم بالمنافشة تارة ، والتكذيب أخرى . وكان الأدب المصري — كالصحافة المصرية — لا يدع فرصة تمر دون أن يرد على مثل هذه المراعم . وهذا هو شاعرنا الاجتماعي الكبير حافظ إبراهيم ينكر على اللورد كرومر كل شيء ، حتى امتنانه على مصر بإصلاحاته التي أدخلها على الرى الذي أخصب الأرض ، فيقول :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت	حواشيه حتى بات ظالماً منظماً
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى	وأن أصبح المصري حراً منماً
أعد عهد اسماعيل جلدأً وسخرة	فأرى رأيت المن أنكى وآلماً
عملتم على عز الجهاد وذلنا	فأغليتمو طينا وأرخصتمو دماً
إذا أخصبت أرض وأقفر أهلها	فلا أطلعت نباتاً ولا جادها السما

أجل — لقد اخصبت أرض مصر بفضل هذا الري، ولكن أهلها مفتقرون من العلم والثقافة، مفتقرون إلى عز الحرية والاستقلال. وهيات لمثل اللورد كرومر وأشياعه أن يأذنوا لمصرى بأن يأخذ نصيبه من هذا الخصب المعنوى!

أما صاحب اللواء فكان يصنع صنيع صاحب المؤيد دائماً، فلا يكاد اللورد كرومر ينتهى من نشر تقرير من تقاريره التى يكتبها عن مصر فى كل عام، حتى يتصدى له من ساعته، ويكتب رده على التقرير فى صحيفته. ولكنه لا يصطنع فيه الهدوء الذى اصطنعه السيد على يوسف فى مؤيده، وإنما يجرى مصطفى كامل فى هذا وفى غيره على سجيته، فيخرج الرد صورة من حمسه وشجاعته وصراحته. ومن الردود التى كتبها مصطفى كامل — ولعله أدناها إلى القصد والاعتدال — رد كتبه بعنوان :

### صنائع المصنوع

( بتاريخ ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٣ )

ومما جاء فيه :

إهتم جناب اللورد كرومر فى تقريره بذكر الرشوة، ووصفها فى السنين السابقة لعهد الاحتلال، وقارن بين الماضى والحال مقارنة معجب بعمله، ساخر من سياسة المتقدمين. فقال أنصار الاحتلال ما أجل هذا البيان، وتنبه المصريون إلى النظر فى طريقة انتقاء الموظفين، وترقيتهم فى العهد الحاضر...

وإنه لا يدهشنا أن يكون جناب اللورد ممن تشمئز نفوسهم من ذكر الرشوة، ويرونها آفة الآفات، ويميلون بكل جوارحهم لمحو وجودها وآثارها. لأن كل رجل يعرف للشرف معنى ينفر منها. ولكن النظام الذى سار



عليه الاحتلال في تفضيل موظف على آخر ليس أشرف من الرشوة التي كانت سائدة من نحو ثلاثين ماما، ولا أفيد لمصالح البلاد.

لأنه إذا كان من السهل تشويه الماضي، واتهام كافة رجاله بالفساد واختلال الأخلاق والمبادئ، مع أنه لا يزال بين ظهرانيها شيوخ هم التاريخ الحى، تلك أحوالهم وسيرهم على الفضيلة الراسخة في نفوسهم، والاستقامة التي اتخذوها رائداً لهم طول حياتهم في خدمة هذا الوطن العزيز، فإن من أسهل الأمور وأيسرها أن نذكر جناب اللورد — إن كان ناسيا — أو نظهر له — إن كان غير عالم — عيوب النظام الذي وضعه المحتلون، وقضوا له به على المبادئ الحرة، والأخلاق العالية، والنفوس الكريمة شر قضاء. إذ لمن كانت رعاية الاحتلال وعنايته وحمايته؟

كانت لكل منافق أو خائن لبلاده. كانت لكل دساس مفسد حرم لذة العلم والكفاءة، فلم ير للترقى سلماً سوى المناداة بفائدة الاحتلال. كانت لكل مدمن على شرب الخمر، محالف للفساد والسلوك المشين. كانت لهؤلاء جميعاً. ولا عبرة بغيرهم من الفضلاء الذين تعب الاحتلال في تحويلهم. ولسنا فيما تقدم مبالغين.

هذه أقاليم القطر لا يزال يتردد فيها صدى تلك الليالي التي كان يحببها بعض المديرين إكراماً للمفتشين الانكليز، ويقول لسان حالها « إلى مثل هذا انتهى فساد الأخلاق والتهتك والفجور! » فهل قتل الفضيلة على هذه الصورة أقل خطراً على الأمة من الرشوة؟ وهل المدير الذي يرتبط برئيسه الانكليزي بمثل هذه الصلة لا يقدم على كل مفسدة، ويستعمل الحرام، ويبذر بذور الدناءة والانحطاط بين الأهالي والموظفين؟ وهل غاب عن جناب اللورد أن كثيرين من هذا « الطراز الاحتلالي » فازوا بأسمى الوظائف، ونالوا منهي الإكرام؟ وأن بين المديرين الحاليين من كوفي، وسلنت إليه أزمة إقليم لأنه كان جاسوساً على رئيسه؟ وبماذا يسمى جناب اللورد الخطة التي جرى عليها الاحتلال مع

الوزراء المصريين؟ إن الناس جميعاً يعلمون أن الوزير هو الرئيس الأعلى لوزارةه، المسؤول عن كل صغيرة وكبيرة فيها، المراقب لجميع أعمالها وعماها، المطالب أمام الملك والشعب باصلاح المحتل، وتقويم المعوج وإظهار محاسن سياسته. فما شأن الوزير المصري الآن؟ هل هو ذلك العامل ذو النفوذ العظيم والمسئولية الكبرى؟ كلا. إنما له من الوزارة إسمها، ومن الرئاسة « قاعها ». ولمستشاره أو لوكيله الانكليزى كل السلطة والعمل. فلائى عمل يدفع له مرتب فى آخر الشهر؟ وبأى حق يؤخذ من مال الأمة أجر لعامل لا يؤدى وظيفته الحقيقية؟ أليس هو مأجوراً على أن لا يعمل؟؟ أو ليس هذا النظام أضر على كل أمة من داء الرشوة ؟

إننا لا نشك ولا نرتاب لحظة واحدة فى أن جناب اللورد أعدى أعداء الرشوة والفساد . ولكن الأيغال الشخصية شئ، والسياسة شئ، آخر. فكما أن جنابه يضطر فى أغلب الظروف - إن لم يكن فيها كلها - أن يعلن كراهته للوطنيين الأحرار، مع احترامه لهم أمام ضميره، وإعجابه بهم فى سره وبين خاصته فإن السياسة قضت على المحتلين أن يعتمدوا فى تنفيذ مآربهم على المسالمين والمستسلمين والخائنين والمنافقين وفالقدى الشعور والاحساس . ولولا مقتضيات هذه السياسة ومطالبها لما كان صنائع الاحتلال من نرى، ولما عادى المحتلون كل مصرى حر الضمير غيور على بلاده، ولما اتبعوا فى تثقيف الناشئة هذه الخطة المعلومة التى لا تربى وطنية ولا إقداما .

إنما تعرف أخلاق الرجال، ويظهر شرف نفوسهم بمقدار حبهم لوطنهم وإخلاصهم فى خدمته . فلو أراد جناب اللورد أن تكون الحكومة مؤلفة من رجال نزيهين أمناء أكفاء لوجب عليه أن يختبر شعورهم قبل كل شئ . لأن الوطنية حليفة الفضائل، ومحال أن تقوى على هذا التحالف مصلحة، أو يضعفه غرض من الأغراض.



نعم — إنه لا يروق للمحتلين أن يكون كبراء الحكومة ، وقادة أزمته  
مباينين للجلاء والاستقلال ، مبغضين للاحتلال والمحتلين . ولكن أمثال  
هؤلاء هم الرجال الذين ترقى البلاد بهم ، وتسمو على غيرها بهمهم ، ويحول  
منها كل داء عضال بفضل عزمهم وإخلاصهم . ومحال أن يزول على أيدي  
غيرهم الفساد والاحتلال ، ويتم شيء من الإصلاح المرغوب ! ( إلى آخر ما قال )  
ثم من هذا القبيل ما نشرته اللواء أيضاً بعنوان :

### واضعو القانون في مصر

( بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣ )

لم تذكر الصحف في عصر من العصور ، ولا في مملكة من الممالك كلمة  
« الدستور » كما ذكرها المحتلون وأنصارهم في مصر في هذا الزمان . فلا  
يجرى أمر مخالف لسياستهم ، أو مناف للقانون بعيد عن مطالبهم إلا  
وتسممهم ينادون : « إن هذا الأمر لا يصح وقوعه في بلاد يسود فيها  
الدستور ، وتحقق أعلامه فوق الرأس »

وقد قضينا السنين الطوال نبحث عن ذلك الدستور لنراه ، ونبتهج  
بحكمه وسلطانه ، ونقدم إليه الاعظام المفروض على محبي الحرية لحاميتها . ولبتنا  
الأعوام تترقب ظهور أعلامه وراياته لنقول مع القائلين إن مصر بلاد  
الحرية والمساواة والاخاء ، فأضعننا الوقت سدى ، وذهب انتظارنا على غير  
جدوى . إذ قامت الدلائل والبراهين مثبتة نفور الدستور من مصر ،  
ومخالفة نظاماتها وصورة الحكم فيها لمبادئه السامية وقواعده المتينة .

وآخر هذه الدلائل ما شاع وذاع في أنحاء القطر من أن أربعة من  
المحتلين يعقدون الاجتماعات العدة تحت مباشره عميد الاحتلال لقلب  
النظامات القضائية التي مضى عليها واحد وعشرون عاما .

ومن هم واضعو القانون؟ هم المستر مكاريث مستشار الحقانية . وغاية ما يعلمه المصريون عنه أنه شاب ترفع عن مخالطة أهل البلاد، وتعالى على كبرائها الأنجاد، واكتفى بعلمه ومنصبه . ولعله لا يدري من أخلاقنا إلا ما قرأه في كتب سياح الانكليز . والمستر متشل مستشار الداخلية الذي لا تكفي معرفته بالقوانين العسكرية لأن يكون شارعا ، ولا علمه باللغة العربية ليكون خبيراً بحاجات البلاد . وها هو يلقي المسؤولية في اختلال الأمن على القضاء ، قائلاً إن القضاة يبطئون في الأحكام ، ويرثون الكثيرين من المجرمين الطعام . والمستر كوربيت النائب العمومي الذي شب معلماً للانكليزية ، وألمه الاحتلال التشريع ، فصار بفضل قاضيا ، ثم نائبا عموميا عن أمير البلاد ، بعد أن أسند هذا المنصب بالتعاقب لفاضلين من صفوة المصريين بلغت النيابة في أيامها غاية الكمال ، ثم صارت في زمنه مثالا للاعتلال والاختلال . والمستر برويت الذي بلغ علمه بأخلاق البلاد وأحوال أهلها أنه قال للجنة مجلس الشورى عندما عارضته في باب الفسق ومخالفة أحكامه لأخلاق المصريين وشريعتهم « إن مصر ليست بلداً شرقية بل يجب أن تعتبرها غربية ! »

هؤلاء هم واضعو القانون في مصر ، أى النوابون عن هيئة نيابية تمثل الأمة ، ويتكون أعضاؤها من نخبة من الأهالي العارفين بحاجات الأمة ومطالبها ، والأدوية النافعة لأدائها .

هؤلاء هم واضعو الدستور الموهوم الذي تقوم عليه العدالة والحرية في البلاد المتمدنة . فما أعجب حال مصر في عهد الاحتلال ! ( الى آخر هذه المقالة التي انتهت بقوله ) : —

فما أكبرها فرية على الحقيقة والدستور ؟ وما أصدق القائلين من بني مصر ومنصفيا إن المستبدين السابقين كانوا يستبدون باسم الاستبداد ، وإن مستبدى الاحتلال يستبدون باسم الحرية ، وعلى وجوههم براقع نسجتها المدنية الكاذبة التي ضاع بسببها هذا الوطن الأسيف .



## الفصل التاسع

### اسلوب مصطفى كامل

كنا في تلك الفترة من حياة مصر ، وهي الفترة التي سمينها (عهد الاحتلال) أمام ثلاثة من أشهر الكتّاب ؛ وهم : ابراهيم المويلحي ، وعلي يوسف ، ومصطفى كامل .

أما أولهم فهو أديب هذه الحلبة ؛ رزقه الله موهبة الأدب ، فأصبح لا يصدر إلا عن هذه الموهبة في كل ما كتبه في جريدته مصباح الشرق . ومن ثم جاء أسلوبه رفيعا ؛ يرضى أذواق الخاصة من الأدباء ، وعشاق الترسل ، ويروّعهم بما فيه من فن وزخرف ، ويعيد إلى أذهانهم ذكرى النثر العربي في أزهى عصوره ، وأحفلها بالمظهر الخارجي للعبارة . ومن أجل ذلك أيضاً جاءت صحافة هذا الرجل أدبياً في أكثرها . ومنذ أخرج للناس جريدة ( مصباح الشرق ) وهم مفتونون بأسلوبها ، معجبون ببعض الوسائل الأدبية التي اصطنعها صاحبها في الوصول إلى أغراضه ، ومن أهمها القصص .

وأما ثانيهم — علي يوسف — فهو سياسي هذه الحلبة ؛ أوتي ذوقاً سياسياً بفطرته ، ثم كشف له في نفسه عن كل هذه الكنوز ، وذلك منذ أصدر للناس جريدة ( المؤيد ) فكانت برهانا ساطعاً على هذه المواهب التي ربما كان يجهلها في نفسه ، لولا ظهور جريدة المؤيد التي أظهرت له والناس هذه الموهبة .

وأما ثالثهم — مصطفى كامل — فهو خطيب هذه الحلبة ، لا بقدرته

البيانية التي يزعم كثير من الناس أنها لا تضارع ، ولكن بحماسة العاطفية التي أزعج أنا للناس أنها لا تبارى .

ومعنى ذلك باختصار أن أهم ما يلفت نظر الباحث في أسلوب مصطفى كامل إنما هو التدفق الشعوري ، أو الطابع الحماسي الذي طبعت به كتابته ، وخطابته ، وصحافته في وقت معاً .

وإذا كان الأدب في ذاته معنى أو فكرة ، وشعوراً ، أو عاطفة ، وخيالاً أو صورة ، وصياغة أو أسلوباً ، وما الأخير إلا وعاء تصب فيه كل هذه العناصر السابقة ، فمن الحق أن نحكم لصاحب اللواء بتفوقه على غيره من الكتاب تفوقاً عظيماً في العنصر الثاني من هذه العناصر الأدبية المتقدمة ، ونعني به عنصر الشعور أو العاطفة . ولكن ما رأينا في العناصر الثلاثة الباقية ؟

أما العنصر الأول وهو عنصر المعنى أو الفكرة ، فلا نقول فيه أن صاحب اللواء كان مساوياً لرفصائه من رجال القلم والصحافة في عهده ، وأن جواده كان محاذياً لجيادهم ، بل نقول أن صاحب اللواء كان يبرز هؤلاء الرصفاء ، وإنه حاول أن يسبقهم بأشواط بعيدة . وبنوع خاص حين يكون صاحب اللواء ممتلئاً بالأفكار السياسية الكثيرة التي قرأ عنها في الصحف والمجلات ، بل في الكتب والرسائل والمذكرات الهامة لبعض الساسة الأوروبيين . والذي نستطيع أن نؤكد في هذا المجال أن صاحب اللواء كان يبدو أكثر من رصفائه اطلاعاً ، وأكثر منهم معرفة بسكبار الشخصيات المشهورة في عالم السياسة ، وأكثر منهم أسفاراً في مختلف أنحاء العالم . وقد أكسبه كل ذلك مادة غنية من المعاني ، ورصيداً عظيماً من الأفكار كان يستقي منه في صحافته كلما أراد ذلك .

وأما العنصران الباقيان من عناصر الأدب ، وهما الخيال أو الصورة ، والأسلوب أو الصياغة فلنا فيهما رأى خاص نلخصه فيما يلي :



عرضنا لكثير مما كتبه صاحب اللواء في شتى الصحف والكتب ، كما قرأنا غير يسير من خطبه وأحاديثه فلفت نظرنا في كل ذلك أن مصطفى كامل كان لا يعنى بالخيال أو الصورة ، وكان لا يتوخى درجة عالية من جمال العبارة ، وذلك كما يتوخاها الأديب الذى يرى الجمال غاية في ذاته ، وغرضنا يسمى إليه .

وآية ذلك أن القارىء لمصطفى كامل قلما يعثر في طريق قراءته بتشبيه جميل ، أو خيال بعيد ، أو بصورة رائعة ، أو استعارة رائقة ، أو نحو ذلك مما يزن به السكتاب الأدباء كتبهم وصحفهم وأحاديثهم . وهذا كله من حيث الخيال أو الصورة .

وأما من حيث الأسلوب فما لا ريب فيه أن مصطفى كامل كتب جميع مقالاته بعبارة عربية سليمة في جملتها . ولكن عباراته هذه لم تبلغ بعد من الرقى مبلغاً عظيماً بلقت نظر جملتها الناقد الأدبى أو الباحث الفنى ، ويسترعى أذهان الأدباء من القراء خاصة والأدباء يتلمسون الجمال الحقيقى في العبارة ويتتبعون البراعة الفنية الصحيحة في الصياغة . فإذا ظفروا بشيء من ذلك تهافتوا عليه ، وصفت قلوبهم نحوه ، وبادروا إلى حفظه كما يحفظون الشعر أو الحكمة أو المثل .

ولكن لا ينبغي أن ننسى مع ذلك أنه كان لأسلوب مصطفى كامل روعة في نفوس قارئيه وسامعيه ، وأن هذه الروعة جاءت من الظرف الذى كتب فيه . فقد كان لكل كلمة من كلمات هذا الزعيم الخالد جو مناسب لا تفهم إلا فيه ، ولا يدرك أحد قيمتها إلا به . ومن هنا جاء سحر الرجل ، وجاء عظم تأثيره في نفوس الخاصة والعامة . صحيح ما يقال من أن لمصطفى كامل بعض الكلمات الرائعة والمبارات الحماسية الخالدة . ولكن ذلك في مجموعه قليل ، ولا يجوز أن يبنى عليه الناقد حكماً في أسلوبه الكتابى .

وعلى هذا القياس يكون صاحب اللواء متفوقا على أقرانه في عنصرين ، ومتغلغا أو كالمختلف عنهم في عنصرين آخرين . وأنت تري مع ذلك أننا تزن النتائج الصحفي لصاحب اللواء بميزان الأدب . ولكن أيقن لنا أن نفعل ذلك ، وقد سبق لنا القول في بعض الكتب إن الأدب شيء ، والصحافة شيء آخر ؟ ألم نقل إن الصحفي يهدف إلى غير ما يهدف إليه الأديب ؟ ألم نقل إن الصياغة الفنية للأدب الخالص يجب أن ترتفع عن الصياغة الفنية للصحافة الخاصة ؟

بلى — قلنا ذلك ، ونحن عند رأينا في كل ذلك . وإذن فلا مناص لنا من الحكم لمصطفى كامل بأن أسلوبه الصحفي كان يلائم الصحافة ، لولا ما قد غلب على أسلوبه هذا من طابع الخطابة . وهل كان يسع الرجل أن يتخلى عن أسلوبه الخطابي مهما كانت الدواعي إلى ذلك ؟ كلا :

اجل — كان أسلوب مصطفى كامل الصق بالخطابة منه بالكتابة . وأنا وإن كنت ممن لا يرون بأسا من تداخل الفنون الأدبية بعضها في بعض ، وأخذ بعضها من بعض ، إلا أنني ممن يرون في الوقت نفسه أن لكل فن من هذه الفنون الأدبية خصائص يستقل بها ، وسمات يعرف من خلالها . وليس من العسير على أهل البصر بالكلام أن يتعرفوا على هذه الخصائص والسمات ، وأن يبنوا على ذلك رأيهم في الأثر الأدبي ومن حيث هو . فلكاتب الصحفي أن يستعير في أسلوبه شيئا من ملاح الخطابة ، كالأشارة أو الخطاب أو تكرار عبارة بعينها مرار كثيرة ، ونحو ذلك . ولكن عليه ألا يسرف في هذا الأخذ والاستعارة . فإذا فعل ذلك فهو خطيب يكتب خطبته على الورق ، وليس بكاتب صحفي إلا من قبيل التجوز والتساهل . !

إذا صح هذا — وهو عندي صحيح إلى درجة كبيرة — فعناه في صراحة وجلاء أن مصطفى كامل يعتبر في نظر الناقد والباحث خطيبا من النوع الممتاز — لا جدال في ذلك — ولكنه لا يعتبر في الوقت نفسه كاتبا صحفيا من النوع الممتاز — وإن غضب بعض الناس من ذلك .



والحق أن قراء صاحب اللواء إنما كانوا يقرأون دائماً لمصطفى كامل الخطيب ، لا لمصطفى كامل الكاتب أو الأديب . ١

\* \* \*

وتم مقياس آخر تقيس به الأدب بوجه عام وبهذا المقياس يمكن أن يقال : إن عناصر الجودة في الأدب ثلاثة هي : القوة والحق والجمال . ونحن حين نزن بهذا الميزان الأخير جميع الآثار الصحفية لمصطفى كامل نرى أن في جانبها عنصرين منها ، هما عنصران القوة والحق .

أما القوة فصدرها عنده الحماسة ، وسمو العاطفة . وأما الحق فصدره في أسلوبه صدق الدعوة التي دعا إليها ، والغرض الذي هدف إليه ، والحركة التي قام بها ، والایمان الذي ملأ نفسه ، وغمر قلبه ، وسمما به إلى منزلة أوشكت أن تقرب من منازل الأنبياء والقديسين والشهداء .

بل إن سمو العاطفة عند مصطفى كامل إنما يرجع إلى ما فطر عليه من الحب لمصر ، والغيرة الشديدة على خير مصر . والذي لا يماري فيه أحد أن مصر لم تعرف رجلاً أحبها بكل جوارحه كما أحبها ذلك الرجل . وإن قارئ هذا القتي يشعر أنه إنما يقرأ ذوب قلبه ، وعصارة كل قطرة من قطرات دمه . وحسبك أنه القائل : « لو لم أولد مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً » . وحسبك أيضاً أنه كان يكتب على ظهر ( اللعب ) التي يلعب بها أطفال المدرسة التي سميت باسمه مثل هذه العبارات :

الوطن عزيز ، الوطن جميل ، لا شرف بغير الوطن ، ونحو ذلك . (١)

وكم من المعاني الوطنية استخدمها مصطفى كامل ، وكم من العبارات الحماسية جرى قلمه بها في الصحف ، ولسانه بها في المحافل . وهذه ناحية من الفضل ينبغي أن تذكر له دائماً بالتقدير والتبجيل .

وعلى هذا فلا يبق من تلك العناصر الثلاثة السابقة غير عنصر الجمال . وهو

(١) راجع اللواء في أول مارس سنة ١٩٠٢

العنصر الذي لم يفرغ له الرجل ، ولا كانت الصحافة من جهة ، ولا شغله الدائم بالقضية المصرية من جهة ثانية يتيحان له وقتاً لتوفيره ، أو النظر إليه .

وإخلاصة أن الفكرة التي تألفت لنا عن أسلوب مصطفى كامل أنه ( أسلوب خطابي ) قبل كل شيء . وإذا قلنا ( خطابي ) فمعنى ذلك أنه أسلوب متوسط التعبير ، فلا هو بالأنيق الممتاز بجماله ، ولا هو بالأسلوب الهابط إلى درجة تقرب من أسلوب الحديث العادي .

ونحن إذ نقف في الحكم على أسلوب الرجل عند هذا الحد لا نريد أن نبخسه حقه من الفضل . فأننا لو نظرنا في صحافته من ناحية الأسلوب وحدها استطعنا أن نقول باختصار : إن صحافة مصطفى كامل تدلنا دائماً على رجل واحد هو مصطفى كامل . ومعنى ذلك في عرف النقاد المحدثين أن في كتابة صاحب اللواء قدراً من ( الأصالة الحقيقية ) يرتفع بها أسلوبه إلى درجة عالية ، ويزداد بها في الميزان الأدبي زيادة واضحة .

وقليلاً ما يطالب الزعماء والقادة ومن إليهم من أهل اللسان والخطابة بأن يعنوا عناية كبيرة بالخيال أو الصورة ، لأنهم قوم مشغولون دائماً بالمعاني يشرحونها للأشياء والمريدين ، وبالعواطف ينقلونها في حرارة كبيرة إلى قلوب الجماهير . وقصاراهم أن يؤمن الناس بدعوائهم . وهم يلحون في ذلك حتى لا يتركوا مجالاً لفكرة تتسرب إليهم غير أفكارهم ، أو دعوة مخالفة لدعائهم . وقليلون جداً من أولئك الزعماء والقادة وأصحاب اللسان والخطابة من يعتمدون في كل ذلك على الصور أو الأخيـلة .

اجل — إن بين الأدب والخطيب أو صاحب الدعوة فرقاً كبيراً من هذه الناحية . فالأديب يؤلف الصور البيانية ، ويأتى بالعبارات الطليقة ، ويتخذ من هذا كله دليلاً على صدق فكرته أو صحة قضيته . أما الخطيب أو الدعية فيعتمد على الحوادث الجارية ، والحقائق التاريخية الواضحة ، ويتخذ



منها دليلا على صحة رأيه ، وسلامة قوله . والصورة البيانية تصلح دائما للايضاح ولكن لاتصلح أبداً للقياس . أما الحوادث والحقائق ونحوها فهي مادة الاستدلال الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والصورة البيانية عند النقاد هي الصدق المغنى ، ولكنها عند غيرهم من الناس لا صلة لها بالواقع ، ولا ينبغى أن يعتمد عليها فى الاحتجاج .

\* \* \*

ومهما يكن من شيء ، فالناظر فى أسلوب صاحب اللواء يلمح به طائفة من الخصائص منها :

أولاً - شيوع اللهجة الخطاوية . وقد تحدثنا الآن عنها . ولكننا نزيد على هذا الحديث أن الخطابة فى أسلوب مصطفى كامل أوضح منها فى أسلوب المويلحى وعلى يوسف وغيرها من رجال المدرسة الصحفية التى سمينها ( مدرسة عهد الاحتلال ) . ثم أن هذه اللهجة الخطاوية التى غلبت على أسلوب مصطفى كامل تمتاز بالحماسة والتدفق ، وهما الصفتان اللتان من أجلهما صارت مقالات صاحب اللواء أدخل فى باب الخطب منها فى باب الترسل الأدبى أو الترسل الصحفى الممتاز .

انظر إليه حين يقول فى المقال الذى عنوانه ( ١٩ يناير ) وهو يوم اتفاق السودان . وقد سبقت الإشارة إلى هذا المقال فى فصل بعنوان ( اللواء والحركة الوطنية ) :

تذكروا يا معاشر المصريين أن أخوانكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العريزة فى سبيل استرداد السودان .

تذكروا يا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم ، وصرفت فيها أموالكم ، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء .

تذكروا يا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان ، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم .

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر ، وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة .

تذكروا يا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد،  
وفرامانات جلالة السلطان الأعظم، ومعاهدات الدول الأوروبية .  
تذكروا يا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الأتراك والورين إلى اليوم،  
وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما . وما حاجة فرنسا إليهما كحاجة مصر  
إلى السودان الخ »

ثانيا - ومن هذه الخصائص التي يمتاز بها أسلوب الرجل جنوحه إلى  
إحداث الموازنات في الأفكار والمعاني ، واعتماده على ذلك لآحداث التأثير  
المطلوب في نفس القارىء . ففي مقالة له بعنوان ( اتحاد كلمة المسلمين ) بتاريخ  
٧ يناير سنة ١٩٠٠ كتب يقول :

... على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام  
والمسلمين ، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية . فم يشكي المسلمون ؟  
نشكى معاشر المسلمين من أن أوروبا المتمدنة لا تعاملنا كما يجب أن  
يعامل بنو الانسان . نشكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى الإصلاح  
فأفسدت ، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى .  
نشكى من أنها تسكرها كراهية دينية شديدة ، وهي المنادية بمبادئ  
العدل والحرية والمساواة . نشكى من أنها تقصد إبادةنا كما تباد الحيوانات  
الضارة ، وكما أريد السود من أمريكا ، وهم أصحاب البلاد الأولون .  
نشكى من كل أعمال التمدن والمدنية . وبودنا لو كنا غير شاكين .  
هذا ما نشكى منه . فم تشكى أوروبا ؟

أتشكى من أننا سلمنا إليها بلادنا ، ووثقنا بأقوالها ووعودها ؟  
أتشكى من أنها سادت عليها بارادتها ، وهضمت حقوقنا ، واستنزفت  
أموالنا ، وضيق علينا في حياتنا ؟

أتشكى من أننا نحسن للمسيحيين في الشرق ، ونعدهم إخوانا لنا ؟  
أتشكى من اعتدالنا وتسامحنا ، وهي معنا ظالمة قاهرة ؟



ثم قال :

فيا كتاب أوروبا وسواسها قبل أن تحكموا على الدولة العلية ، وتسموها دولة الهمجية والتعصب اسألوا أنفسكم بالله عليكم هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية ؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين ؟

إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالك يا كتاب المدنية الغربية تريدون المسلمين بلاء على بلادهم ؟ وما بالك لا تعرفون للحقيقة مقاما ؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة احتراماً ؟

اللهم إن كل المسلمين في كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم ، آسفون على ضياع استقلالهم ، ساعون في تحسين أحوالهم . ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك ؟

نحن نصرح في كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين ، وأن الهيجان والاضطراب خطر أشد على سلامتهم من كل الأخطار .

ثالثاً — ومن تلك الخصائص التي تصف لنا أسلوب الرجل إسهابه النسبي في العبارة . ونقول النسبي لأننا نقيس الكتابة عند صاحب اللواء بالكتابة عند صاحب المؤيد . وقد كان السيد على يوسف يمتاز بصفة ظاهرة في أسلوبه ظهوراً تاماً . وهذه الصفة هي ما سميناه ( بمساواة اللفظ للمعنى ) . ومن ثم جاء أسلوبه أميل إلى الاقتصاد في الألفاظ والعبارات ، وأعانه على ذلك أنه لم يكن خطيباً ، ولا كاتباً له صلة صحيحة بالخطابة . أما مصطفى كامل فقد كان على عكس ذلك مفتوناً بالخطابة . وكانت له صفاتها . وكان عنده استعداد كبير لها . ومن صفات الخطيب الميل قليلاً أو

كثيراً إلى الاسراف في اللفظ ، وإلى تكرار العبارات ، وإلى طول النفس في الكلام ، ونحو ذلك .

ومن هنا جاءت مقالات صاحب اللواء أطول في بعض الاحيان من مقالات صاحب المؤيد . تقرأ للأخير فلا تكاد تفتش فك بالقراءة ، وتقرأ لمصطفى كامل فتميل ميلاً عظيماً إلى أن تحرك فك بالقراءة . ومعنى ذلك عند النقاد المحدثين أن أولهما كاتب له أصالته في الكتابة . وأما الثاني فخطيب له أصالته في الخطابة . وكلاهما صحفي ناجح ، لا موضع للشك في هذه الدعوى .

كلاهما كان يرد على جبار الاحتلال كلما كتب تقريراً ، ونشرت الصحف له هذا التقرير . ولكن رد أولهما - وهو على يوسف - كان أدنى إلى الإيجاز والمنطق على السواء . وكان رد ثانيهما أدنى إلى الاسهاب وإثارة العواطف . وأعتقد أن القارئ ، في غنى عن أن آتى له بمثال علي هذا الاسهاب الذي اشتهر به مصطفى كامل بالنسبة إلى علي يوسف .

رابعا - ولعل من أوضح الخصائص الفنية لمصطفى كامل سخريته الجادة ، أو الحزينة ، ونعني بها ما كان يظهره صاحب اللواء أحيانا من التهمك المرير بالمحتلين حيناً ، والمصريين أنفسهم في بعض الأحيان . وهو تهمك لم يصدر قط عن نفس مرحة ، ولا قلب يغمره الفرح . وإنما كان يصدر دائماً عن نفس حزينة ، وصدر مشحون بالغليظ والألم من أجل هذه الحالة التي أصبحت عليها مصر ، ومن أجل الاحتلال الذي قبض بكلتا يديه على رقبة مصر . ومن ثم كان لصاحب اللواء العذر كل العذر فيما امتلأ به فؤاده من هم ، وما أحس به من كرب . فإذا أضفنا إلى ذلك أن نفس الرجل كانت تميل بطبعها إلى الجسد والحزن لم نعجب من أن اللواء لم تنفرج قط عن ابتسامة أمل ، ولا نبضت طول حياتها بشيء من السرور أو الفرح . ولهذا كان مصطفى لا يعرف الضحك ، ولا يحسن السخرية التي تأتي من شعور صاحبها بعلو منزلته على من يسخر بهم ، أو يحس قارئها بابتسامة صفراء



## مرسومة على الورق ١

أجل من الكتاب الساخرين من يحسن « التنكيت » و « التبكيت » معا كما فعل ذلك السيد عبد الله النديم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومنهم من لا يحسن إلا ( التبكيت ) فقط أو ( التنكيت ) فقط . وصاحب اللواء كان يحسن أولهما ولا يحسن ثانيهما . ومعنى ذلك أن سخرية مصطفى كامل حيناً تكون ضرباً من الغضب أو الهياج ، وحيناً تكون لونا من الرثاء أو الاشفاق ، وحيناً تكون نوعاً من الحزن أو البكاء ، وليست شيئاً غير ذلك .

خامساً - على أن شيئاً هاماً يلفت النظر كذلك في أسلوب مصطفى كامل ، وهو أنه قليل الأخذ من معين الأدب الخالص ، زاهد في كلام الأدباء والشعراء والفلاسفة ، من العرب أو غيرهم على السواء .

فلم نر صاحب اللواء يعنى بالاقتباس من غيره إلا في حالة واحدة ، هي اقتباس الأقوال المتصلة بالساسة . وهنا نجد الرجل يستعير من كبار الساسة ، ويبني على ما يستعيره من كلامهم . ويعقب على هذا الكلام ، وينظر إلى العبارة المقتبسة في هذه الحالة كما ينظر المحامى الى وثيقة من الوثائق التي يعتمد عليها في أثناء النظر في قضية من القضايا .

أجل — كان مصطفى كامل قليل الأخذ من معين الأدب الخالص . ومن شأن الأديب الذي يزهد في هذا المعين أن يقوم بنفسه ، وأن يتخذ له أسلوباً عصرياً بحثاً يشتهه من نفسه . وقد رأينا رجلاً كالسيد على يوسف يحاول بين حين وآخر أن يكون عصرياً في أسلوبه بهذا المعنى . أما مصطفى كامل فإنه حتى في هذه الناحية أيضاً — كان قليلاً ما تعجبه الأساليب العصرية ، والعبارات المتداولة على ألسن المصريين ، فيأتى بها في تضاعيف كلامه في الصحف أو الخطب . ولا تكاد ذاكرتى تسمى لمصطفى كامل من أمثال هذه الأساليب العصرية ، أو الجمل المتداولة على ألسن المصريين — بغض النظر عن مقدار عريتها — أكثر من قوله :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم ، والاطراء عليهم وتشديد لهم الأمم العاللى والقصور من الحب والاعجاب والثناء . إلا لأنهم رفعوا لواء الوطن الخ . » وهو جزء من مقال له عنوانه ( البوير والدخلاء ) لا بأس من أن نأتى به هنا كاملاً .  
وهذا المقال . وإن لم يكن من المقالات المشهورة لمصطفى كامل ، إلا أنه يصف أسلوبه ، ويترجم عن طريقته . ولأمر ما أتينا به فى هذا المكان ، وهو بعنوان :

#### (١) البوير والرخماء

ما هذه الضجة الهائلة التى وصل صداها إلى جبال آسيا ، وقرى البوسفور ؟ ما هذا الاعجاب العام والتحدث بشمائل البوير ؟ ما هذه العناية ( بديلارى ) و ( دى ويت ) ( وبوتا ) ؟ ماذا أقام هؤلاء القوم من بنيان ، وشيدوا من دول حتى صار لهم فى العالم كله هذا المقام وذلك الاحترام ؟  
لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم ، والاطراء عليهم ، وتشديد لهم الأمم العاللى والقصور من الحب والاعجاب والثناء . إلا لأنهم رفعوا لواء الوطنية ، وأعلوا منارها ، وألقوا على الشعوب أفضل الدروس فى الاقدام ، وعلمت الأمم الحاضرة والآتية كيف تكون الهمة والشهامة والاستهانة بالحياة فى سبيل أقدس ما أهدى الرحمن للإنسان : الوطن العزيز !  
ولكن ما هذا القول ، وفى مصر رجال محنكون ، وفلاسفة مطلعون ينادون بأن الفضيلة فى خيانة الأوطان ، والشرف فى عبادة الاجنبى والمحتل ، والمجد فى قتل عواطف الأمة وتمزيقها . فهل لنا أن نصدق الأمم والدول والممالك والساسة والكتاب والشعراء ونكذب طغمة الدخلاء ؟



كيف نمدد الوطنية مع ممجديها من سادة أوروبا وقادة أزمته ، ولا نحترمها مع صنائع الاحتلال في مصر ، وآلات الفساد والاختلاق بها ؟ كيف نترك تصفيق الأمم وتهليلها ( لدباري ) و ( دى ويت ) و ( بوت ) يخرق قلوبنا ، ويلعب بأفئدتنا ، أو ( بارين ) وأمثاله من أنصار الخيانة حكموا على أبطال البوير وأشباههم بالجنون ، وقضوا على المتقدمين والمتأخرين من خدمة لأوطان وحمة رايها بضعف العقل وموت الارادة .

لا محل للسؤال والحيرة . فقد سمع المصريون صوتين في ، الآفاق صوت البوير والوطنيين من أمثالهم ينادون :

« إنما الوطن آية الله الكبرى ونعمته العظمى . وفي كل ذرة من ذرات ترابه شيء من عظام الآباء والأجداد ، وأثر من الآثار المقدسة التي يهين الانسان أشرف شيء في وجوده وفي الوجود بالاستهانة بها إنما الوطن مهد الانسان ولحده . وجنته في الدنيا وغاية سعوده ، وأبوه وأمه وولى نعمته وأمره ، ومسدى الخير لذريته وسلالته من بعده ، وموزع الشرف والرفعة بين قومه ، وحامل مجد آبائه وناقل ميراثهم اليه .

إنما الوطن خالد باق . ونحن نمر أمامه ونقيد في سجله ما لنا من حسنات وسيئات . فويل ثم ويل لمن كثرت سيئاته وتعددت على الوطن جنائياته . وما جناية الجنائيات عليه إلا الاعتماد على الدخيل ، والثقة بأقواله ، وقبول سم مقاله غذاء للعقول والنفوس !

إنما الوطن يحتاج في سلامته إلى اجتماع كلمة الأمة ومعرفتها لتمييز عنصرها على غيره ، وتمسكها بسلامة لغتها التي سماها ( دى ويت ) « الحارس الوحيد للجنسية » والعلم بأن الدخيل في الأمة ديناميت يبيدها ، ويمزق شملها ، ويقطع أوصالها ، ويهدم بنيانها ، ويجعل عزها ذلا ، ونعيمها شقاء وبلاء . إنما الوطن بينيه وأبناءؤه به . فلا يرتفع للمرء شأن مهما كانت معارفه إذا كان وطنه ذليلا مهانا . ولا ينخفض للانسان مقام مهما سفلت أخلاقه

وقلت معارفه إذا كان وطنه عزيزاً مهاباً .

كما سمع المصريون كذلك صوت الدخلاء يناديهم :

« لا وطن ولا وطنيين ! إنما مصر لمن ينهبها ويخدع المحتل فيها ، وما الشهامة والهمة وعلو النفس والاباء إلا أخلاق همجية لا محل لها في بلاد دخل فيها التمدن وارتفعت فوقها راية الحرية

وما أنتم معاشر المصريين إلا قوم متأخرون في الحضارة ، فاستمعوا لأقوالنا نحن معاشر الفلاسفة ، واعتقدوا إخلاصنا « نحن الأجانب عن جنسيتكم ودينكم » ولا تتبعوا قوماً منكم تجمعكم وإياهم جامعة « الجنسية والدين » ! النصيحة الحققة منا ، والرأى الصادق يصدر عنا نحن « الذين لم يدفن لنا أب ولا أم في أرض مصر » والضلال كل الضلال في أقوال أولئك « الذين ملئت البلاد بعظام آبائهم واجدادهم » ! اهتدوا بهدينا ، واقتدوا بنا نحن « الذين نسب الاسلام ونعلن بطلان مبادئه » وخالفوا أولئك الذين « يؤملون رفعة الاسلام ويحملون بعودة مجده وسؤدده » ! أطيعونا نحن القائلين لكم « بيعوا الوطن واشتروا سلامتكم الوقتية . ضحوا المصلحة العمومية وأنقذوا المصلحة الشخصية . تمتعوا بالحياة المادية واقتلوا الحياة الأدبية . فوزوا بالنعيم الباطل وقولوا « بعدنا الطوفان » . أعبدوا المحتل الذي سلبكم استقلالكم ومجدكم وعظمتكم . وسبحوا بحمده يكرة وأصيلاً ! » ودعوا أولئك المهوورين الذين يزعمونكم بقولهم « شهد دوفرين وغيره من الانكليز انفسهم بأن للمصري أن يكره المحتل مادام في بلاده لان الاستقلال لا يمن له . وقرر الحاضرون والمتقدمون من الفلاسفة « الصادقين » والعقلاء أن الأمة لا تكون أمة إلا إذا كانت شديدة الغيرة على جنسيتها ولغتها ودينها ، شديدة النفور من الدخيل

سمع المصريون هذين الصوتين : صوت الحياة العالية ، والشرف الصحيح ، وصوت الخيانة والموت والعار الفاضح ، ورأوا حال الأمم التي سمعت الصوت



الأول ؛ رأوا نعيما وملكا كبيرا ، رأوا اساطيل في البحر ، وجيوشا في البر .  
رأوا سلطة وسلطانا ، وقوة وشانا ، ورفعة للجموع والأفراد ، وراية يحل  
الاجلال اينما حلت ، ويعز من بها اعز ، ويذل من لم يؤد لها واجب  
الاحترام . فأى الصوتين هم سامعون ، وبأى القولين هم عاملون ؟

اللهم إن كانوا للموت طالبين ، وبالعار متعلقين ، فها هم الدخلاء أئمتهم  
وقادتهم المختارون . وإن كانوا من طلاب الحياة والوجود والجاه والرفعة  
فليسمعوا الملاء صوت احتقارهم لطغمة تسبهم بأقوالهم ، وتطالبهم فوق ذلك  
بالاتثال والحمد والشكران

الآستانة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ ( مصطفى كامل )  
في هذا المقال تظهر خصائص صاحب اللواء بأكلها دفعة واحدة  
ففيه :

أولا — تلك اللهجة الخطابية التي تحدثنا طويلا عنها . وهى اللهجة التي  
تعتمد على التكرار والاستفهام والاشارة وتوجيه الخطاب إلى القراء  
كأنهم أمام الكاتب في حفل عام .

ثانيا — تلك الموازنات التي أغرم صاحب اللواء بها لكي  
يعطى الصورة كاملة للقراء . وهو هنا يوازن بين حالة مصر وحالة البوير .  
ثم يوازن بين كلام الوطنيين الصادقين ، وكلام المحتلين ، وأنصار الاحتلال  
من المصريين .

ثالثا — تلك المعاني الوطنية التي يفتأ صاحب اللواء يأبى بها في  
مقالاته ، والمواطف القومية الشريفة التي لا ينفك يبعثها بين مواطنيه .

رابعا — تلك السخرية الحزينة بل ذلك البكاء المتواصل على مصر من  
جهة ، وعلى الاسلام من جهة ثانية . وهو بكاء لا يصدر إلا عن نفس حز  
فيها الألم ، وقلب أئختته الجراح .

خامسا — ذلك الاسهاب أو الاطناب في العبارة . وهو إسهاب يتمشى

مع آلام الرجل ، ويسير مع أفكاره دائماً . وإذا كانت آلامه كثيرة لا تنتهي وأفكاره متلاحقة لا تعرف الوقوف فن الضروري إذن أن تكون عباراته مسيرة لهذا الطول والامتداد في الفكرة والعاطفة .

سادسا — ذلك الصدود الظاهر عن الصور البيانية على اختلافها ؛ وعن الزينة اللفظية بأنواعها ، وعن الأخذ من الأدبين القديم والحديث بفنونها . فحسب الكاتب هنا أن تخرج عبارته وكأنها نفثة من نفثات صدره ، أو قطعة من قلبه وعقله . وما دام هو قد رضى عن قلمه على هذا النحو ، ورأى فيه أنه قد عبر عن غرضه على هذا الوجه ، فما حاجته إلى الاقتباس والاستشهاد ، وما حاجته إلى التسلق على كلام الشعراء والحكماء والعلماء والفلاسفة ؟

سابعا — صفة ( التوسط ) في التعبير . فليس تعبيره هذا بالأدبي الرفيع ، ولا هو بالسوقي الوضيع . ولكنه في منزلة بين المنزلتين ، يعتمد فيه الكاتب على نفسه ، ولا يحاول الاتيان بلفظ لا يدور على الألسنة ، ولا يشق على القاري . بل لا بأس عنده من أن يأتي ببعض الجمل التي تداولتها الألسن ، وظهرت أحيانا في أثوابها العامية المألوفة ، وإن كان ذلك لا يأتي من صاحب اللواء إلا في مرات قليلة نادرة . كتلك المرة التي قال فيها :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويمم الأرض مديحهم ، وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور الخ » .

والشاهد في قوله ( العلالى والقصور ) فهو تركيب مألوف في بلادنا ، معروف في أحاديثنا العامة في مصر . وباختصار كان مصطفى كامل شديد الاعتزاز باللغة العربية فخوراً بها مؤبداً لها . ولكنه كان أقل الثلاثة الذين تحدثنا عنهم محصولا في هذه اللغة ؛ وذلك بالرغم من جنوحه إلى الاسهاب والمترادف على الطريقة التي شرحنا بعضها .



ثامناً — استجابة هذا الأسلوب للعاطفة والشعور أكثر من استجابته للعقل والتفكير. وهذا هو الفرق بينه وبين علي يوسف . فإذا كان هذا اسيراً لأفكاره التي يتقيد بها ، ويخضع أسلوبه لها ، ولا يعنيه من العبارة الصحفية مهما كان شكلها إلا أن توضح هذه الأفكار التي يحاول نقلها إلى جمهور القراء ، فإن مصطفي كامل كان أسير عواطفه يجعل أسلوبه تابعا لها ، خادما لأغراضها ، فلا يعنيه من العبارة الصحفية مهما كان شكلها إلا أن تترجم عن هذه العواطف التي يزدحم بها قلبه ويحاول أن يجد لها متنفسا في المحافل أو الصحف .

(وبعد) فأنما يقرأ الأدب لشيء في بعض عناصره له جاذبيته وله قوة لمعانه وإضاءته . وقد يكون هذا الشيء صورة رائعة ، وقد يكون هذا الشيء عاطفة من العواطف الشريفة الصادقة . وقاما تجتمع للقطعة الأدبية كل هذه الأشياء دفعة واحدة . والذين يقرأون لمصطفى كامل ينبغي لهم أن يستحضروا في أذهانهم صورة الظروف التي ألمت به ، والجهاد المتصل الذي كان يبذله ، والنفس القلقة المعذبة التي انقطعت لعبادة الوطن ، وتوفرت على خدمته حقبة من الزمن

إذ ذاك يستطيع القراء أن يتجاوبوا معه دائماً ، وإن يجدوا له صدى في نفوسهم وعقولهم كلما اتصلوا به في جريدته .

## خاتمة المطاف

« ٠٠٠ ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه .  
وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشتبعوا  
النعش الذي حمل زعيمهم إلى مثواه . أولئك هم الأنصار  
الذين غدوا — وقد مات الزعيم — خلفاءه من بعده .  
كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره . وقد صار  
هذا الشعب وارث مثله الأعلى . »

عباس حلمي الثاني



## وفاة مصطفى كامل

رأينا كيف اتخذت الحركة التي قام بها هذا الزعيم الشاب شكل مقاومة عنيفة ضد سلطة أجنبية بغيضة ، هي سلطة الاحتلال البريطاني . ورأينا كيف وجدت هذه الحركة لنفسها سنداً قوياً من ولى الأمر أولاً ، ومن الشعب المصرى ذاته بعد ذلك ، وهذا هو الفرق بين حركة عرابى ، وحركة مصطفى كامل .

أما الأولى — وهى حركة عرابى — فكانت تتاهض النفوذ الشرکى فى الجيش ، ولكنها كانت موجهة ضد صاحب السلطان الشرعى فى مصر ، ومن ثم لم تجد لها سنداً قوياً من جانب الشعب المصرى ، الذى لم يشترك فى هذه الثورة بخط ما .

وأما الثانية — وهى حركة مصطفى كامل — فكانت تقوم على أساس واضح من الشعبية ، وكانت تهدف إلى غرض واضح ، هو مقاومة السلطات الأجنبية والأغراض الاستعمارية . ثم كانت الحركتان تشتركان بعد ذلك فى المطالبة بالدستور ، وكان لكل منهما أثر كبير فى تطور النهضة الوطنية والوعى القومى فى مصر .

ومع هذا وذاك فיאبى البحث التاريخى أحياناً الا أن ينظر الى أعمال العظماء من زاوية غير التى ينظر منها عامة الناس . ولسنا من القائلين بعصمة العظيم ، ولا ممن يتصورونه — مهما علا قدره وعظمت قيمته — رجلاً لا يجوز عليه الخطأ . بل ننظر إلى هذا الخطأ أحياناً على أنه ظل لعقيدته ومبادئه ، وعمل من الأعمال التى لجأ إليها لتحقيق أهدافه وما ربه ، ومصدر من مصادر العظمة الانسانية التى لا تعرف الكمال المطلق .

وعلى هذا الأساس نريد أن نعرض لبعض الهنات التي يلصقها بعض الباحثين بالزعيم الشاب مصطفى كامل

\* \* \*

قد يقال إن من أخطاء مصطفى كامل أنه ربط مصر بعجلة الامبراطورية العثمانية ، ونصب نفسه مدافعاً عنها مدة طويلة ، حتى لقد استنفذ ذلك من جهده وطاقته شيئاً غير قليل .

ونحن لا نعد ذلك خطأً من أخطاء مصطفى كامل . ولا نقول ذلك رغبة منا في تبرئة ساحته في محكمة التاريخ . وما نحن من القائلين بعصمة الرجال كما قدمنا ، ولا من الذين ينظرون إلى العطاء على أنهم أنصاف آلهة كما فعل الذين من قبلنا ، ولسكننا نأخذ بوجهة نظر الرجل نفسه في الأمر . فإلّا العيب في سياسة قامت على التكتل ، وهي سياسة يأخذ بها كثير من الدول إلى وقتنا هذا ؟ لقد كان مصطفى كامل كغيره من زعماء الشرق في ذلك الوقت يحلم بوجود كتلة اسلامية كبيرة . ولا بأس عنده يومئذ من أن تكون زعامة هذه الكتلة للاستانة . وتلك سياسة رشيدة من شأنها أن تجعل للممالك الاسلامية المهضومة كلمة مسموعة في المجامع الدولية الكبيرة . وعلى هذا فلا محل للطعن في هذه السياسة إلا من جهة واحدة ، هي ضعف الدولة العثمانية ، وبلوغها من المرض والشيخوخة حدا لا تصلح معه لتولى هذه الزعامة الدينية أو السياسية . وذلك ما أدركه الزعماء والقادة في مصر فيما بعد وفي مقدمتهم احمد لطفى السيد . ومن أجله فكروا جدياً في تعديل هذه السياسة . ولم يتأخر مصطفى كامل نفسه عن غيره من القادة في هذا التعديل . كما تشهد به مذكرات الخديو عباس ، وقد قال عن هذا الزعيم الخالد إنه استبدل بسياسته التركية الطابع سياسة وطنية خالصة . وتطور بسرعة فائقة جعلت تلايمذه يتبعونه دون أن يفتنوا الى الخطأ الأول .



وقد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل أنه تحدث كثيراً في شئون الاسلام والمسلمين في جريدة اللواء وانزلق أحياناً الى نوع من التعصب الدينى ضد القبط في مصر ، حتى عابه الأقباط أنفسهم في ذلك ، وأخذوا عليه اهتمامه بالمسلمين في الصين والبوسنة والهرسك باكثر من اهتمامه بهم وهم معه في وطن واحد هو مصر . والذين يطلعون على الصحف القبطية المصرية في تلك الفترة ، والذين يتتبعون حركة الأقباط في المصالح الحكومية ، وفي بعض المجتمعات الدينية وغير الدينية يلتهمون المذمر لمصطفى كامل في إفساح صحيفته لهذه المهارات المذهبية التي تحرك لها من قبل رجل محكوم بعقله أكثر من قلبه كالسيد على يوسف .

على أن الذوق يشهد لمصطفى كامل أنه لم يسف في حديثه عن القبط في مصر إلى الدرجة التي هبط هؤلاء إليها .

فالحق أنه برغم ثورته وحدة مزاجه لم يكن بذيقاً في لفظه . ولا أحس قراءه بفحش في عبارته ، أو هبوط في مستوى خلقه ، أو اسفاف في نقده . بل كان عف القلم واللسان ، نقي النفس والسريرة . وكل ما في الأمر أن غيرته الدينية كانت كغيرته الوطنية أثراً من آثار نفس قلقه ، وإحساس مرهف ، وجسم عليل ، لم يمنحه صاحبه ما يستحق من الراحة لحظة واحدة من لحظات العمر .

وللباحثين أن يعقدوا موازنة ما بين مقالات مصطفى كامل ومقالات الصحف القبطية المصرية ، فيوجدون مصداق هذا القول ، وسيحكمون لقلم هذا الشاب المهدب بالنزاهة والأمانة والعفة والصدق والأدب في المناظرة .

ومهما يكن من شيء فلا محل للنزاع بعد ذلك في أن مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، وأعظم داع من دعاة القومية المصرية ، وإذا كان كل داع من الدعاة قبله أو بعده قد وضع في بناء « القومية المصرية » لبنة واحدة فإن مصطفى كامل وضع بيده لبنات متعددة . وفي ذلك

ما يدل دلالة واضحة على عمق إحساسه بالوطنية التي لا تقيم وزناً للخلافات المذهبية أو الفوارق الدينية .

ومعنى ذلك أنه لا محل هنا مطلقاً لهذه التهمة من التهم التي وجهت إلى باعث نهضتنا الأخيرة . ثم ألا يكفي ان تعلم أن زعماءنا المصريين تعرضوا جميعاً لتهمة المبالاة للانجليز ، وهي تهمة يبرأ منها كل زعيم منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ونجا الزعيم الشاب مصطفى كامل وحده من هذه التهمة ، ولم يستطع أحد من أعدائه أن يرميه بها يوماً ما ؟ وقد يقال إن من أخطاء مصطفى كامل إنه دعا إلى حجاب المرأة ولم يدع إلى السفور الذي دعا إليه قاسم أمين ومن آمنوا معه بهذه الدعوة . ولسنا نرى في ذلك عيباً من عيوب مصطفى كامل ، فبحسبه أنه كان يدعو إلى تعليم المرأة ، وإلى الأخذ بيدها إلى المدنية الصحيحة والرقى الصحيح .

لقد شهد هذا الشاب الذي يمتليء بالغيرة كيف شقى المجتمع الأوروبي بسبب سفور المرأة ، وكيف حرمت البيوت الأوروبية أنس الأسرة . وكيف نشأ الأطفال الأوروبيون في غير حجور أمهاتهم وآبائهم وإخوانهم فأبت عليه نفسه أن تكون المرأة المصرية معذبة محرومة كالمرأة الأوروبية ، وراح يلح في أن تصان في البيت كريمة معززة ، ولكن بعد أن تأخذ حقها كاملاً من التربية والتعليم في المدرسة ، لأنه يعلم علم اليقين أن العمل الأسمى للأمم في كل بلد هو أن تصنع الرجل للأمة . وتلك وجهة نظر لها احترامها إلى اليوم .

تلك مجموعة الأخطاء التي أخذها بعض الناس على مصطفى كامل . وربما كان من أخطرها الخطأ الأول ، وقد وضعنا وجهة نظر الرجل في ذلك ، وإن قلنا من قبل ما معناه : إنه كما أخطأ الكثيرون من الأوروبيين في النظر إلى النهضة الفكرية التي شملت جميع البلاد الإسلامية الشرقية



على أنها نهضة صليبية ، فكذلك أخطأ مصطفى كامل من جانبه في فهم السياسة الأوروبية على أنها سياسة مسيحية ، وفهم السياسة العثمانية على أنها سياسة إسلامية .

ولمصطفى كامل كما قلنا غيرة دينية لا تقل بحال ما عن غيرته الوطنية فأحب أن ينقل هذه العواطف كلها إلى نفوس المصريين ، وأخذ يدعوهم الى التمسك بالدين ، وذكر لهم فيما ذكر يومئذ أن الأوربيين بلغوا ما بلغوه من التقدم العظيم بسبب الدين ، متغافلاً عما أشرنا إليه في إحدى المقدمات التي بدأنا بها هذا الحديث من أن أوروبا كانت في ذلك الحين قد بدأت تؤمن إيماناً كاملاً بالعلم والحضارة الحديثة ، ويقل إيمانها في الوقت نفسه بالدين وبالعقيدة ، وذلك منذ نشر دارون وأمثاله من العلماء كتبهم المعروفة في أصل الأجناس البشرية ، وعلم طبقات الأرض ، وما إليها .

ولئن أصر بعض الناس على أنه كان لمصطفى كامل أخطاء فإن مرد هذا كله إلى شبابه وحاجته الى ذخيرة أخرى من التجارب التي هي كل ما يمكن ان تمنحه الكهولة أو الشيخوخة لبعض الرجال ممن رزقوا سعادة العمر ، وصحة الجسد ، وسلامة الاعصاب من المرض . ولا غرابة في ذلك فقد تطلع الشاب الى زعامة أمته وهو في العشرين . ولو تأخر الزمن قليلاً بهذا الرجل حتى يصل الى سن النضوج لكان لنا منه زعيم لم ير العالم مثله في صدق عقيدة أو إصابة رأى أو بعد نظر أو نفاذ بصيرة ، بل زعيم لا يقل في خطورته وعظيم نفعه لأمته عن بسمارك . أجل — لقد كان للسياسة الأوروبية أسرار لا تعرف بالقراءة قدر ما تعرف بالتجربة . والتجربة لا توهب عفواً أو في لحظة واحدة . وإنما هي بنت الزمن ورييبة المحن . فلو أن القدر المحتوم أهل هذا الزعيم ، ومد في أجله الى حين لاستطاع أن يصل بأمته الى أعلى من الدرجة التي سمت إليها أية أمة من الأمم .

ولكن الأجل قطع على مصر هذا الأمل ، وحرّمها ذلك الرجل الذى قلنا تجود بمثله الأمم فى أزهى عصورها ، وأحفظها بالعظمة والجلال .  
كان مصطفى كامل قائد حركة خطيرة من حركات المقاومة الشديدة ضد الاستعمار . والمقاومة فى كل زمان ومكان هى مبعث القوة ، ومثار النشاط ، ومقياس العزة والاباء ، ودليل الشهامة والبطولة ، وعنوان الحياة . وقد تمثلت هذه المعانى كلها فى مصر فى الفترة التى كانت القيادة فيها لهذا الفتى الشهم الذى رفع صوته عالياً فى المطالبة بحقوق بلاده ، حتى وصل صوته إلى أقصى الأرض .

والحق أن مصر تدين لهذا الفتى بكل ما أصابها من تقدم منذ العشر الاواخر من القرن التاسع عشر الى يومنا هذا .

ألم يكن أول من دعا الى إنشاء الجامعة ؟

ألم يكن أقوى من دافع عن اللغة العربية بجرارة بالغة ؟

ألم يكن أشد مواطنيه محاربة للظلم ، وكرهية للاستعباد الذى كان

عليه القوم ؟

ألم يكن هازم الجيوش البريطانية فى مصر ؟

ألم يكن أخطر من هز الضمير الأوروبى لصالح القضية المصرية ؟

ألم يكن اعظم من طالب بالدستور والحياة النيابية ؟

ألم يكن اكبر من نجح فى إعداد المصريين وتدريبهم على الحكم

الذاتى الصحيح ؟

أما أسلوبه فى الكتابة فقد فرغنا من أنه أدنى إلى الخطابة منه الى الصحافة .

ولم نعد الحق — فيما نعتقد — حين دمغنا صحافته فى اللواء بهذه الصفة

أجل — لقد منحض القدر الحكيم رجال مصر فى هذا العصر

فكان هذا الفتى زبدة العقل المصرى ، والنفس المصرية ، والقلب المصرى ، وكان

عنوان أمته فى كل جانب من هذه الجوانب المتقدمة .



فإذا كان الوفاء طبيعة فينا نحن المصريين فعلينا ان نذكر هذا الزعيم الباسل كلما جد على حضارتنا جديد ، وكلما ربحنا شيئاً في ميادين التقدم السياسى أو العلمى ، أو الأدبى ، أو الخلقى ، أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى .

أجل — ينبغى ان نذكر مصطفى كامل كلما أصبنا قدراً من النصر فى واحد من تلك الميادين ، وينبغى أن نذكر له سهره على قريية هذا الجيل الذى غدا — وقد مات الزعيم — خلفا له من بعده . فكما يقول الخديو عباس إن روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره وقد أصبح هذا الشعب وارث مثله الأعلى .

\* \* \*

ألح المرض على الزعيم الشاب قبل وفاته بثلاثة أشهر ولكن ذلك لم يمنعه من المضى فى عمله « ولما كان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ترك سريره مرضه ، ونزل إلى ساحة اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية ، وألقى خطبة رائعة ، حتى ذهل السامعون لبلاغته ، وبراعة إلقاءه ، وقوة جنانه مع ما كان باديا عليه من الضعف . وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله . ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع ، وعاد إلى غرفته مريضاً ولم يقادرها . وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى ، وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعا شديداً وازداد ما به من مرض حزنا على صديقه العظيم . وكان — وهو على سرير المرض — لا يدع العمل والتفكير . فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى ، اتهم فيها المصريين بعدم الكفاءة للحكم الذاتى ، ورد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم

الذاتي كثيرا من الأمم الأوروبية ، وأن مصر ستظل تجاهد في سبيل  
حريتها واستقلالها حتى تنالها . (١)

\* \* \*

وفي يوم الاثنين الثامن من المحرم سنة ١٣٢٦ — والعاشر من شهر فبراير  
سنة ١٩٠٨ اسلم الفقيه روحه إلى بارئها وروح المصريون لهذا النبأ الذي  
صك مسامعهم ، واضطربت له مشاعرهم ، واجتمعت الألوف المؤلفة منهم  
السير في جنازته التي وصفها قاسم أمين بقوله :  
« هذه هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى  
كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي ، والمرة الثانية يوم الاحتفال بجنازة صاحب  
اللواء » .

ووصل الجثمان الطاهر إلى مقره الأخير فوقف الشاعر إسماعيل  
صبري أمام النعش . وحاول أن يلقي قصيدة في رثائه . ولم يكذ يلقى البيت  
الأول فيها وهو :

أداعى الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذقت بالأمس داعيا  
حتى غلبه البكاء ، وبدا عليه التأثر ، ولم يستطع أن يتم قصيدته . ومما  
جاء في هذه القصيدة قوله :

الا عللاني بالتمأزى وأقنعا فؤادي أن يرضى بهن تمازيا  
والا أعيناني على النوح والبكا فشأنكما شأني وما بكما يسا  
وما نافعني أن تبكيا غير أنني أحب دموع البر والمرء وافي

\* \* \*

أيا مصطفي بالله نومك رابنا أمثلك يرضى أن ينام اللياليا  
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا  
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة تحالك أعواد المنابر فانيا



وتبكيك لولا أن فيها بقية  
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى  
ثم قام الشاعر الكبير حافظ إبراهيم ، فألقى في رثاء الفقيد قصيدة  
رائعة منها :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة  
عزيز علينا ان نرى فيك مصطفى  
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده  
ولكننا فقدنا كل شيء بفقده  
فيا سائلي أين المروءة والوفا  
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح  
شهيد العلا لا زال صوتك بيننا  
يهيب بنا : هذا بناء أقتسه  
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أنى  
أجل أيها الداعى الى الخير إننا  
بناؤك محفوظ وطيفك مائل  
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يرى  
فرخص لنا اليوم البكاء وفي غد  
فيا نيل إن لم تجر بمد وفاته  
ويا مصر إن لم تحفظي ذكر عهده  
ثلاثون عاما بل ثلاثون درة  
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن

وكان أحمد شوقي كذلك من أسبق الشعراء إلى رثاء الفقيد . فقد  
نشرت له قصيدة رائعة بعد وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً . وهي قصيدة  
مشهورة منها قوله .

المشركان عليك بفتجان  
يا خادم الاسلام أجر مجاهد  
لما نعت إلى الحجاز مشى الأسى  
قاصيهما في مآتم والداني  
في الله من خلد ومن رضوان  
في الزائرين وروع الحرمان

جار التراب وانت اكرم راحل  
أبكي صباك ولا أعاب من جنى  
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم  
الله يشهد أن موتك بالحجا  
ماذا لقيت من الوجود الفاني  
هذا عليه كرامة للجاني  
بالقلب أم هل مت بالسرطان  
والجد والاقدام والعرفان

إن كان للأخلاق ركن قائم  
المجد والشرف الرفيع صحيفة  
واحب من طول الحياة بذلة  
دقات قلب المرء قائمة له  
فأرفع لنفسك بعد موتك ذكرها  
في هذه الدنيا فأنت الباني  
جعلت لها الاخلاق كالعنوان  
قصر يريك تقاصر الأقران  
إن الحياة دقائق وثوانى  
فالذكر للانسان عمر ثان

يا طاهر الغدوات والروحات وال  
هل قام قبلك في المدائن فاتح  
يدعو إلى العلم الشريف وعنده  
خطوات والاسرار والاعلان  
غاز بغير مهند وسمان  
أن العلوم دعائم العمران

شقت لمنظرك الجيوب عقائل  
والخلق حولك خاشعون كعبيدهم  
فلو أن أوطانا تصور هيكلها  
أو كان يحمل في الجوارح ميت  
أو صيغ من غر الفضائل والاعلا  
أو كان للذكر الحكيم بقية  
وبكتك بالدمع الهتون غواني  
إذ ينصتون لخطبه وبيان  
دفنوك بين جوانح الاوطان  
حملوك في الأسماع والأجنان  
كفن لبست أحاسن الأكفان  
لم تأت بعد رثبت في القرآن

\* \* \*

تم أنت حفلة التأبين الكبرى — يوم الأربعاء — فقام الحزب الوطنى



على تنظيم هذه الحفلة . وقد حدد لها موعد الساعة الثالثة من ظهر يوم الجمعة الثانى من شهر مارس سنة ١٩٠٨ . فاحتشدت جموع لا حصر لها من الطلبة ، ومن الشعب على اختلاف طبقاته . وسار الجميع فى موكب رهيب وخلف هذه الجموع سارت عربية الفقيد مجللة بالسواد وليس فيها راكب علامة على فقد صاحبها . وبدأ سير الموكب من الساعة الواحدة بعد الظهر ، وانتهى فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين . وبدى الاحتفال بتلاوة ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم صعد إلى منبر الخطابة محمد بك فريد فألقى خطبة طويلة بدأها بقوله : —  
إخوانى الأعزاء .

إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى باشا كامل لم يمت . نعم لم يمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس ، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق ، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما ، حتى ضرب بتخاذلنا المثل ، وقالوا إن المصريين اتفقوا على الا يتفقوا .  
إخوانى الأعزاء .

.... إن أحسن تأيين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق الذى رسمه ومهده لنا . وإن نضم صفوفنا . ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية ، وامتلاك أبراجها ، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيا . إن أحسن تأيين لفقيدنا العزيز ترتاح إليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم اجمع . أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا ، فأصبحنا كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لى « وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار ، وواجب دعوة الأحياء إلى العمل .. الخ .

ثم نهض شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم فألقى فى تأيين الفقيد قصيدة أخرى أولها :

أتيت أثر بينهم أشعاري  
هل أنت بالمهج الحزينة داري  
والعيش عيش مذلة وإسار  
عاد وصاح الصالحون بدار  
طال انتظار السمع والابصار  
ماذا أصابك يا أبا المغوار  
جهلا بدين الواحد القهار  
همت وهم رجاؤها بعثار  
أو غضبة الفاروق للمختار  
صبرا عليك وأنت شعلة نار  
عزم يهد جلائل الاخطار  
لعب الفوارس بالقنا الخطار  
فجری القضاء وانت في المضار  
بدرت عليه غوائل الاقدار ؟  
وعلمت فيه مراتب الأقدار  
يمشون تحت لوائك السيار  
ركب الحجيج بكعبة الزوار  
عند المصلى ينصتون لقاري

وقد ألقى الشاعر الكبير خليل مطران قصيدة طويلة أربت على مائة وثلاثين بيتاً منها .

تروا عليك نوادي الأزهار  
زين الشباب وزين طلاب العلا  
غادرتنا والحادثات بمرصد  
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا  
أين الخطيب وأين خلاب النهى  
بالله مالك لا تحيب مناديا  
قم واع ما خطت يمين «كرومر»  
قد كنت تغضب للكنانة كلما  
غضب التقي لربه وكتابه  
قد ضاق جسمك عن مدالك فلم تطق  
أودي به ذاك الجهاد وهده  
لعبت يمينك باليراع فأعجزت  
وجريت للعلياء تبغى شأوها  
أو كلما هز الرجا مهندا  
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته  
تسعون الفا حول نعشك خشع  
آنا يوالون الضحيج كأنهم  
وتخالم آنا لفرط خشوعهم

فانعم بطيب جواره يا مصطفى  
خيرا وكل واجد ما أسلفا  
ومن الأسى الماضي بمقتبل الصفا

أعلى مكانتك الاله وشرفا  
اليوم فزت بأجر ما أسلفته  
وجزيت من فاني الوجود بخالد



من يرى الاسلام من تهم العدا  
قف ايها الناعى عليه جهوده  
إن يعتر الشمس الكسوف هنية  
ويرد نقد الناقدين مزيفاً  
فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا  
أيسكون منقضة لها أن تكسفا

مصر العزيزة قد ذكرت لها اسمها  
وكانت بالقبر أصبح منبرا  
مصر التي أحببتها الحب الذي  
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا  
كهواك للأوطان فليكن الهوى  
فارق رقادك إن ربك قد محا  
وأرى ترابك من حنين قد هفا  
وكانت بك موشك أن تهتفا  
بلغ القداء نزاهة وتمعفا  
من شملها مالم يكن ليؤلفا  
لا مفترى فيه ولا متكلفا  
بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

هذا قليل من كثير مما رثى به الخطباء والشعراء الزعيم الخالد  
مصطفى كامل . ولو ذهبنا نتتبع هذه المراثى التي نشرتها الصحف الوطنية ،  
والصحف الأجنبية لا تسع أماننا مجال القول .

عوض الله البلاد عن هذه الخسارة الكبيرة خير العوض ، وهدى أبناءها  
وقادتها وكبراءها سواء السبيل .

عبر الطيف همزه

تم بحمد الله الجزء الخامس

من كتاب ادب المقالة الصحفية في مصر

وبليه بمشيئة الله تعالى

الجزء السادس وعنوانه

احمد لطفى السيد

(صاحب الجريدة)

# فهرست الكتاب

صفحة

٥

مقدمة

## الكتاب الأول : على هامش الحركة الوطنية في مصر

يحتوى على ثلاث مقدمات : —

١٢

الأولى : — أوروبا والاستعمار

٢٠

الثانية : — أوروبا والاسلام

٢٩

الثالثة : — من هم بناء الوعي القومي في مصر

٣٩

## الكتاب الثانى : في حياة مصطفى كامل

يحتوى على فصلين : —

٤٠

الأول : حياة مصطفى كامل

٥٣

الثانى : — العقيدة السياسية لمصطفى كامل

٦٩

## الكتاب الثالث : مصطفى كامل والصحافة

ويحتوى على عدة فصول : —

٨٠

قبل اللواء

٨٤

مصطفى كامل في جريدة الأهرام

١١٠

نشأة اللواء

١٢٥

اللواء والاسلام والدولة العلية

١٥٦

اللواء والحركة الوطنية

١٩٤

اللواء والمجتمع المصرى

٢٣٣

اسلوب مصطفى كامل

٢٥٠

خاتمة المطاف

(فهرست كتاب)



# قائمة كتب المؤلف

١ — تراث الاسلام : ترجمة بالاشتراك ( لجنة التأليف والترجمة والنشر  
سنة ١٩٣٦ )

٢ — ابن المقفع : ( القاهرة سنة ١٩٣٧ )

٣ — ابن المقفع ( مطبعة الاعتماد سنة ١٩٥٢ )

٤ — صلاح الدين : طبع سنة ١٩٤٤

٥ — حكم قراقوش : ( مطبعة الحلبي سنة ١٩٤٥ )

٦ — الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول .  
( القاهرة سنة ١٩٤٧ ) .

٧ — أدب الحروب الصليبية ( مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٨ ) .

٨ — أدب المقالة الصحفية في مصر ، جزء اول ( مطبعة الاعتماد  
سنة ١٩٤٩ )

٩ — أدب المقالة الصحفية في مصر ، جزء ثان ( مطبعة الاعتماد  
سنة ١٩٥٠ )

١٠ — أدب المقالة الصحفية في مصر ، جزء ثالث ( مطبعة الاعتماد  
سنة ١٩٥١ )

١١ — أدب المقالة الصحفية في مصر ، جزء رابع ( مطبعة الاعتماد  
سنة ١٩٥٢ )

وسيطر قريباً بمشيئة الله تعالى : —

١٢ — أدب المقالة الصحفية في مصر الجزء السادس

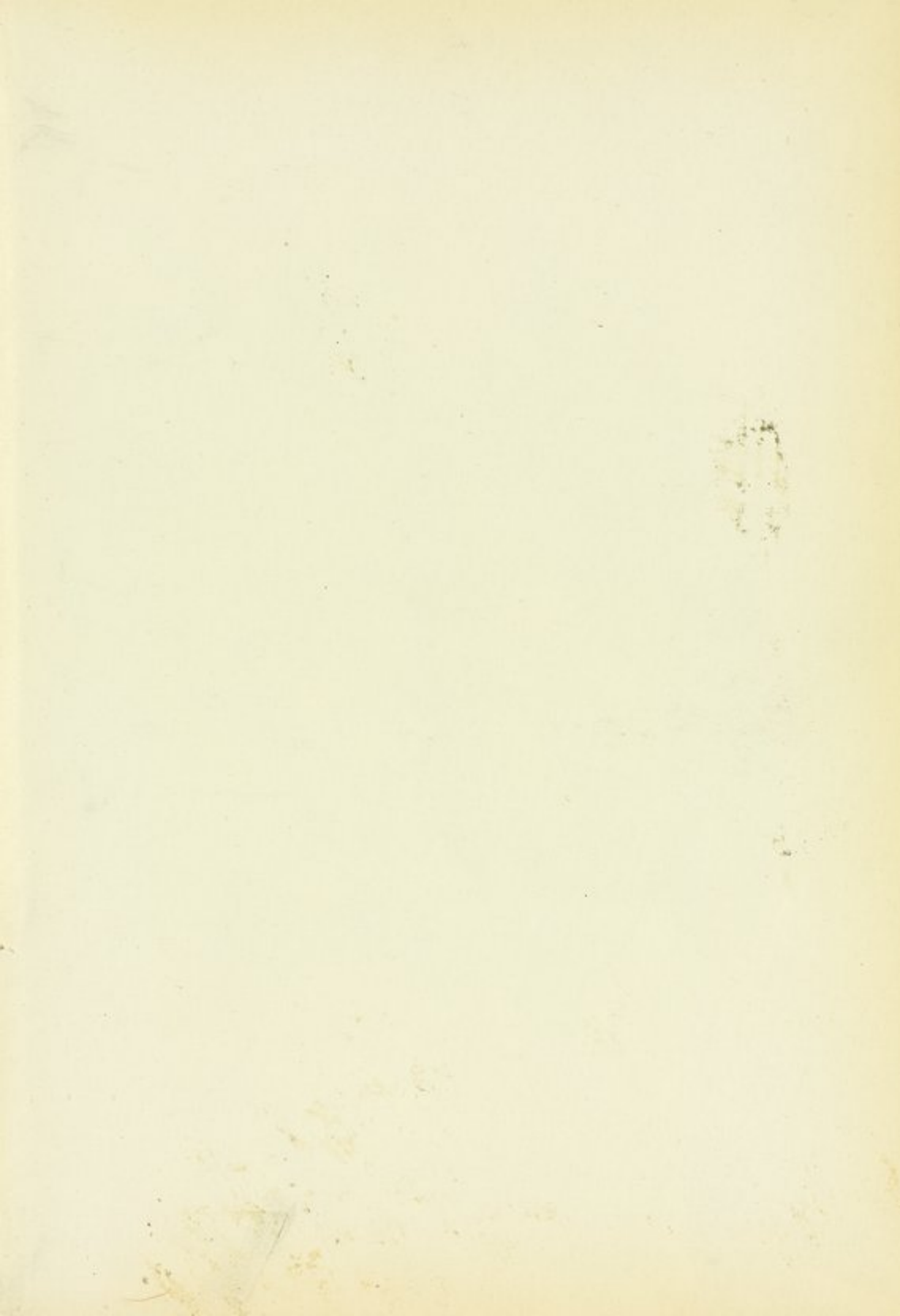
١٣ — الحركة الأدبية في مصر الأيوبية : ( وضع سنة ١٩٤١ )

مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول













0036762300

DATE DUE	
SEP 15 1976	OCT 18 1976

07612885

MAIN ENTRY

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE.  
A TWO DOLLAR FINE WILL  
BE CHARGED FOR THE LOSS  
OR MUTILATION OF THIS CARD.

PRINTED IN U.S.A.

47612885

